صالح الفهدي

قيم معطلة

في المجتمعات العربية

آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

قيم معطلة في المجتمعات العربية/ صالح الفهدي. – دمشق: دار الفكر، ٢٠١٠ .- ٢٢٤ ص ؛ ٢٥سم.

ISBN: 978-9933-10-120-6

١- ٢١٨,٨١ ف هـ د ق ٢-٣٠٣,٣٠٩٥٦
ف هـ د ق ٣- العنوان ٤- الفهدي

مكتبة الأسد

شباب لعصر المعرفة
2010=1431

دار الفكر - دمشق – برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
Http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

قيم معطَّلة

في المجتمعات العربية

صالح الفهدي

الرقم الاصطلاحي: ١٢٤٢٧,٠١١
الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-120-6
الرقم الموضوعي: ٢١٠ (دراسات إسلامية)
٢٢٤ص، ١٧ × ٢٥ سم
الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م
© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

المحتوى

مقدّمة ٩

الفصل الأول : قيم معطّلة في الأخلاقِ والسلوك (الحياة العامة) ١٣

تمهيد ١٣

قيمة اللغة ١٦

قيمة الوقت ٢٠

قيمة العلم ٢٧

قيمة العمل ٣٢

قيمة الحوار ٣٧

قيمة الإيثار ٤٢

سلامة الصدور ٤٦

بعض الظَّن..!! ٥١

قيمة الشكر ٥٦

قيمة الاعتذار ٦٠

قيمة الحلم ٦٤

معاملة الرجل للمرأة ٦٩

قيمة الحياء ٧٣

قيمة التسامح ٧٧

قيمة التفكير ٨١

قيمة الثقة ٨٧

قيمة القرار ٩٣

قيمة الأسلوب ١٠٢

قيمة التعامل ١١٥

ثقافة التآمر ١١٨
قيمة النظرة إلى الآخر ١٢١
قيمة النظرة نحو النّفس ١٢٥
القيمة المفقودة بين الأشياءِ والأفكار..! ١٣٢
قيمةُ النظام ١٣٧
الفصل الثاني : قيم معطّلة في الثقافة التنظيميّة (حياة العمل) ١٤٢
بين التقارب والتباعد.. ..... ١٤٦
قيم العمل.. ..... ١٥٠
قيم حديثة تتوافق مع قيم الإسلام ١٥٥
ضياع (أنا) الهويّة ١٦١
حدوث الارتداد..! ١٦٥
الاستلاب ١٦٨
الفصل الثالث : التغيير ١٧٤
الاقتناعُ بالجهل منطلق التغيير ١٧٨
بين المحافظةِ والتجديد ١٨١
صون الهويّة ١٨٦
نقد الذات ١٩٣
الاجتهاد المجدِّد ١٩٩
إصلاح الذات ٢٠٨
مراجع عامّة ٢١٩

"إن صرخت بكلِّ قواك،

وردَّ عليك الصدى "مَنْ هُناك؟"

فقل للهويَّةِ : شكراً"

محمود درويش

من مجموعته "كزهر اللّوزِ أو أبعد"

صفحة بيضاء
رقم ٨

مقدِّمة

تشكِّل الثقافة والهويَّة عنصرينِ هامين للشخصيةِ الاعتباريةِ للإنسان، ففي الوقت الذي تكتسبُ فيه الهويّة لون التميُّز والتخصيص والترميز، تتسيَّدُ الثقافة على الهويةِ، فهي التي تكسبها خصائصها وألوانها، وهي التي تمنحها طابعها الخاص بسماتٍ معيَّنةٍ، يطبعها التاريخُ في صحائفه.

وفي هذا العصر المتَّسم بالسرعةِ في انتقال المعلومةِ، والثقافاتِ المتداخلةِ، وتلاشي الحدود والأُطر التي تشكِّل كينونة المجتمعات الإنسانية، تتشكَّل كياناتٍ فرديَّةٍ تنفصلُ عن الكيانِ الجماعي وهو ما يبدو في العالم الغربي بشكلٍ واضح؛ إذ تتشكَّل هويّات فردية تحلُّ محلّ الهويَّةِ الجماعيةِ بسبب "عولمةِ" الفرد، وشعوره بأنّه ليس جزءاً من منظومةٍ مغلقةٍ، بل مفتوحةٍ على أي اتجاه، فحمل وطنه في حقيبته مع الشروط الوظيفية التي ارتضاها، ومضى لا يشعُر بالاغترابِ وإنما بالاستمتاع لكونهِ أصبح "فرداً عالمياً" أو "معولماً"..!!

والأسبابُ التي أنتجت هذا الشعور عديدة منها: كثرة الهجرات نحو المجتمعات الغربية، ونشوء كيانات من الأقليات العرقية التي بدت نشاطاتها الثقافية تبرزُ بشكلٍ واضحٍ في هذه البلدان، كذلك انتشار الشركات عابرة القارات برفقةِ قوى عمالتها المختلفةِ الجنسيات إلى أوطانٍ مختلفة بعد تماهي القيودِ أمام (منظمة التجارة العالمية) وبسبب (اتفاقيات المناطق الحرة) و (التكتلات الإقليمية والقارية) وتنامي الاستثمارات العالمية، والانفتاح الثقافي غير المحدود لكلِّ ثقافة أخرى..!

ووراءِ هذا كلِّه شعورُ الإنسان الغربي بالأخص من الخللِ القِيمي المسمَّى "اضطرابِ القيمِ"، يجسد هذه الصورة العالم ماسلو (Maslow)؛ وهو أحد

العلماء الأمريكيين المعروفين في وصف العصر بأنّه "عصرُ انعدام المعايير، وعصر الفراغِ وعصر بلا جذور، يفتقد الناس فيه الأمل، ويعوزهم وجود ما يعتقدون فيه ويضحون من أجله".

إنّما الحالُ في الوطنِ العربي قد يبدو مختلفاً، لأسباب تعود إلى ترسِّخ انتمائه وهويَّته الثقافية، أهمُّها الانتساب إلى الدينِ الإسلامي الذي دعا منتسبيه إلى التوحد، في قولهِ تعالى:

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣].

ثاني الأسباب التمسكِ بسنّة رسول الإسلام محمد ﷺ قدوةُ الأمّة الإسلامية الذي يقول: "مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحدِ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرُ الجسدِ بالسَّهر والحمى". رواه النعمان بن بشير.

ثالثها الانتماء الاجتماعي الثقافي المتمثل في التمسك بالأسرةِ والجماعةِ، حيث لا يجدُ الفردُ نفسهُ مندمجاً في كياناتٍ أخرى لا تمت بصلةٍ إلى كياناتهِ الاجتماعية التي تندمجُ فيها نفسهُ، ويشعرُ فيها بالرضا والطمأنينة على الأقل من الناحيةِ الاجتماعية.

رابع الأسباب ما تتميَّز به الشخصيات العربية - بصورةٍ عامة ـ من تفادي المغامرات التي تتعلَق بالمستقبلِ الوظيفي (أثبت ذلك الباحثُ هوفستيد Hofstede بأن تفادي العرب للأحوال غير المتوقعةِ uncertainty avoidance عالي بنسبة ٦٨٪)[1]، والانتقالِ من مجتمعٍ لآخر، أو من شركةٍ لأخرى، في حين أن السبب الأكبر الذي أدّى إلى "هجرة العقول" هو انكماش فرص المعيشةِ

(1) - Hofstede, G. (1980)، Cultures Consequences: International Differences in Work-Related Values,)Sage Publications, Beverly Hill.

الكريمةِ في أوطانها الأصلية وفقدان فرص البحث والتطوير. وفي المقابل وجود السوانح المغرية في العالم الغربي، لكنّها لم تسلخ هويتها، وظلت متشبثةً بجلدها، بل إنها أنشأت أقلياتٍ تنشر ثقافتها في تلك العوالم وتؤثر فيها، فهي إذن لم تتأثر إلّا من الناحيةِ العمليةِ وكان تأثرها إيجابياً.

لكن المعضلة الحقيقية في المجتمعات العربية تكمن في "أزمة قيم" حيث "يتبدى ذلك في حيرةِ الإنسان العربي بين الأخذ بقيمهِ الأصيلةِ أو القيمِ الوافدةِ، فهو يعيشُ موزَّع الانتماء بينها"[1]، ليس هذا فحسب؛ بل تعاني هذه المجتمعات من الازدواجية أو ما تسمى بـ "المفارقةِ القيمية[2]" التي تعني ازدواجية القولِ والفعل..! وهو ما يخالف أمر الله سبحانه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٦١/٢-٣]، وثالثة الأزمات تكمن في اضطراب "النسق القيمي" للإنسان العربي واختلاله وفقدان ترابطه وتماسكه وقدرته على توجيه السلوك، ومن ثم عجزه عن تشكيل منظومة قيمية مستقبلية تجسد الهوية العربية الإسلامية[3].

هذه المعضلة تفتحُ الطريق إلى الحديث عن خللِ الثقافةِ والهويةِ؛ لأن القيم هي جوهرُ الثقافةِ ومركزُ الهوية، فكيف يمكنُ لثقافةٍ أن تتشكل أو هويةٍ أن تكتسبَ خصوصيتها دون أن يكونَ لها قيم جوهرية..؟! القيمُ الجوهرية مؤسَّسة في الإسلام، غُرست بواسطة القرآن الكريم والسنَّة النبوية الشريفة، لكن ما حدثَ أنَّ الكثير من هذه القيم قد عطَّل من قبلِ المسلمين، وبقيت إرثاً يفاخرُ به الكثيرون منهم، دون أن يعملوا به في واقعهم..!!

لقد قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى ثلاثة فصول: حيث عمدت إلى الحديث في

---

(١) القيم السلوكية للدكتور/ محمود عطا حسين عقل، دراسة أعدّت بتكليفٍ من مكتب التربية العربي لدول الخليج، ٢٠٠١.

(٢) المصدر أعلاه.

(٣) المصدر نفسه.

الفصل الأول عن قيم هامة معطّلة في المجتمعات العربية الإسلامية، ثم عرجت في الفصل الثاني إلى النظر بواقعية نحو بعض قيم الممارسات العملية الحديثة التي جاءت في إطار العولمة وما جلبتهُ - في جانبها الصالح ـ من منافع إيجابيةٍ تتلاقى في جوهرها مع ما جاء به الدين الإسلامي، وفي الفصل الثالث عرضتُ الحلولَ للتغيير من باب الوسائل والأدوات التي يتم بها.

يقول تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٥].

ولعلَّ المشهدَ الباعث لهذا المشروع كله هو السؤال الذي قفزَ إلى ذهني فجأةً في إحدى صلوات الجمعةِ حيث رأيت مفارقةً في المشهدِ وكان كالتالي، داخل الجامع: صفوف متراصة، منتظمة، منصة، ساكنة، وخارج الجامع: أحذية متناثرة، تشكّلُ فوضى عارمة وبينهما عتبة، بل بينهما في الأصلِ قيمٌ معطّلةٌ، وازدواجيةٌ عميقةٌ، ومفارقات شاسعة..!! وكان السؤال: لماذا هذا البَونُ المتباعد بين مشهدِ النّاس داخل الجامع وحياتهم خارجه؟!! الإجابةُ لهذا السؤال كانت هذا الكتاب..!

صالح الفهدي

بين مدينتي (المملكة المتحدة) ومسقط

الفصل الأول

قيم معطّلة

في الأخلاقِ والسلوك (الحياة العامة)

"إن معرفة بلا أخلاق، ولذّةً بلا ضمير، وسياسة بلا مبادئ، وتجارة بلا فضيلة، وثروة بلا عمل، وعلماً بلا روح إنسانية، تمثل تدميراً للنشاطات الإنسانية السابقة"

غاندي

تمهيد

"لقد أصبحنا لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة، ونسينا الواجبات، ونسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب، بل فيما يسودنا من عادات، وما يراودنا من أفكار، وفي تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم الجمال والأخلاق، وما فيها أيضاً من نقائض تعتري كل شعب نائم".

الفيلسوف مالك بن نبي

يلفتُ نظري كلّ مرةٍ أذهبُ فيها للجامعِ لأداءِ صلاةِ الجُمعةِ مشهدُ الأحذيةِ المتراكمةِ في عتباته..!! بحيثُ يضطرُّ المصلِّي كي ينفذ إلى الفناءِ الداخلي للمسجدِ إما إلى المشي عبر قطعٍ متراكمةٍ من الأحذيةِ التي تشبهُ في فوضويتها العارمة شواهدَ على هَلَعٍ قد شهده المكان منذ قليلٍ.!

ولا ينتهي بي الحالُ عند هذه اللّوحة المرتبكة، القلقة التي تحتويها الأحذية المتنافرة، المختلطة...وإنّما يمتد إلى مراجعاتٍ أعمق، وتأملات أوسع.. يمتد إلى مقارناتٍ أكبر: بين العادة والعبادة، بين المسجدِ من جهةٍ والشارع والبيتِ والعملِ من جهةٍ أخرى، بين الدِّين كعقيدةٍ، والممارسات الإنسانية في الواقع..

إن مشهد الأحذيةِ المتراكمةِ قد قادني لعقدِ المقارنةِ مع المشهدِ الداخلي في الجامع، فبدا لي تعارضُ المشهدين: المشهدُ الأول: خلف عتبةِ المسجدِ، فوضى عارمة، بينما يقفُ المصلُون - في المشهدِ الثاني ـ في صفوفٍ مستقيمةٍ، متراصة، بكل معاني السكينةِ، والهدوءِ، والخشوع..!! وسألتُ نفسي: ما السببُ في هذه الفوضى والعشوائية المتجسدة في أكوام الأحذية خارج الجامع، وذلك الانتظام والهدوء داخله..؟! أهي العجلة البشريَّة التي تغشى سلوك الإنسانِ أينما توجه ويمم..؟!! أم هو عدم الاكتراث الذي يبديه النّاس مندرجاً في الاستخفاف التاريخي للحذاءِ وقيمته..؟!

ليس ببعيدٍ عن منظرِ الأحذيةِ المتراكمة، منظر السيارات المتراكمةِ أيضاً على جوانبِ الشارعِ أو المواقف العشوائيةِ، ولو بحثت عن مواقفِ السيارات ظناً منك أنها قد امتلأت فإنك تُدهش بأن هناك من المواقف ما لم يستغل، وقد فضل بعض النّاس إيقاف سياراتهم بطريقةٍ عشوائية تعرقل حركة المرور بزعم أنها قريبة من المسجد..!!

ثمَّةَ إجابة أعمق كانت حاضرة: إنه خلل في فاعلية الدين في الخارج/ الحياة لدى هؤلاء.!

وحينما كان الإسلامُ مرجعاً أساسياً لكلِّ ما يعتورُ حياةَ الإنسانِ من مواقفَ، أو ظواهرَ أو مشكلاتٍ، ابتداءً من أصغر الأمور ذات التفاصيل الدقيقة، إلى القضايا الكبرى، فإن المشكلة حتماً ليست في الدِّين، إنما في تفعيل الناس لمبادئهم الدينية ومعتقداتهم..!

لم يكن من المفترضِ أن يكون هذان المشهدان متفاوتين، متضادين وإلا كانت الازدواجيـة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ

أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٦١/٢-٣] هذا هو التعبير القرآني عن الازدواجية: أن تقول ما لا تفعل..!!

المشهدان صورتان معبّرتان عمّا يعتورُ حياتنا من ازدواجية، كتلك التي حدث عنها مالك بن نبي ذات مرة، وهو يصف أحد المصلين، وقد انخرطَ في موجة من البكاءِ الشديد عند استماعهِ لخطبةِ الجمعة، وحين خرج من المسجدِ كان شخصاً آخر، وكأن شيئاً لم يطرق آذانه..!!

هناك إذن اعتلال في التعاطي مع فكرةِ الأمرين المتكاملين في الأصل: أمرُ الدِّينِ، وأمرُ السلوك بحيث انقسما بين اعتقادٍ خالٍ من سلوك، وسلوكٍ خالٍ من اعتقاد..!!

أقفل الكثير من الناس في مجتمعنا المنبهات الحسيةِ التي ما فتئت ترن في عقولهم، كي توقظ فيهم الإدراك بأن ثمّة خطأ سلوكياً عليهم أن يراجعوا أنفسهم فيه، وفي معقِّباته.. وما يمكنُ أن يتبعه من ضرر بالغ بالآخرين..

إنهم لا ينصتون لصوت الضمير.. الضمير الذي يبعثُ إليهم بإشارات، أشبه بالهمسات، أو تارة أشبه بالوخزات، فثمة رغبةٍ ملحة بالتجاهل، بالممارسةِ التي توافق الهوى النفسي، والنزوات التي تسلبُ العقلَ التفاتاته الوضيئة التي قد تشعّ من حينٍ لآخر، حتى يندفن تحت رمادِ الإدمان الثقيل..!!

يمكننا أن نصوِّر المشهدين: مشهد واقع الناسِ، وحياة المسجدِ في صورة ذات قسمين الأيمن تغطي بياضه الخطوط الفوضوية العشوائية، والثاني تنظمهُ خطوط مستقيمة، يقطع ما بينهما خط فاصل..!

نحنُ إذن في القادمِ من الحديثِ إزاءِ معضلاتٍ وراءَ هذه الفوضوية، وعدم الانتظامِ في حياةِ النّاس، إزاءَ صورها ومسبباتها.. هذه المعضلاتُ تظهرُ في صورة "قيم معطلة". وأقول: معطلة؛ لأنّها في الأصلِ مشمولة في الإطار الإسلامي، بل هي مما يتأسسُ عليه الإسلام، إنمّا هنالك - بلا شك - بعض القيم لم أشملها، وذلك بسببِ غفلتي أو لجهلي وقلّةَ علمي أو قصور ملاحظتي، وقد أشملها في نُسخٍ أخرى لهذا الكتابِ بإذن الله.

قيمة اللغة

إحدى المكوِّنات الأساسية للثقافة، ولشكلِ الهويَّةِ هي اللُّغة. الأمرُ الفريدُ في هذا المكوِّن أنه كائن حي مقترن بالإنسانِ في مراحلِ تطوره أو تدهوره الحضاري..!! اللغة مؤشِّرُ حضارةٍ يمكنُ قياسُ الحراك الثقافي عليه - من وجهةِ نظري - فإذا امتلك القدرةَ على الحياةِ، والحياة تجدد، وابتكار، واستحداث فأمّتهُ تبرهنُ بذلك عن قوَّةِ أساسها، ومتانةِ بنائها..! أمّا إذا اضمحلَّ، وجف وتدهور، فإنّه في المقابل يثبتُ على وهَن الأمّةِ، وتضعضعها، ونحولها..!

الخطيرُ في الأمرِ، أنّ اللّغةَ ليست مجرد (أداةٍ للتخاطب)، ولو كان هذا نطاقها لأصبحَ أمر فقدها أو اضمحلالها أمراً يسيراً على النفس، لكن اللّغة - وهي كائنٌ حيّ - ترتبطُ بالذاكرةِ، والذاكرةُ هويّة..! الذاكرةُ بناءٌ ثقافي متراكم..! وما يحدثُ من تراجعِ اللّغةِ يعني إعطابَ الذّاكرةِ، تهميشها، تشتيتها، إقصاءها أو إلغاءها نهائياً..!

هذا ما حدثَ لمهاجرٍ إفريقيٍّ في أمريكة، حينما كان يستمتعُ بسردِ ذكرياتهِ في موطنه الإفريقي عندما كانت اللّغة الأم حاضرة في ذاكرتهِ، لكن عندما وهنت اللّغةُ، أعطبت ذاكرته..! ومن ثم أصبح لا يتذكر شيئاً حينما نسيَ لغته..!! لقد سقط شريطُ الذكرياتِ في ضجيجِ المهجرِ وصخبه..!

وحينما ترتضي أمّة من الأمم أن تتقهقر حضارياً، فإنّها تعطي الذريعةَ للآخرَ باستعدادها للاستعمار، يقول أستاذ الاجتماع التونسي محمود الذوادي: إن الإنسان الذي يُسْتَعْمر لغوياً، تم تجريده من أعزِّ ما لديه، وبذلك يصبحُ جاهزاً للاستعمار..!

إنّما لا يمكنُ فعلُ ذلك في ظلِّ وجود إيمان عميق، ليس بأهميَّةِ اللّغةِ، وإنّما في الجوهرِ بضرورةِ الإبقاءِ على المؤسسات الثقافيةِ للكيانِ الحضاري

للأمّة.. معينُ اللّغة العربيّةِ ومصدرها الرئيسي لا يمكنُ التّطاولُ عليه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩/١٥]. لكن المعضلةُ الحقيقية تكمنُ في فقدانِ الطريقِ إلى القيمِ الجوهريَةِ في الثقافةِ، حين يصبح لدى الأمة نزوع قوي نحو الإعجاب غير الواعي بالثقافةِ الأخرى..! الإعجابُ غير الواعي بالطبعِ إعجابٌ بالقشور، بالسطحيات.. أو أن تراهن على ممارستها لقيمها، وهي بعيدة عنها، ثم تهاجمُ الآخر لأنه كان سبباً في مصائبها..! وهنا تقعُ ضحيّةً لخطابها المضلّل..!

على سبيلِ المثالِ، كتبتُ ذات مرّة عن أحد الذين نصَّب نفسه خطيباً كان يراهنُ على أنَّ عزوف الشباب في مجتمعنا بسبب تقليده للـ (الحظيرة) وليس الحضارة الغربية..!! ولم يعِ لبرهةٍ أن ما يلبسه وما يستخدمه من أخمص قدميه حتى رأسه، وما يجلسُ فيه وتحته، وما يتحدثُ عنه هو منتجُ هذه التي يسمّيها (الحظيرة)..!!

القضيّة الأساسية هنا تبدو معقدة؛ فبقدرِ أهميةِ الحفاظ على اللغةِ فإن ذلك لا يمكنُ تحقيقه في ظلِّ تقهقر تنموي شامل في جميع القطاعات.. تنمية منتجة تسد حاجاتها على أقلِّ تقدير..فاللّغة في نهايةِ الأمر دون هذا الشرطِ الماديِّ - لا محالةَ - آيلةٌ للوهنِ والإقصاء..! فهي إذن رهينةُ السُّوق، وأسيرةُ المنتج.. لأن لغة السواد الأعظمِ من النّاس تؤثثها مفردات المعاش اليومي المرتبطِ في نهايته باسم المنتجِ، وأمورِ السوق..!

لكن "ما لا يدرك كلّه، لا يترك كله" بمعنى: إن لم نكن قادرين على المنافسةِ الاقتصاديةِ، فإننا قادرون ـ في المقابل ـ على تحريك جمودِ اللّغةِ، بتطبيق سياساتٍ لغوية تجعلُ من اللّغةِ الأمِّ لغة مفضّلة لابنها، مثل أن نعمل على تشجيع الآداب المختلفة لمختلف الشرائح الاجتماعية، تشجيع القراءة، إنشاء المعاهد غير الربحية لتمكينِ اللّسان العربي، تقنين التحدث والتخاطب بالعربية في المؤسسات المختلفة إلا في الضرورات.

هذا التّحركُ يهدفُ في جوهره لخدمةِ الهويّةِ، والحفاظِ على نمطها العرقي

الممتدِّ ليس لغرض التّواصلِ وتبادل المصالح، وإنّما لهدفٍ سماوي أعمق من هذا ولا سيما أن الكتابَ السماوي للأمة هو "القرآن الكريم" منزّل باللّغة العربية.

المساعدُ على هدم اللّغةِ أصحابها قبل أن تكون المصطلحات التي تفرضُ نفسها نتيجة لتقدم الآخر واستهلاك منتجاته.. فإذا كانت الهمم عاليةً للحفاظ على اللّغة لن يستطيعَ أحدٌ كسرَ صلابتها، هذا الأمر هو الذي مكّن الزيتونيين، كما يقول أستاذ الاجتماع التونسي محمود الذوادي من الحفاظ على العربية وعدم التماهي مع الخط الذي رسمه الاستعمار. فالبعضُ في البلدانِ النّاميةِ، مجتمعاتنا العربية مثلاً يحسبُ أن التحضرَ هو في خلطِ اللّغةِ العربية - وهي على كلِّ حال لهجات - بالمفردات الإنجليزيةِ في الغالب. يحدثُ هذا منه عن وعي بأن المفردة العربية حاضرةٌ إن أرادها لكنّه يفضّل الأجنبية..

أخبرني صديقٌ مغربي ذات مرّة، وهو مدرِّسٌ للغةِ العربية، أنّ المرأة التي أراد الاقتران بها تخلت عنه لأنّه يدرِّس العربية فهي تفضّل من يدرّس الفرنسية..!! العربي رجعي في نظرها، وفي الجوهر: أي في نظرة العربي لنفسه..!

نحنُ نعاني الازدواجية فيما نتحدثُ به وما نكتبهُ، يقول الفيلسوف الصيني: Huang Zunxian (١٨٤٨ـ١٩٠٥) "إن ما تكتبه يدي هو ذاته ما يتحدث به لساني". ويقول شاعرٌ صينيٌّ Chen Lei (b. 1939)[1] مخاطباً هذا الذي يتحذلقُ بالتّحدثِ بالإنجليزيةِ:

خذ نظرة: تعال إلى أمريكة

وتحدث بالشنغاهيةِ، أو الكانتونيةِ أو البكّينيّة

هل يكترثُ أحدٌ بتحديكَ للتحدثِ بها..؟!

(1) How to Forget Your Mother Tongue and Remember Your National Language by Victor H. Mair University of Pennsylvania

انظر إذن: لماذا أنت وحدك من يتصرف هكذا..؟!

يمكنك أن تخدش جلدي

تأكلَ لحمي

لكنك لا تستطيع أن تسلبني حقي في لغتي

صوتي هو إحساسي..

لغتي هي تفكيري..

هذا هو مسبِّبٌ رئيس من مسببات الجاهزية للاستعمار التي عناها الفيلسوف مالك بن نبي، فالفردُ يزهو بلغةِ الآخر القوي، كما يزهو الطاووسُ بذيله المزركش..!!

قيمة الوقت

"نعمتان من نعم الله مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ"

حديث شريف رواه البخاري

الوقتُ قيمةٌ ثمينةٌ من قيمِ الإسلام، قيمةٌ يكتنفها أحدُ الأسئلة المصيرية التي ستواجه الإنسانَ في عاقبته، عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه".

وثمنُ الوقت قدسيٌّ يتمثَّل في قسم الله سبحانه وتعالى به حين يقول: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١٠٣/١-٢]، هذا أمرٌ معلومٌ لا يحتاجُ إلى كبيرِ حجّةٍ، ولا كثير إقناع: إن الوقتَ قيمةٌ أساسيةٌ من قيمِ الحياةِ التي حرص على تأكيدها الإسلام، والحثِّ على استثمارها..!

لكن نمط حياتنا بعيدٌ - في عمومه - عن التّمثل الأصيل، والصحيح لقيمةِ الوقت، فواقع الناس في مجتمعاتنا يحدّث بغير ما تدعو إليه هذه القيمة الجميلة من قيمِ الدِّين، ولأضرب في هذا المقام مثلاً شهدته:

في أحد الصبّاحات ـ من سنوات ـ توجّهت وبعض من الرفقاءِ إلى منطقةٍ تقارب مسافة الساعة بالسيارة، بعيداً عن المكان الذي نقطنه، وانتظرنا الرّجل المقصود في تلك المصلحة، فقيل لنا إنه تعوّد كل صباح يقضي مصالحه الخاصّةِ قبل مجيئه إلى المكتب.

وحين دخلنا عليه بعد تأخير دام ساعتين كان مساعده مشغولاً بحل الكلمات المتقاطعة، وقد احتل إحدى زوايا الطاولة..!! وقبل أن نستأذن منصرفين شعرتُ أن الواجب يحتم عليَّ إكمال المتعةِ على مساعده بعونهِ على ما تبقى من كلماتٍ متقاطعة، وقد أعجزته اثنتان ساعدته في حلّهما، وانطلقنا في حال سبيلنا..!

ويا للمفارقة! فبعد أسبوعين قرأت مقابلة صحفية أجريت معه يتحدث فيها عن (أهمية الوقتِ في الإسلام.!!).

هذا نمطٌ من أنماط تعاملنا مع الوقت: نهدره بإفساد مصالح الآخرين، ثمَّ نتشدقُ في الحديثِ عن أهميته!! ولعل الأمة منذ أن بدأ مسيرها يحيدُ عن خطِّ الزّمن الفعلي، تاهت في بيداء مترامية الأطرافِ ليس لها دروب، ظلّت تبحثُ خلالها عن الخلاصِ، والخلاصُ - لعمري - ماثلاً في دقّات الزّمنِ، الخلاصُ في كلمةٍ ذات أحرفٍ ثلاثة: و..ق.. ت!

منذ أن دخلَ علماءُ الأمّةِ - إلّا النزر غير الفاعلَ ـ في المهاتراتِ، والبحوثات الغيبية، والميتافيزيقية، وتجادلوا في غير العلوم الطبيعية، قادوا الأمةَ إلى متاهات الحياةِ، فلم تعد تستفيقُ إلى الخط الذي انبلجَ شعاعه من غارِ حراء، فأفاضَ نوراً في أرجاءِ المعمورة، حتى يكتملَ في اللحظةِ التي يستلمُ فيها الملك شارلمان ملك الفرنجة هدية هارون الرشيد، وهي ساعة اخترعها علماءُ المسلمين في القرن التاسع الميلادي (٨٠٧م).

إدراك المسلمين الحذق بالوقتِ/ الزمن أوصلهم إلى اختراعِ الساعة التي أدهشت صناعتها ملكاً أوربياً كبيراً.. الأمر الذي يشي إلى أن الفكرة الإسلامية لم تكن لتنجحَ في واقع الحياةِ لو لم تَرْكب مركب الوقتِ المقسَّم بشكلٍ صحيح..

تُدهش أوربة حينها بالسّاعة، ومجازاً يدهشون بقيمةِ الوقتِ لدى المسلمين.. لكن كيف الوضع الآنَ؟! وضع عكسي بالطّبعِ، لقد تعطّلت ساعةُ المسلمينِ عن العمل في حين دارت عقارب الساعة الأوربية في مدارها الزّمني بثباتٍ وانتظام..!

تغيَّرت النظرة الثقافية نحو الوقت، فصار العربيُّ المسلم يقطع وعد الإفرنجي مبرهناً على نواياهُ في الوفاءِ بالوعد للمسلمِ الآخر..!!

إن إفرنجياً لا يلتزمُ بموعدٍ قطعه يعد شذوذاً عن القاعدة، وإن عربياً لا يتأخرّ - في المقابل - عن موعده شذوذاً عن القاعدة..!! هكذا انقلبَ الحال..

انتُهكت قيمةُ الوقتِ في مجتمعاتنا، فإن شئت لهذا دليلاً فانظر وأنت تقطعُ الشوارع في مجتمعاتنا.. انظر تحت المصابيح المنيرة التي يتبدّد نورها بالقهقهات الفارغة، والسمراتِ المكرورةِ التي انسحبَ البريقُ منها فأمست باهتة لا يعمّرها جديد، ولا يؤنّسها حديث..! وانظر لتلك المقاهي المكتنزة بالشباب المهدور، والأعمار الضائعةِ على الأراجيل.. مقاهٍ تغصُّ بروّادها الملتزمين.. فتذهب نفسك حسرات على الأوقات المهدورة.. وتسأل: أليس لهذه الأنوار من يعمرها بالأعمال النافعة، المثمرة..؟! ثم سل نفسك: هل كان توماس أديسون يدرك أن عمره الذي أفناه في اختراع المصباح سيتبدد في لعب الورق، وشرب الأرجيلة في المقاهي العربية..؟!

المنطلقُ الإسلامي يبدأ من قاعدة ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ٤/١٠٣].

ولا ينتهي عند أقوال علماء الأمّة التي منها:

مقولات بعض الصالحين:

- "يا ابن آدم، إنما أنت أيام، إذا ذهب يوم ذهب بعضك".

- "يا ابن آدم، نهارك ضيفك فأحسِن إليه، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك، وإن أسأت إليه ارتحل بذمّك، وكذلك ليلتك".

- "الدنيا ثلاثة أيام: أما الأمس فقد ذهب بما فيه، وأما غداً فلعلّك لا تدركه، وأما اليوم فلك، فاعمل فيه".

ومنهم من قال: "ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزدد فيه عملي".

ويقول آخر: "إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها".

إنّما تمر علينا ملايين الساعات على اختلافِ ألوانها، وأشكالها فلا تثير الغيرة في قلوبنا، وإنما تسيطرُ علينا رغبات الخمولِ والدّعةِ والتكاسل، مكتفين بتلك الأعمال اليومية الرتيبة..!

تمرُّ الساعةَ تلو الساعة بينما نجنحُ للسكونِ، ونركنُ للدعةِ، وحينَ نهرجُ، تنفلتُ الأمثال من معاقلها البليدة، لنقول: الوقتُ كالسّيف إن لم تقطعهُ قطعك.. هل شعرنا ذات مرة أن سيف الوقتِ قد قطعنا؟!! ولو كنّا نستشعرُ به لكنّا نتألم أشدّ الألم لمضاءِ شفرته، وانفلاته من قبضةِ أيادينا كالمهرِ الفارِّ بلا رجعةٍ، أو كالحلم الذي كان يغرينا بإمكانية أن نعمل لتحقيقه على أرضية الواقع فيصبح ملموساً، لكن دون فائدة (وما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ!!).

* * *

نقفُ أمام سوانحِ الوقتِ، ليتنا تصورناها حورياتٍ كواعبَ تغرينا..! لكنَّ السوانحَ بدت كأشباحٍ هلاميةٍ ليس لها أثرٌ على جلودنا، على أحاسيسنا.. نحنُ مثلَ ما نحنُ لم يتغير فينا شيء..!

أجل، نفكِّر في لحظاتِ الخلوةِ في الوقتِ، نعتبرُ حينها بقيمته، وثراءِ مورده، لكنّنا نفتقدُ إلى الرؤيةِ البيِّنة التي تتجلّى أمامنا فكرة غير مواربة تدلّنا على الطريق الفعّال لتحقيق النجاح..

ثمّة أناسٍ من بيننا شذوا عن القاعدة، بعد أن أدركوا قيمةَ الوقت، وليس ذاك فحسب بل عملوا لأجلِ امتلائه بالجهود العمليةِ المخطّط لها سلفاً، فأدركوا النّجاح، ولم يكتفوا فرسموا الهدفَ تلو الهدفَ مخافةَ أن يعودوا القهقرى إن هم اكتفوا بتحقيق هدفٍ واحدٍ فحسب.. لقد خافوا أن يهرب الوقتُ من أياديهم، ويتبلّدوا كما تبلّد غيرهم، وحينها ينهدُّ صرح النجاح الذي بنوه لأنفسهم، ويجدون أنفسهم في أرضٍ مستويةٍ لا قبلَ لهم ببنائها ثانيةً؛ لأنّ الوقت أضحى

بعيداً عن آمالهم.. أضاعهم بعد أن أضاعوه.. وفقدهم بعد أن ظنّوا أنهم وصلوا قمّته، وأن مروره عليهم غدا مرور الكرامِ، وأنّهم أعملوا فيه جهدهم، وأخذوا منه نصيبهم، بينما الوقتُ في الحقيقة موردٌ لا ينضب..! ومن وصل إلى قناعةِ نضوبه، واضمحلاله سيكون هو الخاسرُ الأكبر!

لقد أصبحت مواعيدنا في كثير من الأحيان خارجةً عن ضبط الوقتِ، وكأننا نفتقدُ إلى الساعات، وهي تتلامع في سواعدنا، وعلى جدران منازلنا، وفي هواتفنا النقّالة، وفي سيّاراتنا، لكن الضبط الحقيقي كامنٌ في النّفس التي لم تمهّد نفسها كي تتماشى مع عقاربِ السّاعة، فتدور معها في دوراتها الستين..!

قيمةٌ عظيمةٌ مهدورةٌ هي قيمةُ الوقتِ، وإهدارها مناقضٌ للعقيدةِ الإسلاميةِ التي تتشبَّثُ بالوقتِ وتجعله واحداً من مبادئها السامية، الرفيعة التي يسمو بها المسلمُ في دنياهُ وآخرته.

يقول نيلسون مانديلا: إن أكثر شيء يقتلني هو أن أنهض في الصباحِ فلا أدري ماذا أفعل..!! يقولُ هذا وقد تجاوز الثمانين من عمرهِ..! فلا شيءَ يُسعدهُ أكثر من جدولِ يوم مزدحم بالعمل..! لربما ينتابهُ هذا الشعورِ لأن شبابهُ بما يحتويهِ من طاقاتٍ وثّابةٍ ونشاطٍ حيوي، وجسدٍ قويٍّ معافى، كان مقيّداً في قارورة السِّجن، فلم يكنُ يشبهُ سوى المارد الذي كبِّل بالأغلالِ كي لا يقود حزب المؤتمر الوطني إلى هزيمةِ العنصريةِ.. لكن ما الذي يفعلُه كثيرون من الشبابِ الذين يستمتعون بالحريّةِ في هذه المرحلةِ الفعّالةِ من حياةِ الإنسان..؟!

في ثقافتنا الكثير من النماذج العظيمةِ في هذا الشأن وهي مضرب المثلِ للعملِ، ويجسِّد الحديث الشريف القائل: "إذا قامتِ الساعةُ وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها" أهم القيم العمليةِ التي تُعنى بالعمل واستمراريته في حياةِ المسلم.. إنّما الكثيرون - وهم في أوجِ شبابهم - ينظرون إلى التقاعدِ على أنّه انتهاءٌ للحياةِ العمليةِ وبدءُ مرحلةٍ من الاسترخاءِ، والخمول والكسلِ، ولسانُ حالهم يكرر القول: لقد أدّينا ما علينا وبقي الدور على الأجيال القادمةِ.. وكأنّهم لم يسمعوا الشيخ الهَرِمَ الذي كان يزرع، فقيل له: لِمَ تزرع: قال: زرعوا

فأكلنا، ونزرعُ ليأكل غيرنا..!!.. وكان أحرى بهم أن ينظروا إلى التقاعدِ على أنّه مرحلة عملية أخرى تكون الخبرةُ مهادها، والعقلانية ركيزتها، والجهدُ عطاؤها.. فالتقاعد الحقيقي عن العمل هو الموتُ وحده.. فإن شاءَ الإنسانُ التعبد فالعمل أسمى العباداتِ. وإن شاءَ الاسترخاءَ فهو يتركَ نفسهُ نهبةً للكثير من الوساوسِ والأمراض الخفيّةِ السبب.. فلا شيءَ يُطيلُ حياةَ المرءِ سوى العمل.. العمل المرتبطُ بالصالحاتِ من الأعمال بالطبع..

وانظر إلى الكثيرِ من الشبابِ ماذا يفعل الواحد منهم.. قيِّم أداءه في عملهِ، راقبْ يومه العملي كيف يقضيهِ، وعدِّدِ الأعمالَ التي يُنهيها والتي يؤجّلها إلى الغدِ الذي لن يجيء حتى تتراكم في مكتبهِ الأعمال..!! اعلم أن كثيراً من معرقلات التجديد والتغيير العملي تعودُ إلى الثقافةِ السائدةِ في العمل لكن مسؤولية الأداءِ الوظيفي الشخصي هي على كاهل الموظف، ثم قسّم وقتهُ اليومي بين عمل جادٍ، أو وقتٍ غير مثمرٍ يقضيهِ في شتّى المصالحِ أو يركنُ فيه إلى ما تهواهُ نفسه..!

ثم تتبّع وقتهُ المسائي بعد استيقاظهِ من قيلولةٍ طويلةٍ مملّةٍ - تكملُ دورةَ النومِ المتأخّر - قيلولةٍ يُنشأ العالمُ فيها آلاف المشاريعِ الكُبرى.. فماذا تجدهُ فاعل.. أين هي مشاويرهُ وما هي مشاريعهُ..؟! فإذا كانَ العمل الرسمي بالنسبةِ إليه معرقلاً - كما يزعم - فأين هي مشاريعهُ الشخصية التي يمكنه أن يُطلق فيها مهاراته وقواه ويديرُ فيها ولا يُدار..؟! ولننصفْ فئةً من الشبابِ في هذا المقامِ، أولئك الذين أنشؤوا مشاريعهم الصغيرة أو الكبيرة، فيومهم مقسوم بين نوعين من العملِ، وجهدهم موزّعٌ إلى ثلاثةِ أقسام: عمل رسمي، مشروع خاص، ثم وقت خاص للأسرةِ أو الأصدقاءِ أو للنّفس.. وهؤلاءِ مثلٌ جميل، حتى إن شعر الواحدُ منهم أن مشروعه الشخصي يقتضي التقاعدَ من العمل الرّسمي قدّم طلبه الذي لن يعني له سوى تفرّغ للمشروع الخاص الذي أصبح قائماً على رجليهِ..!

أمّا الشباب الهادر عمرهُ في جلساتٍ مكرورةٍ في المقاهي، أو البيوتِ، أو جوانب الشوارع، فهم لا يفعلون أكثر من هدرِ حماسِ الروح المتحفِّزةِ للعملِ،

وتقييد قدرات الجسدِ الفوّار بالنشاطِ، وبشكلٍ عامٍ تكبيل مرحلةِ الشباب بأغلال ثقيلة الوطءِ.. وساعة بعد أخرى تنقص من أعمارهم.. ويوم وشهر وسنة.. ثم ما هو الناتجُ من تلك الجلساتِ..؟! مشاريعَ، أفكارَ بنّاءةً؟!

إن مجتمعاتنا الناشئةِ لا تحتاجُ إلى جلساتٍ طويلةٍ غير مثمرةٍ، ولا إلى سمراتِ وسهرات غير منتجةٍ. إنّما تحتاجُ إلى مشاريعَ تخدمها، وأيادٍ تدفعُ عجلاتها.. وأفكارٍ تؤسِّس دروب رفعتها ورقيها..فالمسألة ليست حكراً على ما تمليهِ الإرادة الشخصية، وإنّما على ما تمليه مصلحة الأمة والمجتمع..!

نعم ليس أشدَّ على المرءِ الناضجِ الفكرِ، الذي يدركُ قِصرَ عمره الذاهبِ ثلثه في السُباتِ أن ينهضَ في صباحهِ دون أن يدري ماذا يفعل..! وكم هي من صباحاتٍ مهدورةٍ تضيع دون عمل.. كم هي أشهر وسنوات تغور فارغة من أيِّ شيءٍ فلا تستحق الذكر، ولا تحتفظ بها ذاكرة الإنسانِ، اللحظة التي يكنزها العمل هي وحدها التي تتبوءُ مكاناً في الذاكرة..

قيمة العلم

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣١].

العلمُ وإن كانَ خبراً، كما يردُ في المعاجمِ على صيغة: علم فلان شيئاً؛ أي خبرَ به، إلَّا أنّه الخبرُ المُعينُ على العمل، فلا قيمةَ لعلمٍ لا يقودُ إلى عمل، فليس اكتسابُ العلمِ غاية في حدِّ ذاته في منطق الإسلام، وإنّما الإثراءُ المتواصلُ، والزِّيادة المتراكمة ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤].

والفكرةُ بدأت هكذا في صدرِ الإسلام، اتّجاهٌ بالعلم/ الخبر إلى منحاه الحضاري الصَّحيح بعد أن كانت تصبُّ العلوم ومحصلاتها في مصبِّ النهر الإسلامي الذي كان يشقُّ الصحارى والقفار منشئاً فيها أدوات الحياةِ الفاعلةِ التي تمكّن الناس من التماسِ المعاشِ الراقي، واضعاً لذلك الحوافز المشجِّعة:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١١]، فكانَ (علمُ الإنسان بالأشياءِ) موصّلاً إلى إعمار الأرض، علم جوهري يصلُ في حقيقتهِ بالإنسانِ إلى الخشيةِ من الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٨]. إنما منطق الخشيةِ بالعلم لا يتحقق في حالِ انحراف النيَّة، وعدم القدرة الفعلية على التمييزِ بين قطبي العلم والجهل في سؤال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٩].

تأسَّس الإسلامُ على العلم واستهل الوحيُ السّماوي رسالته الإلهيّةِ به بكلمةِ "اقرأ" تُملى على رسولٍ أمِّي لا يقرأ، لكنّه بعد حينٍ يكون أفصح العرب، وتنزّل عليه معجزةُ النُّبوةِ الكريمة أقدسُ كتابٍ للعربية "القرآن الكريم".. ويقيم النبي ﷺ دعائم الدولةِ الإسلاميةِ على العلم، فكانت القاعدة الأساسية:

"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" حديث شريف، رواه البخاري ومسلم.

وهذه القاعدة لصدِّ كلِّ محدثٍ أو بدعة أو ضلالة تُنسبُ للدين بأي حالٍ من الأحوال..

هذه مسلمات معلومة لا تحتاجُ إلى عميقِ بحثٍ، أو صحّة برهان.. فمنذ نعومة أظفارنا ونحنُ نردّد الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة"..

وعلماءُ المسلمين الأوائل أدركوا جوهر العلم ومقاصده فلم يأنفوا من الاستفادةِ من علوم الحضارات الأخرى كاليونانية والهندية والفارسية، واستفادوا من مؤلفات كل من أبولونيوس وأرخميدس وإقليدس وأرسطوطاليس وأفلاطون وديموقريطس، وأسسوا علوماً متقدّمةً، وأنشؤوا أخرى حتى كوّنوا أنهراً علمية تؤسس للدولة الإسلامية، وتجعلُ منها دولةً ذات دعائم علمية رصينة، فكانت تلك الأنهر على صيغٍ ثلاث:

أولاً: مجموعة العلوم الطبيعية مثل الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم الحياة وعلم النبات وعلوم الأرض والعلوم الطبية.

ثانياً: مجموعة العلوم الرياضية مثل الهندسة والجبر والحساب وعلم المثلثات.

ثالثاً: مجموعة العلوم الإنسانية مثل التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع.

وعلى كل حال، فإن ذلك ماضٍ لا نملك منه سوى الافتخار والانبهار به، إلى جانب ضرب المثل عليه في معرض الحديث عن صحوةِ العقل الإسلامي في بواكير شروق شمس الدعوة التي أنارت العالم بأنوار الهداية.. لكننا اليوم بصدد وضع معاكس، وضع يفرضُ علينا النظر في العلم حينما أصبحنا أمماً تستهلكُ

ما ينتجه الآخرون، دون أن تقوم لها قائمة إلا في النزر اليسير..!! وضع العلم بصفتهِ جوهراً وليس مظهراً، بصفته منشئاً حقيقياً للدول، وبانياً للفكر، وداعماً للنهضة، ومؤسساً للتنمية.

المعضلُ الحقيقي في منهجية العلمِ وليس في طلبه، في مضامينه وليس في مظاهره، هذه هي مشكلتنا التي تعانيها عقولنا، وتحتارُ فيها ضمائر الباحثين عن سلامة العقل العربي..

العلمُ عندنا مبني على التلقين، تلقين على منهجِ المستشار دانلوب في عهد كرومر إبّان الاحتلال الإنجليزي على مصر..!! مبني على التحفيظِ للمعلومةِ على منهجيَّة (الحفظِ عن ظهر قلب)، وذلك عن طريق النصوص المكثَّفة، والأسئلةِ التي تشترطُ الإجابات الحرفية التي لا تحيدُ عن نصِّ الإجابة قيد أنملة..!! مما لا يوجد كياناً مستقلاً، باعثاً على التفكيرِ الحرِّ لطالبِ العلم، ولا مندوحةً يستطيع من خلالها أن يتوسع في الفهمِ، والتماس التفسير الذي ينم عن إحاطةٍ بموضوعِ الفكرةِ.

هذا المنهج التلقيني قاد إلى تهميش القيمة العقلية الفاضلة: قيمة التفكير..! التفكير الذي يحارب التقليد الماضي على منهج ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٣]، التفكير الذي يؤسِّس للقناعة ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٤]، وحالما يستوي حال التفكير بنضجِ الحجة، وعقلنة الأمر فإن المحاسبة الربانية تجب عندها على المرء، فلا تلقى على غاوٍ أو ضال..!!

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٢].

لقد وردت الآية الآنفة في سورة سيدنا إبراهيم، وللمقاربة فإنه من حدّث

القرآن الكريم عن تفكيره في الكونِ وبحثهِ عن إله من خلال التقليب العقلاني، وعبر مجادلة ذاتيةٍ واعية ثم مكابدةٍ نفسيّةٍ وجسدية شاقّة..!!

في الغربِ نمتَ وترعرعت قيمة التفكير حتى صاح بها ديكارت " أنا أفكر إذن أنا موجود.." حتى أصبحت قيمة فاعلة من قيم العلم، في حين هي عندنا قيمة معطّلة، وهي فريضةٌ إسلاميةٌ في ثقافتنا..!! وهناك - أي الغرب - يفكرُ المرءُ بصوتٍ مسموع، أي له الحريةَ في التفكير، وهذا، وإن جانب الصواب في بعض مناحيه، إلا أنه في صميم الفكرةِ محفز للاستدلال، والاختلاف، والجدلِ.. وفي النهاية فإن ما ينفع النّاس من حصيلة العلوم فهو باقٍ بل ومستمر في التطور إذ يستلمه المختبرُ العلمي أو الدورُ العلميَّة المؤسسةِ على البحث العلمي.

وحينما يدرسُ الطالبُ في الغربِ وعلى سبيل المثالِ يدرس اللغة الإنجليزية في المملكةِ المتحدة فإنه يتفاجأ بما لم يعهده في عمرهِ السابق الذي ترعرع عليه، إذ يُطلبُ منه - في بريطانية - أن يعتمد على دراسته الذاتية، ويبحث عن المصادر والمراجع في المكتبات المخصّصة أو عبر وسائل الإعلام، الأمر الذي يشكل له صدمة لا يقوى على تحمّلها إلا إذا تقبل الأمر الواقع بروحٍ رحبةٍ تقديراً للظرف الذي جاء من أجله..!! لقد حسب هذا الطالب - كما عهدَ - أن يسقى شهدَ العلمِ في فمه كما عُود على ذلك في مجتمعه..!

المسألة العلميَّة السائدةِ عندنا هي الحصولُ على (المؤهل العلمي) في ختامِ الأمرِ بقصد الحصول على الوظيفةِ أو الترقي الوظيفي أو الوجاهةِ الاجتماعية. هذه الثقافة محصلة من محصِّلات (الحفظِ من أجل الامتحان)، والدليلُ أن الجهد الأكاديمي يتوقَّف بعد الحصول على المؤهل، وبتوقفه يجمدُ السّعي الحثيث نحو الحقائق، والبحث المكثف والنشيط نحو المعلومة، فقد كانت (الشهادةُ) هي الغاية وليس العلم..! وهذا الأمر يُنتجُ فراغاً في المستقبلِ بين الإنتاجِ الفكري والمؤهلات العليا..!! فراغاً خاوياً، مستكيناً للدِّعةِ والتكاسل..

قيمةٌ معطّلةٌ هي قيمةُ العلمِ عندنا، العلم الجوهري المحفزُ نحو العمل لا الشهادةِ التي يتحولُ الحصولَ عليها إلى مهرجانٍ يرصعُ بالتهاني في الجرائد، ثم ينفض المهرجان الذي كان غايته أن فلاناً من النّاس قد حصل على لقبٍ علميٍّ وعلى الجميع أن يعلموا ذلك منذ اليوم.. وما إن تجري الأمور في النصاب الذي وضع لها حتى يركن صاحب اللقب العتيدِ إلى نسيان الكسب العلمي؛ لأنه عمل بخاتمة المقولة (لا يزال المرءُ عالماً ما طلب العلم، فإن ظن أنه قد علم فقد جهل).

قيمة العمل

"إذا قامتِ القيامةُ، وفي يَدِ أحدِكم فسيلة فليغرسها".

حديث شريف

للعملِ قيمةٌ رفيعةٌ في الإسلام، كيف لا؟! والله خلق الإنسانَ كي يعمرَ الأرض..!! (آية العمران).. وحفَّز الخالقُ الكريم عباده للعمل بقوله: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٥].

ولا يقتصر أمر الخالق عزَّ وجل على العمل فحسب وإنَّما على طريقةِ أدائه، يقول ﷺ: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه".

وجرى على لسان رسوله الكريم محمد ﷺ قوله وهو يتفحَّصُ يداً كثرت فيها الأخاديد من جرّاء الكدِّ الشريف: هذه يد يحبها الله وتحبُّه..!! فهي علاقة من المحبةِ متبادلة بين الخالقِ وعضو عامل، مجد..!

ويُمتدح المرء أمامه (ﷺ) لطول عبادته، وصيامه وصبره.. فيسألهم عليه الصلاة والسلام: ومن يؤمنه؟ فيقولون: كلنا يا رسول الله، فيقول لهم: كلكم أعبد منه...!!

ويضربُ عليه الصلاة والسلام المثلَ حتى في الأعمال البسيطةِ التي يمكنُ أن يؤدِّيها غيره، فحينما خرج مع جماعة تقاسموا العمل، فقال هذا: عليَّ ذبحُ الشاة، وقال آخر: وعليَّ سلخها، وقال ثالث: عليَّ طبخها.. فقال ﷺ: وعليَّ جمعُ الحطب..! فقالوا: نحن نكفيك. فقال: "قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه"، وقام وجمع الحطب. فالقضيةُ لم تكنُ في صعوبةُ العملِ أو سهولته، إنما في شعورِ المرءِ بأنّه يأكلُ مما ساهمت يداه في عمله وأنه لا يتميَّزُ على الآخرين..!!

وهاهو أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب يقول: أرى الرجلَ فيعجبني، فأسأل ما عمله، فيقال لي: لا مهنةَ له، فيسقط من عيني..!!

هذه صورة مشرِّفة للعملِ في الإسلام، قولاً وفعلاً، سيرةً ومنهاجاً.. لكن خلف من بعدهم خلفٌ نظروا للعمل نظرةً قلّلت من شأنه، وضعّفت من قيمته، وما ذلك إلّا بسبب التواكلِ والاعتمادِ على الآخرين، والقناعة بعملٍ روتينيٍّ، مكرور..!!

إن قيمة العمل لدى أغلب أجيالنا الشّابة ليست تلك القيمة التي وضعها الدين الإسلامي لهم، وهذه النتيجة إنّما هي حصيلة مراقبة شخصية لتصرفات الكثير من الشباب، وسلوكه نحو العمل.. فماذا تقول وأنت تسمع مدرساً شاباً تسأله عن التدريس فيقول لك: " مشِّي حالك" وهي مقولةٌ دارجةٌ في المجتمع تعني أن الأمر لا يستحق العناء..!! فإذا كان لسانُ هذا المدرس الناطقُ عن دخيلته ينطقُ عن مهنته بهذه المقولة، فلك أن ترثي أجيالاً تنشأ على يديه..!!

وإذا كان شاباً يقول لي: إنَّه يعرفُ كيف يتصرف مع شركته التي يرى أن راتبه الشهري غير مقنع فيها، فيماطلُ هو زبائنها، ويختار أوقات التسليم التي تروقه لا التي تناسب الزبائن، فإنك لا شكّ سترثي الأمانةَ والمروءة في العامل..!!

وإذا كنت تسمع - كما سمعتُ - من شابٍّ سألته ماذا يوزع من منتجاتٍ في شركته، فيقول لي: إنّه لا يهمّه، وإنّما يهمّه الراتب، فأسأله: ألا يهمّك لو أفلست شركتك، فلا يجدُ جواباً يرد به.. فإنّك ستشفقُ على مثل هذا الشاب المحدود النّظر إلى العمل، تلك النظرة التي لا تراوح النقود المالية التي يجدها رقماً يضافُ في حسابه الشهري..!!

وهذه الأوقات المهدورة من عمر الشباب في غير عمل.. أوقات تضيعُ في المكاتبِ، وأخرى في المقاهي، وثالثة في الملاهي.. أليست هذه الأوقاتُ انتقاصاً من قيمةِ العمل..؟! أليس العملُ مشروعاً لا ينتهي.. وإنّما تتخلله فسحٌ

بسيطة هي إراحة للبدن، وسانحة للتأمل والتخطيط في الخطوات القادمة "روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلَّت عميت" حديث شريف..

إن قيمة العمل الجوهرية معطّلةٌ في مجتمعاتنا، القيمة الجوهرية تكمن في إدراك المعاني الحقيقية، الفاعلة التي تأسّس عليها العمل من المنظور الإسلامي ورسم لها الدّين الإسلامي، مشروعاً عظيماً يسعى إلى رقي الأمةِ ورفعةِ شأنها بين الأمم الأخرى..

كثيرٌ من الشباب يأنفُ من الأعمالِ البسيطةِ، المتواضعة ويفضّل انتظار السماءِ كي تمطر ذهباً أو فضةً عليه، وهو مستأنس بحالهِ العاطلِ.. إذ هو يخجلُ من مزاولةِ مهنةٍ بسيطةٍ يحسبها انتقاصاً من شخصه وقيمته، فكيف بنَبيِّ الأمّة العظيم، وهو من أسرةٍ قرشية ذات شأن رفيع أن يرعى الغنم ويقطع الفيافي القاحلة بتجارة عمه أو زوجه خديجة (رضي الله عنها)..؟!!

قد يُدفعُ بكثيرٍ من الشبابِ إلى مهنٍ كان يمتهنها العاملُ الوافدُ، إنّما هل تهيَّأ أو هُيئ هذا الشّاب إلى فهمِ قيمةِ العملِ الذي هو مقدمٌ عليه.. أجدُ أن المسألةَ عند كثيرين لا تتعدى النّظر إلى العملِ بوصفه غاية للحصول على عائدٍ ماديٍّ، وهذه الغاية، وإن كانت مأمولة عند الجميع، إلّا أن طريقة التعاطي مع القيم العمليّة هي التي تؤدي إلى التمايز بين الأفرادِ.. وثمة قصَّةٌ تحكي هذه القيمة العمليّة وهي:

مرَّ رجلٌ على عاملِ بناء، وهو يعمل، فسأله ماذا تعمل؟ فقال له العامل: ألا ترى أنني أعمل على كسر الحجارة..! ثم سأل عاملاً آخر يعمل العمل نفسه: ماذا تعمل؟ فقال له العامل الثاني: إنني أبني عمارة شامخة..!!

من هنا يكمن التفاوتُ في إدراك قيمة العمل، ومدى الارتباطِ به، والولاءِ له، والتمازجِ معه.. إن الشركةَ في نظر البعض من الشباب العامل هي شركةُ آخرين.. أولئك الأثرياءُ ـ في نظره ـ المسترخون في كراسيهم الوثيرة منتظرين العائد الماديَّ من جرّاء جهده وكدِّه..!! ولهذا فهو لا يكترث بهم.. بل يحاولُ أن لا يُكسبهم المكسبَ الذي تصوَّروه، والربح الذي أرادوه..!

ولو تصور هؤلاءِ الشباب أن صاحب هذه المؤسسة، أو أصحاب رؤوس الأموال في تلك الشركةِ إنّما ذاقوا الصّبر طعاماً، وكسروا الحجارة، وسكبوا العرق تحت صهد الحرِّ حتى يصلوا إلى ما وصلوا إليه، وهم مع ذلك لا ينامون حتى السّاعة قلقاً، وتوتراً مخافةً أن ينهد بنيانهم، وتضيع أموالهم.. لو أدرك هؤلاءِ الشباب العاملون ذلك لبذلوا جهدهم حتى يحقِّقوا أحلامهم هم أيضاً..!!

ولو تصوّر هؤلاءِ الشباب العاملون أن مكسب الشركة يعني توسّع أنشطتها، وزيادة رأس مالها، ومن ثم زيادة فرص التّقدم والتطور فيها إلى جانب ارتفاع عائدهم المادي، وأن خسارتها يعني تقلص أنشطتها، وانكماش فروعها، ومن ثم إمكانية خسرانهم لوظائفهم.. لو أدركوا هاتين الصورتين المتناقضتين لأخلصوا كلَّ الإخلاص، وبذلوا التفاني لمهنهم..!!

ولو أدرك هؤلاء الشباب أن الله لم يخلقِ الإنسانَ دون رزق أو معاش، إنّما قدّر له معاشه ورزقه وأمره بالسّعي للحصول عليه، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ١٥]، ويقول عزّ جلاله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠].

لو أدركوا - إدراك المتوكِّل الصّادق النيَّة ـ أن الأرضَ ملأى بالمعايش والأرزاق لسعوا في طلبها، ولوجدوها طيِّعةً، مسخَّرةً لهم بقدرِ نواياهم، وطاقاتهم وأرزاقهم المقدّرة..

ولو فكروا كيف استطاع الإنسان القديم أن يستخرج الحديد ويطوِّعه لمآربه، ويصنع اللباس.. فهل كان يملك الآلات الحديثة التي تنقِّي الحديد من الحجرِ والتربة، أو آلات النسيج التي تنسج القطن وتحوّله إلى لباس يحمي الإنسان من تقلبات الجو..؟! إنّما هي معطياتٌ إلهيّة للإنسانِ السّاعي.. يقول تعالى:

- ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٥].

- ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٠].

- ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٩٦].

لو فكّروا في هذه القيم الإسلاميّة لما عطّلوا قيمةَ العملِ في عقولهم، ولأطلقوا طاقاتهم الدفينة، ولحوّلوا سواعدهم مجاديف في وجه الرّياحِ العاتية، والأمواج الهادرة.. ولحقّقوا أحلامهم ومطامحهم بنفسٍ وقّادةٍ، وقلبٍ ثابت.

قيمة الحوار

الحوارُ منهجٌ حضاريٌّ، ومؤشِّرٌ على الوعي بالذّات والآخر، وهو تخلُّصٌ من أنانيةِ النَّفسِ الضيِّقةِ النَّظرةِ، المحدودةِ الرُّؤيةِ واعتناقٌ لفضاءٍ واسعٍ غير مؤطَّر.. هو إحدى القيمِ الأساسيِّة التي تضمّنتها الثقافة الإسلامية، وشكّلت على إثرها الهويَّة العربية المسلمة، حيث كانت الدّعوة مبنيّةً في منطلقها على الحوار، يقول تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥].

ثم يعمدُ إلى رسمِ الوجهةِ الصحيحة التي يجب أن تتبع مع أهل الكتابِ المعرضين عن الاستجابة، ضمن أسلوبٍ إنساني بديع، يرقى بالكرامةِ والفكر الإنسانيين، يقول تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤].

ونشهد في القصص القرآني قيمة الحوارِ تتجلى بين أصحاب الجنتين، في لغةٍ سلسةٍ مدعّمةٍ بالدليلِ والبرهان ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٧]...إلى آخر الآيات..

كيف يمكنُ للبشرِ أن ينشئوا علاقةً سليمةً مبنيَّةً على الودِّ، والمصالحِ المشتركةِ إذا انتهجوا "حوار الطرشان"..؟!! كيف يمكنُ لإنسانٍ أن يتعلَّم، ويتبيَّن مدى إدراكهِ مما يعتقده جازماً (حقائقَ) أو (مسلّمات) إلّا إذا رضي بالحوارِ طريقة، وبالجدال الحسن منهجاً..؟!

الحوارُ إذن هو الوسيلة الناجعة لتصحيحِ الأخطاء والمثالب، ومراجعة النَّفس مراجعةَ الكيِّس الأريبِ، فلا يصلُ المرءُ درجةَ النّضجِ إلّا إذا ارتضى بالحوارِ، واتسع صدره له، وقبله عن طيبِ خاطر، وسلامةِ صدر.

ولا يستقيم أمرُ إنسانٍ إن هو (حَشَرَ) نفسهُ في كبسولةٍ ضيقة، خانقة الأنفاس،

لا تتردَّدُ فيها إلّا أنفاسه..!! متقوقعاً فيها حول أفكاره، مُعيداً فيها آراءه، ولم يأذن لنفسهِ أن تستقبلَ حواراً جاداً، ولا مناقشةً مخلصة، عبر حوارٍ منهجي رفيع اللغةِ، هادف الغايةِ، نبيل المقصد، ثرياً في فكرهِ، عميقاً في طرحه.

إنّما يطغى النزوعُ في ثقافتنا إلى الإقصاء، والتهميشِ والإلغاءِ أكثر من الحوار الفاعلِ، البنّاء.. حتى أصبح التوقُ إلى الحوارِ، توقاً إلى فضيلةٍ ساميةٍ نادرة..!! هذه الفضيلة تميِّزُ الغربَ عن الشّرق.. وخذ مثلاً..

لقد شهدتُ بعضاً من طرق التدريسِ في الشّرقِ والغرب فرأيتُ الفرق الكبير بينهما..! في الشّرق يأتي المعلم ويلقِّن ما شاء من معلومةٍ أو يفرضُ ما شاءَ من نصٍّ، وهو ضيِّقُ الصّدرِ للحوارِ مع طلابه، إذ يعد الحوارَ مع (الصِّغارِ) أيّاً كان سنّهم نقيصةً في حقِّه، ومضيعةً للوقت، فالوقتُ لديهِ سيف بتار..!! أمّا في الغربِ فيأتي المعلمُ ويقولُ أوّل ما يقول: جئتُ لكي (أقاسمكم خبرتي my experience To share with you) وهذا عين التواضع العلمي. وأذكرُ أن معلِماً إنجليزياً كان يقول وهو يطرقُ مجالاً هندسياً أرجو أن يصحِّح لي أي طالبٍ له خبرة أفضل مني وأوسع أو يوقفني عن المضيِّ قدماً في الشّرح..!! كما أذكرُ أن بروفيسورة إنجليزيّةً كانت تنصتُ لأيةِ مشاركةٍ من طالبٍ، حتى وإن كانت هذه المشاركة غير موفقة وغير مسدّدة نحو هدف الموضوع مدار النقاش، فلا تخطئه ولا تلغي رأيه، وإنما تحاوره كي تصلَ إلى حقيقةٍ أو فهمٍ ما قد يقود إلى مقصدٍ نافع في نهايته..!

لقد سمعنا في الغرب عمّا يسمّى (العصف الذهني Brain Storming)؛ وهي طريقة مؤدّاها طرح الأفكارِ غثها وسمينها كيفما تأتي وعلى أيّةِ شاكلةٍ تصدر في أثناء البحثِ عن حلٍّ لمعضلةٍ ما، والغاية الجميلة منها أنّ النفس تشعرُ بأريحية منبسطةٍ، وهي تلقي بمقترحاتها في جوٍّ مفتوحٍ لا تحدّه أطر حازمة، ولا تضيِّق عليه قوانينَ صارمة في كيفية نشوء الأفكارِ وطرق طرحها..!

إن مجتمعاتنا العربية تعاني من أزمة حوار مستفحلة، تبدأ من البيت إلى

المدرسة فالمؤسَّسة، مروراً بالمقهى والمجالسِ والمؤتمرات والندوات والمحاضرات، وغيرها، ولقد ولّدت فينا هذه الأزمة عُقداً نفسيّةً لم نحلها إلّا بواسطةِ أنفسنا حينما وعينا قيمةَ الحوارِ الحضارية، وأهدافه الاجتماعية والنفسيّة السامية على الفردِ والمجتمع..

كنت ذات مرّةٍ مدعواً للحديث عن (التأليف المسرحيِّ) في إحدى المناطق، وقد طلبتُ أن تكون جلستي آخر نشاطٍ للمشاركين في أسبوعٍ ثقافي.. فكان أوّل ما بدأته هو قيمة الحوار وأهميته للإنسانِ، حتى بدا أنني أتحدّث في موضوعٍ لا يمتُّ بصلةٍ للموضوع الرئيس، لكني عرجت بعد حينٍ إليه، لمّا تأكد لي أنّ الجميع أو الأغلب قد وعى مقصدي. وتبيّن ذلك في مشاركاتهم وتجاوزهم مرحلة التحفظ للآراءِ، حتى قال لي أحدهم: إنّه لأول مرّة يسمعُ أصواتَ مشاركين ومشاركات متحفِّظين على آرائهم، أو قل غير قادرين أو غير (محفزين) على التعبير عنها طوال ذلك الأسبوع..!!

وفي محاضرةٍ دينيَّة حضرتها في أحد المساجد قام أحد الحضورِ بعد انتهاءِ المحاضرِ توّاً وقال مغلقاً سُبل الحوار: يبدو أنّ الشيخَ ليست لديه أدنى فكرة عن الفكرِ السائدِ في هذا البلد..!! فأيُّ حوارٍ سينشأ بعد هذه العبارة الصارمة، القاطعة مع الشيخِ (الجاهل)..؟!

وحضرتُ ندوة أدبيَّةً ضمن معرض الكتابِ فعاث مقدِّمُ الندوة في جيبه واستخرج ورقةً من جيبهِ ضمّنها شتماً لاذعاً لأحد الضيوف الذين كان من المفترضِ أن يقدمه للجمهور، فقد أخذ على هذا الضّيف بالأمسِ رأيه في قضيّةٍ أدبيّة ولم يحاوره حينها، وإنّما اغتنم فرصته الثمينة كي ينقض بكلِّ شراسةٍ على ضيفه في اليومِ التالي..!

الإلغاءُ والإقصاءُ سمات لم يستثن أحد منها نفسه في مجتمعاتنا إلّا القليل فالجميع وليدُ بيئةٍ واحدةٍ أو متشابهةٍ تتفقُ فيها الطبائعُ النّفسيّة التي جُبلت على مكابرة الرأي، والانتصاف للـ (أنا)، لأن الاستسلامَ في طبيعةِ هذه النفس هو

عينُ الضعفِ والاستكانةِ، وهو ما لا يتفق مع سمات الشخصية الرجولية في مجتمعاتنا..!! يعبر عن ذلك أحد الأمثال الدارجةِ عن مشورة المرأة إذ يقول: (شاورها وخالفها)، فما قيمة الشورى إن تكن الغاية مبيَّتة على مخالفتها أيّاً كان الرّأي..؟! ويعبّرُ عنه قول الشاعر:

ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى..!

وبالعودة إلى أسس الهويّة، في زمنِ التشكيلِ الأول نجد هذه القصَّة التي حدثت مع أمير المؤمنين المشهور بصرامته سيدنا عمر بن الخطاب، إذ تقول الرواية:

خطب عمر الناس يوماً فنهى في خطابه عن التغالي في المهور فقامت امرأة فقالت: "يا عمر أنصدقك أم نصدق قول الله تعالى ـ وفي لفظ أيعطينا الله وتمنعنا يا عمر ـ يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء: ٤/٢٠] فقال عمر: "صدق الله، وكذب عمر، وأصابت المرأة وأخطأ عمر"، وفي رواية كل الناس أفقه منك يا عمر...!!

لم تكن هذه المرأة لتتكلم وتعبِّر عن رأيها المخالف لأمير المؤمنين لولا أن الثقافة الناشئة قد أعطت لها سانحةً مديدة في الحوارِ، وأماناً من ردَّة الفعلِ الشنيعةِ أو المذلّة نحو رأيها المعاكس..! وهي الثقافةُ التي كان يجب أن تسودَ مجتمعاتنا لا أن تنصرم المجتمعات من مكوّنات ثقافتها، وتعطّل أثمن ما فيها من قيم..!

إن الصِّبغة السائدةَ في كثيرٍ من النقاشات هي المهاترات والمزايدات والسجالات التي تعبّر عن ضيق أفق، ورغبةٍ جشعةٍ في استئثار الرأي، وليِّ عنقِ الآخر بغية تملكه وقيادته نحو الوجهة المرادة، وإن كان فيها ما يخالف طبيعته ورأيه وقناعته..

ذات مرّة عرضتُ صورة (بورتريه Portrait) لأحد الذين كنتُ أحاورهم، وقلتُ له: ما ترى في هذه الصورة؟ فقال لي: أرى صورة شابّة في سنِّ العشرين

من عمرها، فقلت له: هل أنت متأكّد؟! قال: مئة في المئة. وهل يحتاجُ المشهدُ البيِّن إلى برهان، وهو ساطع سطوع الشمس..!! فقلت له: ماذا لو قالت لك زوجتك: إنّ الصورة لامرأة عجوزٍ هرمة..؟! قال: أقول لها: غبيّة!! سكتّ عنه، وقبيل نهاية جلستي معه، عرضتُ الصُّورة مرّة أخرى عليه فقلت له: تأمّل فيها يا صديقي فكما أن ملامح الصورة تشي إلى شابّة يافعة فهي أيضاً تظهر صورة امرأة عجوز في ثناياها. فتأمّل هذه الخطوط المتعرِّجة وهاتين العينين الغائرتين وهذا الشعرُ الأشيب وتلك الخدود الناحلة.. ألا ترى العجوز الآن يا صديقي، فصعق الصديق وقال: إي وربي إنّها لعجوز..!! فكيف لم أرها؟! قلت له: لقد افترضنا أن زوجتك رأتها فبادرتها بتهمةِ الغباءِ.. فهل تفهم الآن يا صديقي أن الأمرَ قد يقبل قولك وقولها في آنٍ واحد، وكلاكما على حق..؟!!

هذه هي المعضلةُ في مجتمعاتنا أنّ الفردَ لا يُدرك أن للصورةِ وجهين فيستميت جدالاً مقيتاً، وسجالاً سخيفاً يضيع وقته ووقت الآخرين عليه، ثم ينتهي دون جدوى..!!

قيمة الإيثار

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٩].

يتجلّى أنصعُ مشهدٍ للإيثارِ إسلاميّاً في صورة تآخي المهاجرين والأنصار، إذ كان درساً بليغاً، حافلاً بالحكمةِ، والبُعدِ في العلاقات التي تؤسِّس لمجتمعٍ سليم.. بين مجموعةٍ لا تملكُ من الأدواتِ المعيشيّةِ شيئاً، ومجموعةٍ مستقرَّةٍ في المدينةِ تملك أدواتها المتواضعةِ للمعيشةِ، فيحدثُ الامتحانِ، حينها تسمو النفوس فلا تنظر إلى المصلحةِ الذاتية المحدودة، وإنّما إلى تعايشٍ مرتكزٍ إلى قيمٍ خلّاقةٍ تقوم على استهلالات العلاقةِ ومفرداتها الأولى.. ما حدا بالأنصار أن يعرضوا نصف أموالهم وبيوتهم على المهاجرين إلى غير ذلك من التفاصيل البسيطة..!! فالنظرةُ الجمعية كانت ترنو نحو إنشاء (الدولة الإسلامية) الكيان الذي سيتأسَّس في يثرب، وينطلقُ منه رسُل الدّعوةِ للعالم حاملين رسائلَ السلامِ والمحبّةِ والإخاءِ في مشاعلَ هداية..

من هذا الدّرسِ الحضاريِّ البليغِ ستنبجسُ أمثلةً رائعةً في الإيثار، أمثلةً فرديّةً لكنّها مخلّدة بغية أن تضرب للبشريّة دروساً في التخلِي عن ميل النفس إلى التملكِ، وتفردها دون غيرها به إلى سمّوها - وهي راضية مقتنعة - إلى مراتبَ الصفاءِ والحبِّ الصادقَيْن.. وفي هذين المثالين صورة من تلك الصور:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «إِنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ. فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا. فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوت صِبْيَانِي. فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ وَأَصْبحِي سِرَاجَكِ وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً. فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا. ثُمَّ

قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ. فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: ضَحِكَ الله اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا، فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾» (صحيح البخاري).

ومما لا تنساه الذاكرة هذا المثل الرّائع في الإيثار:

عن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي، ومعي شيء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، بعد أن انتهت معركة اليرموك طلب ابن عم له، ومعه شيء من الماء، والجريح يشعر بحاجة شديدةٍ للماء، وأنا أقول: إن كان به رمقٌ سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به قلت له: أسقيك، فأجاب: نعم، فإذا رجل يقول: أريد ماء، فأشار ابن عمه إليه، أن انتقل إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك، فسمع به آخر فقال: آه، فأشار هشام أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات، رجعت لهشام، فإذا هو قد مات، ورجعت لابن عمي فإذا هو قد مات، رحمة الله عليهم أجمعين..!!

وصورةٌ أخرى:

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ» (صحيح البخاري)

وهذه الصورة تذكرنا بما يحدث أثناء المحن والنكبات في أي وطنٍ من الأوطان العربية، حينها يتقاسم المواطنون الطعام والماء والملبس والمسكن..!! وتتجلّى حينها أمثلةً رائعةً حتى يصل الأمرُ إلى حدِّ التضحياتِ بالأرواحِ لإنقاذِ الآخرين..!!

إنّما هذه صورة استثنائيَّة تدلّ على أن الإيثارَ قيمةٌ كامنةٌ في النُّفوس فهي تنتظرُ مثل هذه المواقف كي تظهرَ وتُدلي برأسها فيه.. وقد تكون على غرار ما قاله الشاعر أحمد شوقي:

إن المصائب يجمعن المصابينا..!!

لكن في غيرِ ظرفٍ كهذا لا يظهرُ الإيثارُ في صور الحياةِ العامّة، ولعلَّ ما يبرهنُ على ذلك انعدام ثقافةِ الطابور..!! وهو وإن وجدَ في أول الغرسِ في (ميدانِ تحيّة العَلَم) في المدارسِ إلّا أنّه لم يُغرس كقيمة.. ولهذا لا تجدُ له أثراً في الحياة اليومية المعاشة..!!

صورةُ الطابور من الصور البسيطةِ إلّا إنّها مؤشِّرٌ إلى خُلُق اجتماعي.. وقس على ذلك أمثلةً في العملِ، وتأمّل أين يمكنُ أن تجد الإيثار..!! هل في الترقياتِ أو العلاواتِ التي إن سمع بها البعضُ قفزوا فتحدّثوا أنّهم أولى من الآخرين لها..!! أو الإجازات التي يرى كلّ واحدٍ (من البعض) مصلحتهُ الذاتية فيها دون مراعاةٍ لظروف الآخر، حتى إن بعضهم قد حدّدوا الصيف موعد إجازاتهم، بغضِّ النظرِ عن حاجةِ الآخرين أيضاً لقضاءِ إجازةٍ في الصّيف مع أسرهم..!!

أرى في الصورةِ العامّة أن الإيثارِ كقيمةٍ إسلاميّةٍ قد عُطِّل من لدنِ الكثيرين في المجتمع، وفي هذا تعطيلٌ لقيمةٍ نبيلةٍ تأسَّست ضمن منظومة الثقافة الإسلامية، وهويَّة المسلم..!!

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٢].. والنبي ﷺ يقول: «لا يؤمنُ أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبُّ لنفسه»..!! وأين ذلك في مجتمعاتنا..؟!!

بالطبعِ لا ينكرُ المرءُ وجود أمثلةٍ رائعةٍ في الإيثار في المجتمع.. إنّما لا توجدُ في المصالح الحياتية المعاشة، إذ تتقدم المصلحة الذاتية للفرد قبل الآخر.. وانظر في الشوارع تجدُ القلةَ من تؤثرُ الآخر في السّيرِ والدخولِ في مسارِ الطريقِ وفسحة الدربِ للآخر، وانظر للأسواقِ حيث يتراكمُ النّاس على الباعةِ في شبه فوضى كلُّ واحدٍ ينتزعُ البائعَ انتزاعاً كي يقضي له مصلحته، ويلبِّي له مطلبهُ قبل الآخر..!! وانظر إلى مصالح النّاس في الهيئات الحكومية تجدُ الإلحاح على إنهاءِ مصلحةِ هذا قبل ذاك، وتخليص إجراءات معاملتهِ قبل الآخرين مستخدماً

في ذلك شتى الوسائلَ لتحقيق ذلك.. حتى إن قفز وقد ظفرَ بنوالهِ قال: أنا ومن بعدي الطّوفان..!!

ما قيمةُ أيّ مجتمعٍ لا يكونُ الإيثارُ فيه قيمةً فاعلة، ومؤثِّرة..؟!! ما قيمةُ الأواصر الاجتماعية فيه إن لم يكن الإيثار ميزة خلاقةً من ميزاتهِ، ميزة ملاحظةً ومشهودة في المجتمع..؟!!

سلامة الصدور

من القيم الجميلةِ التي أقامَ عليها الإسلامُ بنيانه الإنساني قيمةً عاطفيَّةً راقية، قيمةً من قبيل من يصنَّف ضمن "السَّهلِ الممتنعِ" على مقاسِ الأدبِ. وهي من المكرماتِ الموهوبةِ للإنسان الذي يتحلّى بها ألا وهي "سلامة الصدور".

سلامةُ الصدورِ هبَةٌ ربّانيةٌ للإنسانِ الذي ينشدُ السعادة، ولذلك فإنها من أسس العيش في الجنَّة، يقول تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٧]، فالإسلام ارتكزَ على عاطفةٍ جيَّاشة، عمادها حب الخير للآخرين، فربط الإيمانَ بحب الخير لبعضهم البعض، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٢]، ويقول ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبُّ لنفسه" مما يعني أن الصدور لا يمكنُ لها أن تدّعي أنها تذوق حلاوة الإيمانَ إلّا بعد أن تتخلَّى عن غريزةَ الأنانية، وتتحلّى بالسمو والصفاء..!

وحينما تنحرفُ النفوس في برهةٍ غاضبةٍ تميِّلها العواطفُ غير السليمةِ إلى مذاهبَ نقيضة لمسارها فتلك رعونة جاهلية، ويتجلى ذلك حين قال أبو ذر وهو يردُّ على بلال بن رباح رضي الله عنهما: يا ابن السوداء.. فعلمَ النبي عليه الصلاة والسلام فقال: إنّك امرؤ فيك جاهليَّة..!!

وفي تاريخنا الإسلامي أمثلة عظيمة تحث العبرة منها على سلامةِ الصدورِ، وخلوِّها من أمراض الحقد والشحناءِ والحسد.. يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٠].

ونستذكرُ في هذا المقامِ قصّة الصحابي (سليم الصدرِ) الذي كلّما ذكر هذا الموضوع ذكر معه، وتلك محبّة من الله له، تقول القصّة:

إن النبي عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: "يدخل عليكم الآن رجل من أهل الجنة. فدخل رجل من الأنصار تنطف لحيته من الوضوء"، تكرر ذلك ثلاث مرات في ثلاثة أيام، فأحب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن يعرف خبيئة هذا الرجل، فبات عنده ثلاثاً فلم يره كثير صلاة ولا صيام، فسأله فَقَالَ: (مَا هُوَ إِلَا مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنِّي لا أَجِدُ فِي نَفْسِي لأحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشّاً وَلا أَحْسُدُ أَحَداً عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ الله إِيَّاهُ) فَقَالَ عَبْدُ الله: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لا نُطِيقُ.

لكن ما يحدثُ في مجتمعاتنا لدى الكثير من الناس ما يناقضُ هذه القيمةَ الجميلة، إن يتشبثون بالقشور ويجرون وراءها، ويتركون الأصول ويهملونها. القشورُ هنا انتحالُ العلّات، وأسباب الجفاءِ والقطيعةِ، والأصول التماس الأعذارِ والعفو والمسامحةِ والارتقاءِ فوقَ المماحكاتِ والخصومات، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: " لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاهُ فوق ثلاث ليال، فيعرضُ هذا ويعرضُ هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام..!! ".

وإنني قد شهدتُ رجلاً يحرصُ على الصلاةِ في الجماعةِ، ويظهرُ في مظهر المسلمِ الملتزم في قصر ثوبهِ وإطالةِ لحيته، لكنَّ الضغينةَ والحقد يملآن قلبه فهو مخاصم لجاره أكثر من ثلاثِ سنواتٍ، فكم صدَّ رسُل جاره الساعين إلى الصُّلحِ، وكم أشاحَ بوجههِ عن جاره، وكم أخفى يده وراء ظهره في صفِّ الصلاةِ حين يمدُّ إليه جاره مصافحاً بعد انتهاءِ الفريضةِ..!! فأيَّةُ صلاةٍ لهذا، وقلبه مكابرٌ حاقدٌ، وصدره ضيِّق خصيم..؟!!

وشهدتُ ذات مرّة رجلاً على ذات الشاكلةِ من المظهرِ الذي يشي بالالتزام - وإن كان على صعيد الهيئةِ الخارجية - وهو يُعرض عن مصافحةِ امرأةٍ مدّت يدها في مجلسٍ من المجالس، ثم سمعتُ أنّه جاءَ قاطعاً مسافةً بعيدة كي يوغرَ صدورَ النّاس على أحد المحاضرين، وقد كان هذا المحاضر عميد كلّيته التي هو أحد أساتذتها..!! فأيُّ مثلٍ يضربُ هذا الأستاذ لطلابه؟! ثم عرفتُ عنه من القصص ما يجعل أمر إعراضه عن المصافحةِ - مع سلامةِ النيّةِ، وعدم القصد في كسرِ الخاطر ـ أمراً لا يساوي شيئاً مقابلَ سلوكهِ المشينِ في جوانب أساسيَّة

حضَّ على إتيانها الدينُ، وأهمّها السترُ ومراعاة الآخرين واجتناب الفتنةِ والغيبة والنميمة..!!

لقد كثرت الخصوماتُ بين النّاس، وكثر الغل فيما بينهم، وإنك لتجدُ نفسكَ في كثيرٍ من المواقفِ مبهوتاً حينما يستعرضُ أمامك فلانٌ من النّاس قائمةً مما (خزَّن) في قلبه ما ضمره عليك من (الأخطاءِ) و (الذنوب) التي احتفظ بها لساعةِ (المواجهةِ) الضارية..!! وقد كان معك يروح ويغدو دون أن تبينَ منه بيِّنة أو يظهر من عتب لطيف.. يقاسمك العيش حتى إن أوغر صدره عليك من أوغر أجال ذاكرته في الماضي، وقلب في سجلات علاقتك به، ونبّش وحوّر فاستخرج قائمةً طويلةً مما تفسِّره نفسه اليوم بأنّه كان شيئاً مقصوداً قصدت به الإساءة إليه، والإهانة..!!

فإذا اعتذرت عن مناسبةٍ ما، أو غبت عنها لحائلٍ معيَّن، فلن تجد إلّا القليل ممن يتفهّمون ظرفك.. ولن تُجدي حكمة المثل القائل " للغائب حجته.." وكأنَّ النّاس تنتظرُ غيابكَ، واعتذاركَ كي يحيكوا في صدورهم الوساوس، فهم يتركون لإبليس مكاناً رحباً يكيدُ فيه المكرَ كما يحب ويهوى..!!

إن القلوب إذا خلت من اللطف والمحبّةِ وتراكم فيها الغل والحقد والحسد فأيُّ مأمنٍ منها يُؤتمن..؟! وأيُّ ملاذٍ إليها يُرجى..؟!! وكيف تكون الحياةُ مع قلوبٍ غير سليمةٍ، قلوب يوغرها النكران، وتلهبها نيرانُ الضغينةِ..؟!! وإذا لم يصف الإسلامُ أدرانها القميئةِ فكيف يكون إسلامها، وكيف تكون علاقاتها التي أرادها لها الإسلام أن تكون..؟!!

هذه العلاقة تتجسّد في هذه الصورة: "المسلمون كالجسدِ الواحدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسدِ بالسَّهرِ والحمّى" فأينَ هذه الصورةُ في مجتمعاتنا المسلمة..؟!! هل توجدُ إلّا في ظروفٍ استثنائيَّةٍ نادرة..؟!!

وانظر لحال الكثير من الذين يدّعون الإسلام..! تكثرُ العداوات فيما بينهم.. وتكثر المعاتبات المملة في غير طائل، وتغلظُ المحكات لغير جدوى إلا للقطيعة..!! لقد أصبح أكثرهم متربصاً، مترصداً أن يخطئ الآخر، فإن لم

يُدع لمناسبة أهال الأمر وعظّمه، فهم ينتظرون من الإنسانِ أن يتصرّف وكأنّه حاسوب آليّ عليه أن يستعرض كل المهام التي خزّنها في ذاكرته..!! وقَلّ بينهم من يلتمسون الأعذار.. أولئك الصافية قلوبهم، السليمة صدورهم.. الذين إذا رزق الآخر رزقاً فرحوا له.. وإذا حدث منه ما سببه الغفلةُ والنسيانُ غفروا له..

يقال إن الإمام أحمد بن حنبل قد ضُرب زمن المعتصم ضرباً مبرحاً. فلما كان زمن المتوكل أحس الإمام بأذى في ظهره فإذا هي لحمة فاسدة التأم عليها الجرح، ولم يكن بد من شقِّ الظهر وإخراجها، قالوا: فلما أحس الإمام بألم المبضع وحرِّ الشقِّ قال: اللهم اغفر للمعتصم ... فيا سبحان الله يستغفر لمن كان سبباً في ألمه!!! فهل تقول هذا سوى القلوب الواسعة، السليمة..!!

انظر إلى المعارك النَّفسيّة الدائرةِ بين مديرٍ وموظَّف، بين موظَّف وآخر في شتى الدوائر العمليّة، تجدُ المسلمَ يشكي من حسدِ وحقدِ ومكيدةِ أخيه المسلم، وبهذا تعطّلت المصالح، وخربت العلاقات.. فهل يُرتجى أن تقومَ قائمة لأناسٍ لا همَّ لهم سوى الكيد والحقد وأذى الآخرين، وعرقلةِ مساراتهم، وإعاقةِ مطامحهم، وتشتيت أحلامهم..؟!

يقول الشاعر في هذا المقام:

من راقب النّاس مات غمّاً وفاز باللّذةِ الجسورُ

ويقول آخر:

لا يحمل الحقد من تسمو به الرتبُ ولا ينال العلا من طبعه الغضبُ

ويقول ثالث:

إن القلوب إذا تنافر ودُّها مثل الزُّجاجة كَسْرُها لا يُشْعبُ

وأذكر أننا كنّا نتغنى في مقرراتنا الدراسيّة في مقاعد المدرسة أبياتاً جميلة.. تقول:

من اليوم تعارفنا ونطوي ما جرى منا
فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا
وإن كان ولابد من العتبى فبالحسنى

إن المرء لا يمكنُ له أن يسعدَ، وصدره مليء بالحسدِ والضغينةِ والحقدِ على الآخرين، فسلامةُ الصدورِ قيمة سامية راقيّة عطّلها الكثيرون، فأصبحوا مذبذبين في مشاعرهم الخارجية والباطنية، يظهرون الابتسامة الشاحبة وقلوبهم تغلي بنيران الكراهيةِ والمكيدة.!!

بعض الظَّن..!!

سوءُ الظن أكذبُ الحديثِ، وأقبحُ الأخلاقِ، وآفة المجتمعات، ولهذا فقد طوّح بيوتاً، وهدّم علاقاتٍ، وقطع أواصر، وقلبَ مودّاتٍ، وحطّم أركان، وولّد بغضاء..!! نظرتُ إلى الكثيرِ من مشكلاتنا الإنسانية، ومصائبنا الذاتيَّة فوجدتُ أن سوء الظنِّ وراءها..!! فهو السوسة الخطرةُ التي تنخرُ الأُسس، وهو السمُّ الزُّعافُ الذي يُميتُ الشرايين..! ولو عمّر حسنُ الظنِّ حياتنا لكنّا أسعدَ الخلقِ، وأكثرهم طمأنينةً، وسعادة، لأننا كنّا سنتركُ توافه الصّغائر فلا نكترثُ لها، ونقتفي الأهدافَ الكبرى التي تجمعنا، وتوحّدنا، وتقودنا إلى مصيرنا المشترك.

في مجتمعاتنا طغى سوءُ الظنِّ حتى أصبحَ له ديدانهُ القاتلة التي لا تُموتُ ولا تزاح، بل تمتصُّ رحيق سعادته، وكثرت مستنقعاته التي تبيضُ فيها ديدانه وتفقس..!! فينامُ كثيرٌ من الرّجال ويصحون على سوء الظنِّ بزوجاتهم، يلاحقوهنَّ بسوء الظنِّ في غدوّهنَّ ورواحهن، ومجيئهن وذهابهن، وحديثهن ولفتاتهن، أكانوا يصرّحون عن سوءِ ظنّهم أم يخفونه بعد صراعٍ مريرٍ مع أنفسهم..! وحين تسنحُ لبعضهم الفرصة فيجدُ أمامه هاتف زوجته، يتلفتُ يمنة ويسرة، ثم يبدأ في البحثِ عن السرِّ المكنون، وعن إثباتٍ لسوء الظنِّ الذي ينغِّصُ عليه معيشتهُ، ويُسقط على رأسه سقف بيته، فيتمنى لو أنّه وجد دليلاً يُريحهُ، وبرهاناً يحسمه..! في حين يهرعُ البعضَ الآخر كلّما خرجت زوجتهُ إلى أدراجها باحثاً عن "حقيقة" لا يعلمها، وسرّ يجهله..! لكن قلبه المريض يقول له: إنه موجود في مكانٍ ما..!! يدفعُ أقدامه كي يهدم أركان بيتهِ، ويهدَّ جدرانَ أمانهِ وسعادته..! أمّا البعض الآخر فإن سألته زوجتهُ مالاً، واجهها بأسئلةٍ طويلةٍ فيما فعلت بما (أعطاها) من نفقة منذ مطلعِ الشّهر..!! ملوحاً بسوء الظنِّ.. وناشلاً بذلك فتائل حبل الثقةِ بينه وزوجته حتى ينقطع الحبلُ عن آخره فلا تستقيمُ حياة، ولا تصلحُ عشرة..! هؤلاءِ في نظري أزواجٌ مرضى، لا يرون في الحياةِ

إشراقةَ شمسها بل يلتفتون إلى الغيمةِ التي تحجبُ النورَ عنهم..!! تعدّوا فكرةَ الغيرة الجميلة التي تدلُّ على الحبِّ الصادقِ إلى غيرةٍ بغيضةٍ، مكروهة حتى إلى الله سبحانه وتعالى، يقول النبي ﷺ: "إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة". وبعضُ هؤلاءِ يتتبع خطا زوجتهِ أو يترصدُ لها أو يراقبها أو يعودُ على حينِ غرّةٍ للبيتِ..! فإذا كان النبي ﷺ ينهى عن إتيان الأهل في مبيتهم فكيفَ يفعلُ مسلمٌ ذلك؟!. إن لسانَ حال من تكتشفُ سوء ظنِّ زوجها بها لينطقُ بأبيات ابن المعتزِّ القائل:

أسأتَ بي الظنَّ، يا سيدي وما سُوءُ ظَنٍ بمِثلي جَميلُ
إذا أنا خنتُ، فمن ذا يفي أتَدري، فَدَيتُكَ، ماذا تَقولُ

ومن الزوجاتِ من يحشو سوء الظنِّ قلوبهن فلا ترى في زوجها إلا خائناً يخفي سرّه، ومتلاعباً يدسُّ حقيقته، ولكنّها حتماً ستجدُ الدليلَ على ذلك عاجلاً أم آجلا..!! وهنَّ، وإن لم يصرّحن كما يفعلُ مسيئو الظنَّ من الرّجال، إلّا أن تعابيرَ وجوههن، وسلوكهن، يشيرُ إلى اتباعهن سوء الظنِّ لمجرّد محادثةٍ هاتفيّة، أو تأخُّر في العمل أو خارج البيت..!! وهؤلاء الزوجات مريضات، وكثير منهنَّ يقترنَّ برجالٍ لا يلقون بالاً لبناءِ الثقةِ، ولتأكيدِ الحفاظ على ثوابت العلاقة الزوجية، إلّا أن بعضهن تسيء الظنَّ بأزواجٍ أفاضل، شرفاء..!!

وسوءُ الظنِّ يعشّش في الكثيرِ من مؤسّساتنا، فتجدُ بعضَ المسؤولين يستأنسون لسوء الظنِّ متخذينه أكبرَ أدواتهم التي تدلّل على نفوذهم وسلطتهم، فكم منهم من يسيءُ الظنَّ بموظفيهِ فيضعهم تحت طائلةِ الاتهام عبر أسئلتهِ المريضة: أينَ كنت، ولماذا تأخّرت، وكيف، وهل..؟! فلا يستطيعُ موظّفٌ أو موظّفة أن يقول الحقيقةَ، فهما يدركان أن مسؤولهما يسيءُ الظنَّ بهما على أيَّةِ حال، ولهذا يختارُ بعضهم أن يكذبَ حتى يكون عذره أكبرَ من الحقيقي مدفوعاً بسوء الظنِّ (وهذه بالطّبع ليست طريقةً سليمة، ولكنّها نتيجةً من نواتجِ سوءِ الظّن) ولهذا ساءت العلاقات الوظيفية في كثيرٍ من المؤسّسات بسببِ سوء الظنِّ.. وأعرفُ مديراً يتتبّعُ خطواتَ موظّفيه، حتى يستمتع فيما بعد بكشفِ

أكاذيبهم أو أعذارهم المختلقة..! ولو أحسنَ الظنَّ بهم لما اضطروا إلى المناورةِ والكذبِ..!! وأعجبني ما قالهُ مسؤول لموظفيه وهو أمر غير معتاد، قال لهم: لا أريدُ منكم أعذاراً حينما تضطرّون للخروجِ من العملِ لقضاءِ مهمّةٍ ما، فثقوا أنني سأوافق لخروجِ أيّ واحدٍ أو واحدةٍ منكم دون سؤالهِ عن عذره..!! هذا في نظري نموذج المسؤول الذي يبني علاقاته بموظفيه على أساس حسن الظن، فهو يثقُ في أنّه يتعامل مع أناسٍ ناضجين يقدّرون قيمةَ العمل، والمهام التي كلفوا بإنجازها..! هذا نقيضُ ذلك النموذج المريض الذي ينظُر في ساعته كلما عادَ موظّف، أو غادرت موظّفة..! ويجنّد أتباعه اقتفاء أثر موظفيه وتدوين عيوبهم..!! وهؤلاءِ كثرٌ، يقدّمون سوء الظنِّ في موظفيهم قبل حسن الظنِّ..!

وفي الحياةِ الاجتماعية كم هم هؤلاءِ المسيئون للظنِّ بالنّاس، واتهّامهم بما ليس فيهم، فكم من امرأةٍ غافلةٍ طالها سوءُ الظنِّ، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣/٢٤]، وكم من عفيفٍ شريفٍ لحقه سوءُ الظن..! فاتهم في عرضهِ وشرفه من أناسٍ خبثاء النفوس، ليس لهم سوى البحثِ عن معايب الآخرين، وحينما يكتشفون أمراً لا يسترون، بل ويجدونها فرصةً للتشفي، وإن هم فشلوا في مسعاهم الخبيث صاغوا الأقاويل، وحاكوا الأكاذيب..! لقد استمعتُ لأحدهم وهو يقول في اتصالٍ لبرنامجٍ تلفزيوني كان يهدف لجمع تبرعات للفلسطينيين: كيف سمحتم للمطرب الفلاني أن يكون بينكم وأنتم تظهرون للناس وتحثونهم على التصدق، فردّ عليه أحد العلماء: وماذا تعرفُ أنت عنه؟! إن هذا الذي تسيءُ الظن به ليصوم شهراً ويفطرُ شهراً..!! قال ﷺ: "سوء الخلق ذنب لا يغفر وسوء الظن خطيئة تفوح" وقال عليه الصلاة والسلام: "إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم.."!! لقد كتبَ أحدَ الوجهاءِ هؤلاءِ ينبّهُ إحدى الصّحف بعد أن قرأ خبراً لم يعجبه، فاستهلَّ مقالته في كاتبِ الخبر بالآيةِ الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦/٤٩]، ولكن هذا

الرّجل وقد شهدت العديد من مواقفه هو أكثرُ النّاس إساءةً بالظنِّ..وكم أساء ظنّاً بالناسِ على مشهدي..!! فكيفَ بناصحٍ ينصحُ هو أحرى بها، كقول الشاعر:

ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها فإذا انتهت عنه فأنتَ حكيمُ
لا تنه عن خُلقٍ وتأتي مثلهُ عار عليك إذا فعلتَ عظيمُ

وهو لم يتّبع حتى أمرَ ربّه القائل قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٢]!! وكم أساءَ من يُرى عليه أثر التمسكِ بالدّين الظنَّ بالآخرين، فكيف به وهو المستقيمُ - على الأقلِّ ظاهريّاً - أن يدعَ شرطاً من شروط الاستقامة وهو حسنُ الظن؟ وهو أحرى قبل غيره لتطبيق الحديث الشريف الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: "إياكم والظنّ؛ فإن الظن أكذبُ الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا". متفقٌ عليه. وأين مسيء الظنِّ مما قاله الإمام محمد عبده: "إنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر". هذا القولُ الكريم هو ما يجبُ أن يسطّره الإنسانُ كقاعدةٍ من قواعدِ تعاملاتهِ مع النّاس. قلت لأحدهم بعد أن أساء الظنَّ بامرأةٍ دون حجابٍ، وهو يعلّق على صورتها: ماذا تعرفُ عن حقيقتها؟! هل تعلمُ ما يستقرُّ في النفوسِ من صلاحٍ أو تقى.. إنّك تسيءُ الظنَّ بها دون بيّنة..!

إن الذين يسيئون الظنَّ مرضى مرضاً نفسياً معقّداً، فهو يرسفون في عُقَدِ ظنونهم، وبحثهم المريضِ عن معايبِ الآخرين، والنَّبشِ في ماضيهم، والطّعنِ في تصرّفاتهم، والشكِّ في سلوكياتهم، والتفسيرِ المشين لأقوالهم، فهم بحاجةٍ ماسّةٍ للعلاج الذي يحلّ فيهم حسنُ الظنِّ بدلاً عن سوء الظنِّ.. وذلك بعد أن يرتقوا بقاماتهم فوق التوافهِ، فلا يتحسّسون مواطن الضعفِ في البشر، ولا يتتبعون عثرات الناس، ولا يقتفون آثارهم، ولا ينتهكون حرماتهم،

ولا يترصدون طرقاتهم، ولا يفسّرون أقوالهم بحسبِ ما ترتضيهم أنفسهم المريضة..!

هؤلاءِ الذين لا يستريحون إلّا بالحديث حول عرضِ فلانٍ، وعيبِ علّان، والطّعنِ في هذا، والشكِّ في ذاك.. ويمضون ليلهم ونهارهم وهم يغتابون خلقَ الله، ويدسّون السموم في شرايين حياتهم، ويلقون الشوك في طرقاتهم، ويشعلون نيران الفتنة في بيوتهم. إن سوء الظنِّ لمرض خبيث أشدّ أثراً وقساوة من أيِّ مرضٍ عضوي آخر.. يخشاه كل الناس وأولهم نبيُّ هذه الأمّة حين قال لرجلين من الأنصار مرا عليه في طريقٍ مظلمٍ مع زوجته صفيّة، فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال: "إنها صفية بنت حيي" فقالا: يا رسول الله ما نظن بك إلا خيراً، فقال: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد، وإني خشيت أن يدخل عليكما...!! فهل بقي أحد لا يخشى سوء الظنِّ وأهلهِ المرضى..؟!!

قيمة الشكر

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٧].

الشكرُ قيمةٌ من قيمِ الإسلام الرَّفيعةِ. قيمةٌ لا يستقيمُ بفقدانها إيمان، ولا يصدقُ بدونها معتقد..! إذ بالشكرِ يكونُ الإيمانُ الصادقُ لأنّه اعترافٌ بإحسانِ المُحسنِ، وجوادِ المتفضِّلِ، وكرمِ المنعم. لهذا كان الشكرُ قيمةً من قيمِ الهويَّة الإسلامية، وخصلةً من خصلِ خصوصيتها، فإذا انتفت من شخصيةٍ مسلمةٍ فقد دلّت على نقصٍ فيها، وخلل في تشكيلتها.

جعلَ الله الشكرَ شرطاً للعبادة، حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٢].

وجعل الشكرَ نقيضاً للكفر:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٢].

ونفى العذاب عن الشاكرين المؤمنين:

﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٤٧].

ويقول النبي ﷺ:

"الإيمانُ نصفان: نصفٌ شكرٌ ونصفٌ صبر".

وفي الأثر:

"الشكرُ معرفةُ العجزِ عن الشكر..".

ولن نحتاجَ أن نعدِّدَ في معرضِ الحديثِ عن الشكرِ فقد ائتلفت الهويَّة الإسلامية من سماتٍ عظيمةٍ كالشكرِ، فأصبح المسلمُ الحقّ شاكراً.. والقرآن

الكريمُ يحفلُ بالوصايا الحاثةِ على الشكرِ، والمبيِّنةِ لقيمتهِ فالله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن العبادِ جميعاً إلّا أنَّه يحبُّ أن يكونوا عباداً شكورين، يقول سبحانه:

﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧].

والسنَّةُ النبويةُ حافلةٌ بأحاديثِ الشكر.. فلا يمكنُ أن يدّعي إنسانٌ ما أنّه مؤمنٌ وهو لا يحدِّثُ بأنعمِ الله عليهِ، ولا شكره.. إنّما حديثنا هنا/الآن عن الشكرِ الواجبِ بين النّاس بعضهم البعض، وهو شكرٌ متّصل بشكرِ الله، يقول عليه الصلاةُ والسلام: "لا يشكرِ الله من لم يشكرِ الناس".

هذا الشكرُ الذي يندرُ أن نسمعهُ في معاشنا اليوميِّ، وفي شتى المعاملاتِ والخدماتِ والعلاقات بين الناس.. الشكرُ الذي هو أصلٌ من أصولِ الثقافةِ العربيَّة، ومفردةٌ أساسيةٌ من مفرداتِ هويتها الإسلاميّة قليلاً ما تسمعه من النّاس إلّا النادرِ منهم، وقد يكون ذلك في محافل ومناسباتٍ معينة، لأنه ليس ثقافةً متأصلةً في الشخصية، ولا أسلوباً ثابتاً في سيرورةِ معاشها وتعاملاتها..!

ذات يوم سمعتُ خطيباً شاباً يلقي المصائب على الحضارة الغربية ويحرِّفها وهو ينطقها ليبرهن عن ضغينته وكرهه لها امتهاناً وإذلالاً، فبدلاً من أن يقول عنها "حضارة" كان يقول: "حضيرة"..!! وشتان بين الحضارةِ والحضيرة..!

كان هذا الخطيبُ يتحدَّثُ عبرَ مكبر للصوتِ من صنع تلك التي يصفها "الحضيرة".. ويجلسُ على سجادةٍ من صنعها، ويستنير بإضاءةٍ من صنعها، ويجلسُ في مبنىً اخترعت آلات بناء أدواته فيها، ولبس أثواباً نسجتها آلاتها، ويركبُ سيّارةً من صنع هذه "الحضيرة" ويتحدث بهاتف خلوي صنعته أياديها.. ووو.. إلخ..!! فأين هو الشكر؟!!

أين هو الشكرُ الذي يجبُ أن يعلّمهُ هذا الخطيبُ لمستمعيه.. هل يستوي أن يجحدَ المسلمُ شكر الآخرِ غير المسلم، وقد اخترع وابتكر وقضى عمره وأفناه

كي يخترع له ما يعينه في معاشه، ويسهل له تنقله، ويريحه من أعباء كثيرة بغيةَ رفاهيته.. لقد أحزنني كلام الخطيب هذا - والله - حزناً شديداً، فقد خشيتُ أن ينقلَ عن المسلمَ أنه ناكر للمعروف، جاحد للإحسانِ..! فكما يقال: "الحسنة تخص والسيئة تعم..!".

قف على طاولات المحاسبةِ في المحلات الكبيرةِ أو الصغيرةِ وأنصت، لن تسمع إلّا القليل ممن يشكر المحاسب على خدمته..!

أعطِ مجالاً لأحدهم/إحداهن كي يعبر الشارع، لن ترى سوى بعض الأكفِّ ترتفع شاكرة لك صنيعك.!

أعطِ مجالاً لأحدهم كي يُدلف الشارع بسيّارته، لن تشاهدَ سوى القليلَ القليل ممن سيلوِّحون لك بأيديهم شاكرين..!!

وانظر إلى دولةٍ غربيَّةٍ كالمملكةِ المتّحدةِ مثلاً، سترى أن الشكرَ مفردةٌ من المفردات اللازمةِ في الحياةِ اليومية، وواحدة من صورها المعاشة، إذ هي من مكوِّنات الشخصية في مواطنها..!! في دولةٍ كهذه ستعلِّق يداك وكفك مبسوطة إن أنت منحت مجالاً لجملةٍ من السيّارات القادمةِ في طريقٍ ضيِّقٍ، مواجه، حيث تواجهك الأكف شاكرة لك واحداً بعد الآخر..!!

نعم إننا لنذكرُ إيجابيات الآخر لنستفيدَ منها، ولنقول بأننا أحقُّ بها لأنها خصيصة من خصائص ديننا الحنيف، ومكرمة من مكرماته..

إنّها معضلة تلمُّ بمجتمعاتنا إن لم تكن شاكرةً حميدة..!! فإذا كان الإسلامُ يحثنا على الشكرِ وهي لا تجعله ثقافةً سائدةً، ولا عادةً راسخةً فكيف تكتملُ هويتها، وكيف تأتلقُ ثقافتها وهي تعاني من نواقص مؤثِّرة..؟!!

يقول بعضٌ من شعراء العرب في الشكر:

إن الكريم إذا أراد وصالنا ... لم يلف حبلاً واهياً رث القوى
أرعى أمانته وأحفظ غيبه ... جهدي فيأتي بعد ذلك ما أتى
أجزيه أو أثني عليه فإن من ... أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

ويقول آخر:

لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة أعلى من الشكر عند الله في الثمن
إذن منحتكها مني مهذَّبة حذواً على حذو ما أوليت من حسنِ

ويقول ثالث:

شكري كفعلك فانظر في عواقبه تعرف بفعلك ما عندي من الشكر

فكيف عطّلت قيمة الشكرِ في مجتمعاتنا وهي أصلٌ من أصول ثقافتها..؟!!

كيف ظلّ هو الحال كما عليه منذ أن قال الإمام محمد عبده حين زار أوربة: وجدت الإسلام ولم أجد المسلمين..؟!!

قيمة الاعتذار

الاعتذار قيمةٌ جليلةٌ من قيم الأدبِ والأخلاق، وأسلوب راقٍ من أساليبِ التعاملِ الحضاريِّ بين النّاس، لا يتوفَّرُ إلّا في شخصيّةٍ متزنةٍ، عاقلةٍ، ناضجة، ولا يغيبُ إلّا عن شخصيةٍ متهوِّرةٍ، متعصِّبةٍ، حمقاء..! بالاعتذار يزيدُ قدرُ المرءِ لا ينقص، كما يعتقدُ بعضُ الحمقى، ويعلو لا ينخفض، كما يحسبُ بعضُ المتزمتينَ..!

إنّما المعضلةُ التي نعانيها في مجتمعاتنا هي ندرة الاعتذار، والإجحافِ في حقِّ هذه القيمةِ الرفيعة، والاستخفاف بقدرها..!! فكم هم المخطئون المعتذرون في مجتمعاتنا..؟! كم هم المعترفون بذنوبهم وأخطائهم؟! قلّة نادرةٌ لا تذكر..! في البيوت كم يخطئُ الرّجالُ، ويقترفون من ذنوب في حق الآخرين فلا يعتذرون، فكأنهم قد حصلوا على حقِّ الخطأ المطلقِ على الغير، وبعد أن يعوا أنّهم قد أخطؤوا لا يعتذرون، لا لزوجةٍ أخطؤوا في حقها ولا لأبناء.. وبين الأسر كم من المماحكات قامت، وكم من الخصومات نشأت ثم تبيّن خطأ أحدهم في الآخر فلا مبادرةَ من المخطئ على الاعتراف بخطئهِ والاعتذار..! لقد حسب أنّه باعتذاره سيقلل من قيمتهِ، ويفقدُ هيبته، وينقصُ شأنه، فيقال عنه إنّه ذلَّ نفسه لأنّه اعتذر، والله لا يعتذرُ إلّا الكريم..! وبين الأصدقاءِ كم من أخطأ لكنّه لا يعتذر، بل يكابرُ، ضارباً بالعلاقةِ الثمينة، والعواطف الدفينة عرض الحائط لمجرَّدِ امتناعهِ عن الاعتذار الصادقِ..! فكم نحن فقراءُ في ثقافةِ الاعتذار..! كيف يريدُ الآباءُ من أبنائهم أن يتعاملوا بطريقةٍ حضاريّةٍ مع الآخرين دون أن يعلّموهم أن المرء إذا أخطأ وجب عليه أن يعتذر.. وأن المرء كبيرُ القدرِ إن اعترف بالخطأ، كيف نعلّمهم أن "الاعتراف بالحقِّ فضيلة" دون أن يكون للاعتذار واقعٌ فعليٌّ في حياتنا..؟!

في ثقافتنا يخطئ الأبُ في حق زوجته وأبنائه، ويخطئُ المديرُ في حق

موظفيه، ويخطئ الرئيس في مرؤوسيه، ويخطئ المعلّم في تلاميذهِ، وقليلٌ منهم من تدفعهُ نفسهُ للاعتذار..! وعلى عكس ذلك، ينتظرُ الكثرةُ منهم اعتذارَ من أخطؤوا في حقهم..! أو أن يصفحوا عنهم دون اعتذار، أو أن يواصلوا الحياة معهم وكأنَّ شيئاً لم يحدثُ..! وهذه ثقافةٌ عقيمة يجب أن تصحّح، وأخلاقياتٌ مريضة يجب أن تقوّم. ولو حاسبوا أنفسهم حساباً صادقاً وأنصفوها لأنصفوا الآخرين؛ لأنّهم حينها يكونون قد وضعوا الآخرين موضعهم فيشعرون بالألم الذي سبّبوه لهم، ويحسّون بالأذى الذي أصابوهم به، فيدفعهم ذلك إلى الاعتذار، والاعتذار الصادق النوايا، الممزوج بالإحساس بالذّنبِ، الذي يبينُ عليه أثرُ الندامة.

وها أنت يطلبُ إليك كثيرون خاصموك، وقاطعوك لأسبابٍ ابتدعوها، وحينما يريدون الرّجوع، يشترطون عليك أن لا تأتي على سيرةِ ما جرى في الماضي كي لا تظهر أخطاءهم فيضطرون إلى الاعتذار لك..! إذن فكيف يكون الصفاء؟ وكيف تنزاحُ من القلوبِ ما تراكم فيها من طبقاتِ الخصام القديم؟ وكيف تفتحُ صفحةٌ جديدةٌ من العلاقةِ وفي القلوبِ ما فيها من شعورٍ بالامتهانِ؟! إن التسامح قيمةٌ هو الآخر، ولكن الاعتذار هو من يجعلُ هذا التسامحَ في محلِّه، بل يجعلهُ صادقاً، لا شائبةَ فيه، ولا كدر بعده. فأنت تشعرُ بأن إنساناً أخطأ في حقّك، عاداكَ، وخاصمك، ونشرَ عنك ما نشرَ بين النّاس ثم يأتيك الآن بقلبٍ باردٍ ليقول لك: نفتحُ صفحةً جديدةً بلا ذكرٍ لما حدث ولا اعتذار فكيف تكون مشاعرك..؟! لربّما ستسامحه، ولكن لن تعود علاقتكما إلى سابق عهدها، وقد لا تقبل هذا الرجوع بلا اعتذار لأنّه أساء إليك..!

يكابرُ بعض النّاس عن الاعتذار ـ مع علمهم بأنّهم أخطؤوا..!! لأنّ عزّتهم الزائفة، وكبرياءهم الواهم تمنعانهم من الاعتذار! ذات مرّةٍ قلتُ لأحدهم لقد أخطأتَ في الموضع الفلاني وقلتَ كلاماً لا يليقُ بك قوله، وكان الخطأُ واضحاً فظلَّ يسوقُ المبررات العقيمة، التي يطابقها قول "عذرٌ أقبحُ من ذنب" والعذرُ هنا ليس الاعتذار عن أسف وندامةٍ وإنّما محاولة تبرير..! وآخر أخطأ في مقامٍ

آخر، وعرف خطأه، لكن لم يدفعهُ خطؤه إلى الاعتذار برغمِ معرفةِ الكثيرين به، وإنّما ظلّ يتصرّف وكأن شيئاً لم يحدث..! فهل حسب هذا أن للناسِ قلوباً من صخر.. بل إن من الصخر لما يتفجّرُ منه الماء..! وأخرى ترسلُ رسالةً قصيرةً تأسفُ لسوء تصرفها لأخرى ثم حين تقابلها هذه الأخيرة لا يبينُ منها أيُّ إشارةٍ إلى الاعتذار..!!! وهكذا يتصرّف الكثير من الناس، فأنت تضيّع وقتك في لومِ هذا الجنس من النّاس، تمثلاً بقول الشَّريف الرّضي:

وضاع عَتبُ مسيء ليس يعتذر..!

إنّما الاعتذار عن الخطأ فضيلةٌ.. ولولا ذلك لما اعتذر أبو ذر الغفاري رضي الله عنه حينما غضب عليه النبي ﷺ بعد مقولته لبلال يا ابن السوداء، قائلاً عليه أفضل الصلاة والسلام له: إنك امرؤ فيه جاهليّة، فبكي وقال: يا رسول الله استغفر لي، ثم طرح رأسه في طريق بلال ووضع خدّه على التراب قائلاً لبلال: والله يا بلال لا أرفع خدي عن التراب حتى تطأه برجلك..أنت الكريم وأنا المهان..!! فأخذ بلال يبكي.. واقترب وقبَّل خدَّ أبي ذر ثم قاما وتعانقا وتباكيا..هذا هو الاعتذار الصادق الذي يزيلُ كدر النفس، ويُجلي كربتها.

وهذا نموذج جميل للاعتذار، نعم يخطئ المرء، وأيُّ إنسانٍ لا يُخطئ؟! ولكن أن يشعر بالخطأ فلا يعتذر، أن يجرح الآخرين فلا يعتذر، أن يسيءَ إليهم فلا يعتذر، وفوق ذلك يريدُ أن يفتحَ صفحةً جديدةً مع هؤلاءِ دون تذكير بالماضي، دون اعتذار، دون اعترافٍ بالخطأ..! كي لا يهبطَ قدره، ويفقد كبرياءه، وينزلَ عن سلطانهِ الواهم.. فذلك هو الخطأُ الفادح، بل المرض النفسي العضال..!

في الغربِ يعتذرون لأدنى شيءٍ في العلاقات العابرة بين الناس، ونحن هنا نتحدث عن التعاملات الخارجيّة لأنّ عاداتهم جرت على ذلك.. وهذه خصلةٌ طيّبة، لكنّنا نتجاوز في حياتنا عن سفاسف الأمور، وصغائرها التي لا تذكر في معاملات الناس، ونذكرُ ما يضربُ علاقاتهم في مقتل، تلك التي لا تستمرُّ طبيعيّة إلّا بالاعتذار الصادق الذي يزيحُ الضغائنَ من النفوس، ويجلو الحزن

الداخلي. يقول ديل كانيجي: "إذا عرفنا أننا مخطئون وسلَّمنا بالهزيمة لا محالة، فلم لا نسبق الشَّخص الآخر إلى التسليم بذلك؟ أليس من الأفضل أن نكون نحن من نوجه النقد لأنفسنا بدل أن يوجهه لنا الشخص الآخر؟" مضيفاً: "كل أحمق يستطيع الدفاع عن أخطائه، أما أن تسلم بأخطائك فهذا هو سبيلك إلى الارتفاع فوق درجات الناس وإلى الإحساس بالرقي والسمو".

لقد دفعت المماطلةُ كثيراً من الأقوام إلى اتخاذ مواقف واهمة، يقول الله تعالى في هذه النوعيةُ من البشر: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٦/٢]، هؤلاءِ سيعتذرون يوم لا ينفعُ الاعتذار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [التحريم: ٧/٦٦]، وهنا نقصدُ بأن عزّة النفس الواهمة هي خصيصةٌ من خصائص النفسِ إلّا أن الإسلامَ قد وضع العزّة في الموضع الصحيح المحدّد في قول الباري عزّ وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠].

إن الاعتذار ثقافةٌ لها آدابها وسلوكياتها المحكمة، فلا يصحُّ اعتذار مجامل، مداهن، غير صادق!! إن الأب والأم والمعلّم والمعلّمة والمدير والمديرة وكلّ مسؤول ومسؤولة يجب أن يعتذروا إن أخطؤوا، بل كلّ مخطئ من كبيرٍ أو صغيرٍ يجب أن يعتذر، هذا ما تحتمه ثقافة الاعتذار إن هم أرادوا أن يكونوا حضاريين، راقين في تصرفاتهم..! الاعتذار بلسم يداوي الجروح النفسيَّة، فكم شفى سقماً، وكم أبرأ همّاً، وكم أزاحَ موجدة، وكم أخمد لهيباً، وكم أسكن ثورة. فقلوبُ أغلب المجروحين ليست جامدةً، بليدةً لا تقبلُ الاعتذار الصادق وإن كان قد لحقها من الأذى النفسي ما لحقها، لقول بشّار بن برد:

إذا اعتذر الجاني إليَّ عذرته ولا سيّما إن لم يكن قد تعمّدا

قيمة الحلم

الحليمُ سيِّد؛ فهو المالكُ عقلهُ، والمجلُّ قدْرهُ، والمنزهُ شأنهُ..! ولم أر حليماً إلا وهو رفيع في أخلاقهِ، مرتفعاً في شمائله، فقد جُبلَ على النّظرِ إلى الأمورِ بعينِ عقلهِ، فلا تدفعهُ المواقفُ إلى عاقبةٍ لا يعرفُ منتهاها، ولا تجرّهُ الانفعالاتُ إلى جحورٍ ليس لها منافذ..! إنّما هو مُحكمٌ أمره، عاقلٌ حبله، مُرسِنٌ نفسه..! يحسبُه السّفيهُ مستفزّاً، تثيرهُ كلماتُ السّفاهةِ، وهو عليُّ المقامِ، ذو سمعٍ لا يرقُّ إلّا لما يروقُ لعلوِّ شأنهِ، ولا يصغي إلّا لما يعمرُ روحهُ بالجمالِ والخير والحقَّ..! في حين يتقطّعُ السّفيهُ غيظاً، ويتميَّزُ كمداً وهو يرى الحليمَ، سمحاً في العطاءِ، لا يستشاط لفعلِ جاهلٍ، ولا يستثارُ لفعلِ حاقد..! كمن قال الشّاعرُ أمين تقيُّ الدّين فيه:

فحمدتُ رأيكَ عاقلاً متحفّظاً تتبَّعُ البرهان بالبرهانِ
تُدلي بحجةِ عالمٍ لا مدّعٍ سفهاً ولا متصنِّعٍ العرفانِ
أدب المناظرِ في الجدالِ وحكمةٌ الشيخِ الحليم بحضرةِ الشبّانِ
الحربُ علمٌ والشجاعةُ خلَةٌ فالرأيُ قبل شجاعةِ الشُّجعانِ

إنّما غاب الحلمُ عن كثيرين، غمرهم ترابُ الحياةِ العصريَّةِ، ودفنهم الانغماسُ في ضغوطاتها..! فكم ترى أينما ولّيتَ مستثار الأعصابِ، هائج الانفعالِ، طائش العقلِ، منفلت العِقال.. يحيطون بك..! تنظرُ إلى الوجوه لتظفرَ بابتسامةٍ فتطالعكَ الوجوهُ الشحيحةُ بوجومٍ شاحب..! وتسبرُ أعماقَ النُّفوسِ فإذا بغضبٍ يندلقُ منها، يكادُ لهيبهُ يذيبك..!! كثيرون انفلتوا من قيادِ حلمهم، يمشون بلا رسن، كخيلٍ جامحةٍ، لم يعدُ الرّسنُ يفيدها..! يستشيطون غضباً لمجرّد كلمةٍ صادرةٍ أساؤوا فهمها، أو فعلٍ أخطؤوا تقديره..! هؤلاءِ كالعابرين على حوافِ الأرصفةِ، تسقطهم أدنى عثرة، وتكبهم أصغرُ حجرة..! ولوا ثوراتهم قياد أمرهم فتقودهم إلى حيثُما شاءت، ظانِّين بأن في قيادتها ثاراً

لأنفسهم، أو تأكيداً لاعتبارهم، أو ردّاً لحقوقهم، إنّما أخطؤوا من حيث حسبوا أنّهم مصيبون، فالعواقبُ لا تأتي حميدة من طيش، ولا تُجنى يانعة من انفعال.. إنّما من حُلمٍ ورويّةٍ، ورأيٍ وتحسب، وعقلٍ وأناة..!

وإنني لأذكرُ قصّة المرأة التركيّة التي كانت تصطف في طابور بسيارتها أمام مغسلةٍ للسيارات في يومٍ شتوي، يغمرُ الجليد فيه الشوارع، فإذا بسائقٍ آخر يتعدّى دورها بسيارته، فتهبط وهي منفعلة لتتشاجرَ معه، فإذا بها تصفعهُ، وإذا به يترنّحُ من جرّاءِ صفعتها فتنزلقُ قدمهُ، ويسقطُ وقد ضرب رأسه على حدِّ الرّصيف، فيموت..!! فهل كان في حُسبان هذه المرأة الطائشة اللبِّ أن تقتله حينما هبطت؟! بالطبع لا.. لكن الحُلم غابَ فحضر الطّيشُ والانفعال.. حضر الشيطان وذريّته..! غابت القوّة، وحضر الجُبن.. وذلك من قول الرسول الكريم: "ليس الشديد بالصّرعةِ، إنّما الشديد من يمسك نفسه عند الغضب.."، تذكرت قصّتها، وأنا أقرأ وأشاهدُ فعلةَ الشرطي البريطاني أثناء قمّة "مجموعة العشرين G20" حينما دفع متظاهراً يُدعى "إيان توم لينسون Ian Tomlinson" كان يدس كلتا يديه في جيبيه، حيث دفعهُ من وراءه، دفعةً قويّة، أودت به للاصطدام بالأرضِ الغليظةِ، فمات بعد خمس دقائق، إذ كان مصاباً بأزمة قلبيّة..!! فهل كان في نيّة الشُّرطي أن يقتل الرّجل..؟! بالطّبعِ لا - في أغلبِ الظّن - لكنَّ الحلم غابَ فحضر الانتقام.. والغلُّ والتّهور..! وأذكرُ من سنواتٍ أنني تتبّعتُ في الشّارعِ شابّين يقودُ كل منهما سيّارته، فأخطأ أحدهما في حق الآخر، خطأً غير مقصود إذ أراد التجاوز في الوقت الذي تعبرُ فيه مركبة الآخر الشارع فكاد أن يصطدم به، لكنّه بدلاً من أن يقابل إشارات الغضب منه، استفزّه بحركةٍ غير سويَّة، ولم يقابله الآخر بالحلم، كما قال الشاعرأحمد فارس الشدياق:

لكنّما شأن الحليم العفو عن زلّات معترفٍ طغت زلّاته

فصار الشارعُ حلبة صراعٍ، وميدانُ ثأرٍ لكليهما، وتحوّلا إلى ممثلين طائشين أمامي، يحاول كل منهما أنْ ينالَ من الآخر، وكان أحدهما يصطحبُ أسرته..!! غاب عنهما الحلم، وحضرت السّفاهة.. وكاد أن يفتك أحدهما بالآخر

بالاصطدام، وحينما وجدا أن هذه الطريقة لا تنفعل أوقفا سيارتيهما، فأوقفت سيّارتي وراءهما عالماً بأنّهما لن يلتقيا بالأحضان، وإنّما باللّكمات..! وقبل أن يشتبكا، فاجأتهما بالقول: كم الصباحُ جميلٌ، أفتضيّعان جماله بالعراك والخصام؟!..انتبها فالحياةُ أصغر من أن نصغّرها بالكراهيةِ والبغضاء والمقت..!! وأثيبا إلى رشدكما، فقد رأيت منكما، وشهدت فعلكما فأنتما مشتركان في الخطأ..! عاد إليهما الحلم فاحتضن أحدهما الآخر، في الوقت الذي حضرت فيه الشرطة بعد أن سبق أحدهما الاتصال بها، لكنّهما قالا للشرطي: شكراً فقد أصلح بيننا هذا الأخ.. وتفرّقا..!!

كم من الناس طائشي الألبابِ، منفلتي العقال، تراهم في الشوارع وقد عقدوا العُقد على جبهاتهم، يعلّلون ذلك بضغوطاتِ الحياةِ، وأزماتها، وتعقيداتها، لكنَّهم لو فقهوا لعلموا أن الحلمَ مفتاح كل عقدةٍ، وطريقُ كل صابر.. وليس فاقدُ الحلم هو من فقد عقالَ عقله، وأمْرَ نفسه وحسب، بل والفاقد رشده، ورزانته، فكم من أناسٍ تقيمُ لحلمهم وزناً، ولرزانتهم ثقلاً حتى تراهم في مواقفَ أو مواضع فيتحول ذلك الحلمُ إلى سفاهةٍ، وتتبدل الرزانةُ إلى ضِعة..! ممن كنتُ أُجلّهم رجلٌ أعدّه حليماً في شمائله، رزيناً في شخصه، حتى جمعتني المصادفة به، وقد أذهبت الصهباءُ عقله، وغيّبت الخمرة حلمه.. فقد تبع مقولة إيليا أبو ماضي:

أدر على الجلّاس أكواب الهوى في راحتيك سلافه وعصيره
فيخفُّ في الرّجل الحليم وقاره ويراجع الشيخ المسنَّ غروره

ومنهم رجل أحسبُه ذا حلم ورشدٍ، فإذا بي أرى صغائر الأمورِ تستفزّ عقله، وتفقدُه رشده..! فأقولُ إنّما الحكم على الرّجال لا يكون في الظاهر، وإنّما التجارب هي خيرُ مسبارٍ لدفائن طبائعهم، وظننتُ في أحدهم ثقل الشّخصيّة، وهيبةَ الجانب، فإذا بي أراه على شفا حفرةٍ من التضعضعِ، والهزال في الطّباع، مستنفر الطّبع، مستجيش الإحساس، لا يكادُ لسانك يفرطُ بكلمةٍ دارجةٍ ذات نيّةٍ حسنةٍ أمامه، حتى تكون كافيةً لاستثارتهِ وتعليقه اللّاذع، فمثلُ

هذا صعبُ المعشر، لا يُؤمنُ جانبه لأنّه غادرُ الطّبع، أمّا الحليمُ فهو الذي يؤمنُ جانبه، ويطمئنُّ لسماحته، وطول أناتهِ وصبره.

وهكذا ترى في النّاس حلماً يفقدونه حالما يفقدون رشدهم، ويغيِّبون عقلهم، فتقول لهم مقولة العرب " أين عَزَبَ حِلْمُك " أي أين بعد..؟! وتسألُ نفسك: ما الذي حدا بفلان كي يفقدَ حلمه، ويضيّع رزانته، ويخفَّ ثقله، وهو دليلُ الناسِ، ومضربُ مثلهم، وقدوةُ مسلكهم، يقول الشاعر مهيار الديلمي:

إذا ضلَّ فهم الدليل الحليم هدى الناس منه دليلٌ جهول
متى خفَّ أو طاش أعمدته ويحمدُ وهو رزينٌ ثقيل..!

إن المرء إذا تخلّى عن حُلمه صار أحمق، وذهبت رزانتهُ، وخفَّ وزنه، وضاعت هيبته، وقلّت مروءته، أمّا إذا جعل الحلمَ له طبعاً، فغشيته خصيصته، وسرت فيه صفاته، فهو المصونُ الشّرف، العالي القدر، الرّفيع الشّأن، لسانُ حالهِ يقول مقولة الشاعر:

يخاطبني السفيه بكل قبح فأكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة فأزيد حلماً كعود زاده الإحراق طيبا

فلا ضغوطاتُ الحياةِ تغيِّبُ الحلمَ، ولا مصائبها ومحنها تفقدُ الرّشد، ولا مضايقات النّاس وأحقادهم تضيّع الأناة، طالما وعى المرءُ أنَّ في الحلم هيبةَ شخصهِ، ومناطَ أمره، فيه السموُّ والسيّادة، والعلوُّ والرّيادة، وإنّ الحلمَ ليكسي أناسٍ بكسيةٍ زاهية، فتجلّهم قدراً لأنَّ السفهاءَ لم ينالوا منهم شيئاً..!! وأذكرُ من هؤلاءِ رجلاً اتصف بالحلمِ والكرم، هو معنُ بن زائدة، حفظنا قصّته مع الأعرابي الذي راهن على إغضابه فدخل عليه وقد اكتسى بجلد شاةٍ مقلوب، وأهانه فلم ينل منه شيئاً، بل كان معن يُكرمه حتى عجز الأعرابيُّ، فقال معجباً بعد يأس:

سألت الله أن يبقيك دهراً فما لك في البرية من نظير
فمنك الجود والإفضال حقاً وفيض يديك كالبحر الغزير

فقال معن: أعطيناه أربعة على هجونا فأعطوه أربعة على مدحنا، قال الأعرابي: بأبي أيها الأمير ونفسي فأنت نسيج وحدك في الحلم، ونادرة دهرك

في الجود، ولقد كنت في صفاتك بين مصدق ومكذب، فلما بلوتك صغر الخبر الخبر، وأذهب ضعف الشك قوة اليقين، وما بعثني على ما فعلت إلا مئة بعير جعلت لي على إغضابك.

فقال له الأمير: لا تثريب عليك، ووصله بمئتي بعير، نصف للرهان والنصف الآخر له، فانصرف الأعرابي داعياً له.. شاكراً لهباته.. معجباً بأناته.. وكم من النّاس يتّصفون بحلم معنٍ، فلا تضيقُ قلوبهم لجاهل، ولا تغضب لسفيه بل ترتفع وتسمو.. هؤلاءِ هم عبادُ الحليمِ الذي أنعم عليهم بطبعِ الحلم فوسعت قلوبهم سفاهة الجهلاء..!

معاملة الرجل للمرأة

تدهشني أفعالُ البعضِ ممن يُظهرونَ التزامهم بالدِّينِ لكنهم لا يمارسون الدِّينَ إلّا ممارسةً شعائريَّةً، ظاهريَّة، إنّما سلوكياتهم تنمُّ عن جهلٍ بالدِّينِ، ونقصٍ بما احتواهُ من السلوكياتِ الرّاقيةِ التي تنمُّ عن الذوقِ الحسن، والمشاعرِ الرقيقةِ الدافئة. ولعلني هنا - ونحن في معرضِ الحديث عن القيمِ المعطّلةِ - أستعرضُ معاملةَ الرجلِ للمرأةِ، وهي معاملةٌ لا نجدُ من نقتدي به في سموِّ العلاقةِ، وجلال قدرها أعظمُ من سيرةِ النبي ﷺ مع زوجاته. كيف لا وهو القائل: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي".. يقولها بفخرٍ بغيةَ الاقتداءِ به والتأسِّي بمنهجه الإنساني العظيم.. وفي خطبةِ الوداع قال: " أوصيكم بالنساءِ خيراً".

يقول ابن كثير - رحمه الله تعالى ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩/٤]، وعاشروهن بالمعروف: أي طيبوا أقوالكم لهنَّ وحسنوا أفعالكم وهيآتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله كما قال تعالى ـ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨/٢]. وكان ﷺ جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقة، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ يتودد إليها بذلك، قالت سابقني رسول الله ـ ﷺ ـ فسبقته وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني فقال: (هذه بتلك)، ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ـ ﷺ ـ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد، يضع عن كتفيه الرداء، وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام يؤانسهم بذلك ﷺ ـ..

ونستذكرُ في هذا المقام قصة مشاهدة دعوته للسيدة عائشة إلى مشاهدة الأحباش وهم يرقصون خارج المسجد، حين وضعت خدها على منكبه وهو يسترها بردائه، ومكثت طويلاً على تلك الحال وهو يقول لها: أما شبعت فتقول: لا، حتى إذا انصرف الناس انصرفت هي..!!

وهو الذي لا تدخل عليه السيدة فاطمة الزهراء ابنته إلّا ويقوم يقبِّلها في جبهتها..!! حتى إنّه وهو على فراش الموت أراد أن ينهض وقد دخلت عليه لعادته في تقبيلها فلم يمكِّنه المرض.!!

هذه صورٌ مؤثِّرةٌ من حياةِ النبي ﷺ مع نسائه وبناته.. يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢١].

إنما غفل أو تغافل الكثيرون عن هذه الصور الرائعةِ، فعمدوا إلى الاقتداءِ بأمورٍ أخرى، وتركوا هذه السلوكيات الإنسانية الراقية، الرقيقة التي دلّت على حسن ذوق النبي عليه الصلاةُ والسلام، ولطف جانبه، ورقّة مشاعره..!!

من القصص التي وقعنا عليها في حاضرنا أنّ إماماً يحاضرُ في النّاس طلّق زوجته في ساعةٍ متأخرةٍ من الليلِ فاصطحبها في ذلك الوقت المتأخر إلى أهلها، وليته أدخلها عليهم بل تركها وحقيبتها عند الباب..!!

وآخر أيقظَ زوجته من منامها، وحين صحت ولمّا يزال النوم يغالبها بعد لفظ عليها الطلاق، طامعاً أن يستبدل بها أختها..!!

إن الكلمات الرقيقة الوديعة التي هي من قبيل التغزل بين الزوجينِ، إذكاء للمحبَّة، واستدامة للحسِّ الجميل في العلاقةِ كي لا يشوبها الفتور. يقول النبي ﷺ: "لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة، وليكن بينهما رسول، قيل: ما الرسول يا رسول الله؟ قال: القبلة والكلام".

أقول إن تلك الكلمات الرقيقة قد اضمحلّت في الكثير من القلوب، فهم

يرونها من قبيل التبذّل فيخجلون من قولها، وبعضهم يراها من قبيل الإسفاف فيأنفون منها..

غيابُ هذه الكلمات اللطيفة، والمداعبات الغزليَّة أثَّر على العلاقةِ بين الزوجين (المسلمَين) فأصبحت حياتهما جافَّةً، قاحلةً كأنّها الصحراءُ القفر التي لا نباتَ فيها ولا شجر..!! هذا الأمر انعكس على الأبناءِ الذين تربّوا في بيوت لا تمرُّ في أروقتها وحجرها أنسامُ العلاقات الإنسانيةِ السامية، ولا تخفق فيها القلوبُ بنبضات الحبِّ المعلنِ، ولا يرقى فيها أسلوبُ التخاطبِ إلى مراتب الصفاءِ الإنساني الخالص..!!

بيوت لم تثمرِ سوى أجسادٍ شاحبةٍ، وألسن صاخبة، وعيون حادّة، وقلوب جادّة.. فندرَ منها بديعُ اللفظِ، وقلَّ فيها خفق الكلمة، فالعبارةُ الموجزةُ الجادّة، الحازمةُ هي واصلةُ لغتها، وهي حبل التخاطب فيما بينها..!!

أمّا السلوكُ فهو الأمرُ والحزمُ، والضبطُ والرّبط.. فأين هو الذي يسابقُ زوجته مداعبةً، إنّهم ليكرهون ذلك.. ونبيّهم العظيم فعل..!! وأين من تضعُ زوجته خدّها على منكبه، وهي تشاهدُ شيئاً مما حلّل للنظر مشاهدته، وهو صابر معها، مستأنسٌ لها.. لا يطيق البعض فعل ذلك.. ونبيّهم فعلها مع زوجه..!! أين من يقبِّل ابنته على جبهتها..؟! بعضهم يرى ذلك تصغيراً.. وهي عادة رسولنا الكريم مع ابنته..!!

إذن مكابرةُ النّفس على الرقَّةِ، ولطفِ الجانبِ، ورهافةِ الشعور هو من صميم الهويّة الإسلامية، ومن ثم مفردة من مفردات الثقافة الاجتماعية، فكم من بيوتٍ هدّمت بأيدي أصحابها لأنّهم لم يفهموا دينهم فهماً سليماً راقياً، ولم يطبِّقوا صور الاقتداءِ الجميل لنبيّهم العظيم..

ويا للمفارقة فبعضُ الرجالِ يجيدون تنميق الكلماتِ لأخريات لسن زوجاتهن، ويبدعون في وصف جمالهن وزينتهن.. وهؤلاءِ مضوا منهج بشار بن برد الذي قال لزوجته بعد معاشرته لها وهو يحسبها أجنبية بعد أن عرّفته بأنها زوجته: ما أحلاك في الحرام..؟!!

هذا هو الخلل؛ القصورُ في النّفس لا في الآخر.. إن الرجلَ ليستطيع أن يصلَ بزوجته إلى المرأةِ التي يشتهيها خيالهُ إن أصلح هو ذاتهُ نفسه، وأكرمها، وحدّد لها حدودها، يستطيع أن ينتقي لزوجته أو يرشدها إلى الملبس الذي يحب أن يراها فيه، وأن يحملها إلى الهيئة التي يهفو إلى النظر إليها، ويدفعها إلى قول الكلمات التي يحب أن تشنِّف أذنه فتطرب خاطره.. يستطيعُ أن يفعل الكثير فهو مدرسةٌ لزوجته، ولكن ماذا يفعلُ فاقد الشيء..؟ لا يعطيه بالطبعِ..!! إنّما هو في كتابِ الله، دستوره الذي يقرأه، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١]، فكيف تُبنى المودةَ والمحبّةَ.. إن لم يعرف ذلك فله في السنّةِ ألف دليل..!

ولعلنا نقفُ مشدوهين أن الطلاق يقع عند بعض الرجال وكأنّه دعابةٌ حمقاء..!! لأسباب تافهةٍ في الكثيرِ من الأحيانِ، لأنّه لم يفهم وضعية المرأة وطبيعتها.. فانظر إلى هذه الآية الكريمة وتأمّل، يقول تعالى:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٩].

هذه معطياتٌ إسلاميةٌ راقيةٌ تغافل عنها الكثيرون من المنتمين إلى الهوية والثقافة الإسلامية، ففي واقعهم ما يخالف ما نصَّ عليه دينهم، ومن ثم أضرَّ بهويّتهم، وأصابها بخللٍ بليغٍ في بنيتها القويمة..!

قيمة الحياء

الحياءُ عفة وجمال، ورزانة واتِّزان، ما تحلى به امرؤٌ إلّا زانهُ، ولا تخلَّى عنه إلّا شانه..!! هو نعمةٌ جليلةٌ، وسمةٌ فضيلة، يعلو بها المرء شأناً، ويسمو بها مقاماً. الحياءُ زينة الإنسانِ التي تُكسبهُ إنسانيّته، وهي حليتهُ التي تزهو بها رصانته، فإذا تركها فإنه أقربُ إلى الحيوانِ منه إلى الإنسان..!!

الحياءُ هو السدُّ المنيعُ أمام النّفس (الأمّارةِ بالسُّوءِ) للجاذبيّة نحو الرذائل والمفاسد، وهو الحائطُ الرّفيع أمام المكارهِ والنّقائص والعيوب التي تخل من قيمتها، وتبخسُ من قدرها..!! وقد أكرمنا الله بالحياءِ فكان "الحياءُ من الإيمان" كما جاءَ في الحديثِ الشريف، لذا قام الإسلامُ على الحياء!!

وإذا كنّا في هذا الوقت أحوجُ ما نكون إلى الحياءِ والالتزام به وذلك لانتشار المغرياتِ عبر وسائلَ مختلفة، فإن كثيرين رأوا في الحياءِ انتقاصاً من الشَّخصيّة، وعيباً في الشّخص..!! حتى أعابت بعضُ الأمّهاتِ على أبنائهن أنّهم يستحون، لا يقاربون النِّساء..!! وأعاب بعض المعلّمين والمعلّمات على طلّابهم أنّهم مستحون أيضاً..!! فذات مرّة تلقّى أحدُ الآباءِ تقريراً من معلّمةٍ تشيدُ فيه بابنه ولكنّها تنتقدُه لأنّه حيي..!! فكتبَ لها الأبُ قائلاً: هناك فرقٌ بين الانطوائيّةِ - وهي سمةٌ غير حميدةٍ تحتاجُ إلى علاج نفسيٍّ - وبين الحياء وهو سمةٌ فاضلةٌ يحتاجُ منّا إلى الثناءِ عليه، والإشادة به فقد كان رسولنا الأكرم "حيّياً" أي كثير الحياء.. بل كان أشدّ حياء من العذراءِ في خدرها.." كما روى أبو سعيد الخدري..!!. حينما مرّ النبيُّ ﷺ على رجل ينصح آخر في الحياء: أي يعاتبه فيه لأنه أضر به، قال له: دعه فإن الحياء من الإيمان..!!

لكنّما ضعفَ الحياءُ لدى كثير من الفتيان والفتيات في مجتمعاتنا العربيّة.. وأبرزُ شاهدٍ على ذلك المراكز التّجاريّة والأسواق والشوارع..!! لقد تعلّقتِ

العيونُ في العيون..!! وانتهكت الستور، وبعد الكثيرون عن فضيلةِ الحياءِ الذي يحتّم غضّ البصر..لأن الحيّاءَ في مفهومهم عيب في الشّخصيّة..!! وهو لعمري إن كان عيباً فهو أجملُ العيوب وأكرم للإنسانِ أن يكون فيه هذا العيب بدل أن يريقَ ماء حيائه في الشوارع والأسواق..!!

لا يمكنُ أن يمشي زوجٌ وزوجتهُ في سلامٍ واطمئنانٍ في مركزٍ من المراكز التجارية دون أن تكون العيون مسلّطةً كسهامٍ حادّةٍ على زوجته..!! هذا ديدن الكثيرين، ولذلك أصبح الزّوجان يلاحقهما الشعور بأنّهما محاطان بغابةٍ من العيونِ تراقبهما، وترصدُ تحرّكاتهما أينما ذهبا..!! إنّ الرّجلَ لا يزينهُ سوى أدبه، والحياءُ ركيزةُ الأدبِ فمهما كبرَ سنّه، وظهرت عليهِ ملامحُ النّضجِ فإنّ أخلاقه وسلوكه هما معيار تشكيل شخصيته:

حياءك فاحفظه عليك وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

وفي ذلك أخبرني أحد الأصدقاءِ أن ابنته ذهبت للتّبضُّع من أحد المراكز التجاريّة المعروفة، وإذا برجلٍ طالت لحيتهُ، وبانَ فيها وقار بياضها الذي لم يعكس جوهره، يقتربُ منها، وكانت كلّما بعدت زاد اقترابه منها والتصاقه.. حتى صاحت في وجهه: استحِ على وجهك..!! فهل يليقُ بإنسانٍ حرٍّ، كريم أن يضعَ نفسه موضع الخسَّةِ والدناءةِ كما فعل هذا الرّجل وهو يلاحقُ فتاةً في سنِّ ابنته..!! وتخبرني شابّة: أنّها وقفت لتعبرَ الشّارع فإذا بسيّارةٍ فيها شباب - وما أغلاها من كلمة - تقفُ في الشارع ليطالعوها لا ليفسحوا لها الطريق وقد أمعنوا أبصارهم..!! ومن أغربِ ما حكاه لي أحد الأصدقاءِ أنّه سافر إلى دولةٍ عربيّةٍ ودخل مطعماً فيها برفقةِ زوجتهِ فإذا بعيون الشباب تحاصرهما..!! بل إن بعضهم تجمهروا في مقاعد، ووجّهوا قبلتهم نحوهما وظلّوا يحملقون فيهما وكأنّهم يراقبون مخلوقات فضائيّة كيف تأكل، وماذا تقول..!!

والمرأةُ حليتها وزينتها الحياءَ فإن سقط عنها فقدت عنصراً عظيماً من قدرها، ولهذا فلا تلوم أحداً من أصحابِ الخُلُقِ الدنيءِ إن أساءَ إليها..!! ذلك لأنّها لم تستحِ، فكم من البناتِ من هنَّ يفصحنِ عن مفاتنهنَّ دون حياءٍ في المجمّعاتِ

والأسواقِ والشّوارعِ والطّرقات، ألسنهن صريحات الدّعوةِ لمفسدة..؟!! فعلامَ يصرخنَ في خبثاءِ النفوس، ومرضى القلوبِ إن ألقوا على مسامعهن بعض الكلماتِ الوضيعة..؟!!

هذا المشهدُ لا يوجدُ في الغرب.. ليس لأجلِ الحياءِ وإنّما لأجل الحريَّةِ الشّخصيَّة، ولذلك أصبح من الشّاذِ، والغريبِ أن ينظر أحد إلى أحد..!! لذلك هربَ الكثير من العرب سائحين أو طالبين مقاصدَ أخرى لأسبابٍ منها عيونُ النّاسِ، وإشاراتهم، وكلماتهم..!!

إن الحيّاءَ ليبدأ من البيتِ، وأربابُ الأُسرِ هم الأسوة.. لقد شاهدت وسمعتُ أبناء يتحدّثون أمام آبائهم في أمورٍ يخجلُ المرءُ من سماعها، وتأنف أذُن الإنسانِ الكريم.. والآباءُ مستمتعون، متفاعلون..!! يظنُّون أن ذلك جزء من العلاقة الصحيّةِ بالأبناءِ، أو إنّها دليل على نضجِ أبنائهم.. وما هو والله إلّا خلل في التّربيةِ، وعيب في العلاقةِ..!! إنّ الأباء والأمهات إن لم يضعوا حدوداً لما يجبُ أن يقال أو يسمع أو يشاهد فإنّهم يضرُّون بالأبناء، ولكن كيف يكون ذلك إن لم يكونوا أنفسهم قدوةً وأسوة..؟ فقد سمعتُ بعضهم يتحدّث في كلِّ مجلس بكلِّ ما يجري على ألسنتهم من سفاسف الكلام، غير محترزين بأن في المجالسِ أبناء حديثين، قاصرين عن فهم مقاصدِ الكلامِ، أو أنّ قولاً مثل هذا لا يجبُ أن يقال.. فتسمعهم يلقون النُّكت والطرائف دون حدود.. حتى إن السامع الراشدَ لتضيقُ نفسهُ فقد يكون له أبناء حاضرون يربأ بهم أن يستمعوا لسفاسفِ الكلامِ، ويشاهدوا ما يُعيبُ النظرِ، وتأنفُ عنه النّفس في تلك المجالس..!! ولذلك فليس من الغريب أن ترى أبناءهم وقد تخلَّقوا بأخلاقهم المشينةِ، وتطبَّعوا بمثل طباعهم الوضيعة..!!

إن البَعضَ إذا تكلّمَ فلا يراعي من يكونُ في حضرتهِ، فهو يحسبُ أنّ ما يقوله - وقولهُ تفاهة - مثارُ اهتمامٍ ومتعةٍ للآخرين..!! زرنا ذات مرّةٍ شاباً جاءَ معالجاً من الخارجِ فكان المجلس عامراً بالنّاس للاطمئنانِ عليه، لكنّه تكلّم بكلامٍ

أسقطهُ من عيونِ الحاضرين، فقال في بعض كلامه: إن قدمي قد أصبحت سليمة حتى إنني دخلتُ مسابقةً في أحد المراقص وكنت فيها متميّزاً..!! نعم لقد جال صاحبنا وصال في ميادينِ الوغى، ورمى بروحهِ في الهيجاءِ، شاهراً سيفُه الصّقيل في وجهِ الأعداء..!! ولو أنّ عنترة بن شدّاد بارزه لما قال:

ومدجّجٍ كره الكماةُ نزاله لا ممعنٍ هرباً ولا مستسلمِ
جادت لهُ كفي بعاجل طعنة بمثقّفٍ صدق الكعوبِ مقوّمِ

إن الحياءَ قطرة..!! فإن سالت نضب معينُ الحياء، حينها يصدقُ على ما قيل: " إن لم تستحِ فافعل ما شئت". وأغربُ شيءٍ، ونحن في مجتمعاتٍ مسلمةٍ، أن تجدَ الحياءَ مُراقاً من الوجوهِ..!! ويا للغرابةِ حين يستحي إنسان من آخرَ ولا يستحي من الله ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٤/١٠٨]. فهم يخشون أن يراهم بعض معارفهم أو أصحابهم في المراقص أو الحانات أو أماكنِ الشّبهةِ، ولكنّهم لا يستحون من الله وهو يراهم من فوقهم.. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ٩٦/١٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٦/٩١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ٤/١].

إن قيمة الحياءِ إن لم تُفعّل في حياةِ الإنسانيّةِ فإن المفاسدَ تستشري، والمكاره تنتشر، والعيوب تكثر، والمصائب تزيد..!! يقول الشاعر:

إذا لم تَخْشَ عاقبة اللَّيالي ولم تَسْتَح فاصنعْ ما تشاءُ
فلا -والله- ما في الْعَيْشِ خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

فلا قيمةَ إذن لإنسانٍ - رجلاً أو امرأةً - دون حياء، هو زينته وهو حليته، وهو إشارة كرمه، ومقياس رشده، وعلامة نضجه، وعليه لأجلِ ذلك أن يتفكّر في المنهجِ السليم الذي يجب أن يسلكهُ أهل بيتهِ.. لأنّه لو غارَ عليهم لقبض نفسه عن الآخرين، وعَمَرَ قلبَه بالحياء..!

قيمة التسامح

تأمّلتُ كلمة التسامح فوجدتها عذبةً في اللِّسان، سلسلةً في المنطوقِ، رقيقةً، ذات رنينٍ جميلٍ في السَّماعِ، لكنّها ثقيلةً على النّفس، يقبلها العقلُ كلمةً مجرّدةً لكنّه يجدُ كُلفةً في تطبيقها واقعاً..!! فماذا الذي يمنعُ كثيراً من البشرِ من تطبيقها، ورفضِ التخلُّقِ بها، وتحبيذِ الغلظةِ، والحدّةِ، والغضبِ، والكبرياءِ بديلاً عنها..؟!

إن "المسامحَ كريمٌ" كما يقالُ في المثل، وكرمهُ هذا يصدرُ من نفسٍ زكيّةٍ، واسعةٍ لا تضيقُ مع أغلاط الناسِ، ولا تتكدّرُ مع سقطاتِ أنفسهم، ولا تهيجُ لاستفزازاتهم.. إنّه كريم لأن الكرمَ هو بذلُ العطاءِ في وقت الشدّةِ، والشدّةُ هنا حينَ يُغلظُ الناسُ في قولهم المهين، ونقدهم المشين، فيقابلهُ هو بعطاءِ التسامحِ والعفو، وهنا يعلو بمكانتهِ فوقهم مكانةً، ويسمو بخلقهم مرتبةً يحسده عليها النّاس.

إن مصيبةُ أغلب البشرِ في أنّهم غير متسامحين، يهيجونُ للكلمةِ الخارجةِ - دون قصدٍ - عن مسارها، ويؤولونها كما تصوّر أنفسهم الضيّقة، وعقولهم التي لا تحملها حقيقةَ أن عظمةِ النّفس تكمنُ في التّسامحِ فهو خُلقٌ لو تحلّى به المرءُ لعلا منزلةً، وارتفع قامةً بين النّاس..!

ولو نظرت لأكثرِ خصوماتِ النّاس لقلت: إنّهم لو كانوا متسامحين لما تخاصموا..!! ولو عفوا لما كابدت قلوبهم من الضيقِ، والبغضِ، والحقدِ، والمشاكساتِ ما كابدت..! ولعاشوا كبارَ النفوسِ، لا تغيبُ الابتسامة عن شفاههم، ولا يفارقُ البِشْرُ وجوههم..يقول سيدنا علي - رضي الله عنه -: من لانت كلمتهُ وجبت محبّته، وحلمك على السّفيهِ يكثرُ أنصارك عليه.

ويفهمُ أنّ من أنزلَ نفسه إلى مرتبةِ التسفّهِ حطَّ من قدرِ نفسهِ وخلطَ الناسُ

عندها بينه وبين السّفيهِ..! يخبرني أحدُ الأصدقاءِ أن رجلاً جاءه مدفوعاً بكبرياءٍ زائفةٍ، ونفسٍ مغرورةٍ، يأمرهُ بفعلٍ شيءٍ لا توافقهُ نفسه على فعلهِ. وحين يئسِ منه هذا الرّجل رأى من رفضهِ إهانةً لشخصه، فوجّه إليه كلمةً مُهينةً، لكنّ الصاحبَ الذي يُخبرني ردّ عليه بالكبرياءِ الصادقِ، والأنفةِ الأصيلةِ: سامحك الله..!! ولقد كانت هذه الكلمة كالسهمِ الجارحِ على قلبِ ذلك الموهوم بعزّةِ نفسهِ..! وحين أسمع رجلٌ سيدنا عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ بعض ما يكره، ردّ عليه: لا عليك، إنّما أردتَ أن يستفزّني الشيطانُ بعزّة السلطانِ، فأنالُ منك اليومَ ما تنالهُ مني غداً، انصرف إذا شئت..!!

إن الواحدَ منّا إذا استطاعَ أن يستبدل الحلم بالغضب، والأناة بالعجلةَ فإنّه لا شكَّ سيكونُ في مأمن، فإننا نستطيعُ أن نقرّر ردّةَ أفعالنا بشرطِ أن نتمهّل في الردِّ، وحينها سنفكّرُ بشيءٍ هام؛ وهو ألا نؤذي أنفسنا، فإذا أيقنّا بذلك توقّفنا عن ردّة الفعلِ المنتقمةِ وانتصرنا لأنفسنا بالتسامحُ، يقول الله العفّو الكريم: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠].

كثيرٌ من الناسِ يترصّدون الأخطاءَ من أقربِ الناسِ إليهم، لا تعرفُ أنفسهم التّسامح إن أخطأ فيهم أحد، ولا تركنُ إلى العفوِ إن نالها أحد بغير قصد.. هؤلاءِ يكونُ التعاملُ معهم كما يورد ديل كاينجي عن فقرةٍ وردت في نشرةٍ صادرة ذات يومٍ من الشرطةِ الأمريكية في إحدى المدن، تقول: "إذا سوّلت لقومٍ أنفسهم على أن يسيئوا إليك، فامحُ من نفسك ذكراهم، ولا تحاول الاقتصاص منهم، إنّك إذا تبيّت نيّة الانتقام تؤذي نفسك أكثر مما تؤذيهم".. هذا هو بالفعل ما سيحصلَ للنّفس، فالمنتقمِ يؤذي نفسه قبل أن يؤذي الآخرين.

قصَّ عليَّ أحد المقرّبين يقول: إنّه كان يطلبُ القُربى من أناسٍ، لكنّ بعضهم كاد له المكائدَ كي يُثنيهِ عن مقصدهِ، ويردّه عن مبتغاه، ونفسهُ تجاهدُ كي تظفرَ بآمالهِ، وتحقيق أحلامهِ فيمن كان يراها المرأة التي يستطيبُ لها قلبهُ، ويسعدُ بها معاشه، فلمّا أن مكّنه الله وحقّق له ما أرادَ لم يجد في نفسهِ ذرّة من غرورِ

الانتصارِ على الرّافضينِ، وإنّما سامحهم وعفا عنهم، فصارت بينه وبينهم أُدمةً طيّبة، وسيرة حميدة.

إنك لتكسبُ النّاس حين تعفو عن زلّاتهم، وتغفر لأخطائهم، وتفسّرها على أنّها غير مقصودة، وأنّها لن تنتقص من شخصك شيئاً، ولتعلم أن الشيطان ينزغ بين النّاس ويدخل في دمائهم فلا تركنُ إلى وساوسهم، وأغلبُ الناس يقرؤون الآية الكريمة: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٢]، فيقولون: إنّ بعض الظنِّ فقط هو إثم..محاولين تعضيد ظنونهم التي لا تدخل في باب الإثم، لكن أحرى بهم أن يتمثّلوا بالآيةِ من أوّلها فيقرؤوها كاملة، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٢]، إذن فإن أكثر الظّنِ مبغوضٌ. يوردُ ابن كثير في تفسيره للآيةِ مقولة سيدنا عمر بن الخطاب التي قال فيها: : وَلَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَخِيك الْمُؤْمِن إِلَّا خَيْراً وَأَنْتَ تَجِد لَهَا فِي الْخَيْر مَحْمَلاً..

أتذكّر أن رجلاً كان يتحدّثُ في برنامجٍ إذاعيٍّ عن قيمةِ التسامح، ثم حين ذُكرِ اسمه تذكّرتُ موقفاً لهذا الرّجل يُقصيه عمّا يتشدّق به من التسامحِ، لقد هاجم من لم يوافقهُ في فكرهِ ومعتقدهِ وظنّ به ظنّاً غير حميد..!! فإذا كان التسامحُ مطلوباً عند غير أتباع العقيدةِ الإسلاميةِ فما بالك بالمسلم.. والقاعدة التي تؤسس لذلك هي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣]، وهي تأتي – سبحان الله ـ بعد النّهي عن الظنِّ والتجسّس والغيبة..!! التسامح إذن ليس شعاراً يُرفع وإنما واقعاً يُمارس مع المخالفين أولاً على نطاقٍ واسع وهذا ينطلق من التوجيه السماوي ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥]، ويؤسفني أن أرى أُناساً يدّعون التسامحَ وهم أغلظُ النّاس قلوباً إن تعرّضوا لما يغضبهم لأنفسهم وليس للحقِّ، ويتّخذون من التسامحِ شعاراً برّاقاً فإذا خالفهم أحدٌ في الرأيِ خرجوا من العباءة الزائفة التي كانوا يتلفحون بها فإذا

بهم على حقيقتهم دون مواربةً ضيّقوا النفوسِ، مستعجلون في التُّهمةِ، متهوّرون في الظّن، وهكذا فلن تعرفَ حقائق الناس إلّا عند التجارب فهي التي تُظهرهم على حقيقتهم..!!

التسامحُ خُلقٌ عظيم لا ينالهُ إلّا عظيم النّفس، واسعُ القلبِ، ذلك الذي يثق بنفسهِ عند الأهواءِ والمغرياتِ، فلا تستفزّه كلمةٌ طائشة، ولا فعلٌ متهوّر، وهو ثابتٌ كالجبلِ الشامخِ، الأصم أمام صغار النفوسِ، وباديي الرأي، وهو عفوٌّ عند قدرتهِ على الانتقامِ، متسامحٌ لما خالف رأيه من الآراءِ.. هكذا ينالُ المرء عظمته، ويعلو شأنه... وهذا ما يجبُ أن يكون عليه المسلم.

قيمة التفكير

تنقضي أعمارُ بعض النّاس وهم متشبِّثون بقناعاتٍ معيَّنة، تحوَّلت في نظرهم إلى ما أسموه "مبدأ"، إنّما قد يكونُ هذا المبدأ ليس ضمنَ السياق الاجتماعي الملتزمِ بالأعرافِ والتقاليدِ، أوليس ضمن الخُلُق الديني الذي نشأ عليه المجتمع..قد يكونُ إذن مساراً شخصيّاً متفرِّداً و..غريباً..!

وحتى لا يُفهم هذا الكلامُ لغيرِ مقصدهِ، أقول: لا ضيرَ أن يكونَ لكلِّ إنسانٍ سيرةٌ متفرِّدة، ومواقف متميِّزة، وسلوكيّات تطبعَ شخصيته بطابع الخصوصيّة، هذا أمرٌ حسن، بل إن حكمةَ خلقه أن يكونَ "مستقلاً".. يقول تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٩٥]، لكننا نتحدَّثُ عن مراجعةِ هذه القناعاتِ التي قد تكون ترسّخت في العقلِ وتراكمت في الضميرِ بفعل فاعل في زمنِ الطفولةِ غير الواعيةِ، ومن ثم نشأت نفسه على هذه القناعة وهي قناعةٌ تستغربها من أناسٍ ربما قد عهدت فيهم الرشد ورجاحةَ العقل، فتبهرك سلوكياتهم في أمرٍ ما، فتراه غير منسجمٍ مع شخصيّاتهم، ولربما لو كشف عن صدورهم لقالوا: إنّها ليست قناعة، وإنّما مجردُ أهواءٍ أو رغباتٍ، لكن دوامهم عليها، وإصرارهم على تكرارها يدفع إلى وصفها بـ "القناعة الشخصية".. وقد لا تستغربها من آخرين لأنّها تنسجم مع السلوك العام في حياتهم، إنّما تستهجنها في نفسك.. ولا تجدُ لها مبرّراً سوى غياب الحكمةِ عنها..

نحنُ إذن نتحدثُ عن قيمة التفكيرِ التي عطّلها الكثيرُ من النّاس في مجتمعاتنا، والتفكير إحدى الركائز التي حثَّ عليها الإسلام، وتكرر الحثُّ عليه في مواضع كثيرة..فقد ورد (الفكر) في القرآن الكريم ١٨ مرة، وورد (العقل) في القرآن الكريم ٤٩ مرة، ووردت مفردة (الألباب) في القرآن الكريم ١٦ مرة، وورد (التدبر) في القرآن الكريم ٤ مرات.. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران:

٣/ ١٩٠]، ويقول: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٦]، وفي سورة آل عمران يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩١] ويقول في سورة الروم: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١].

التفكيرُ.. هو الذي يفتحُ آفاق الرؤيةِ، ويشقُّ الطريقَ نحو النور.. يقول أحد الأصدقاءِ: إنني حينما تلقيتُ رفض الجامعة لقبولي لعدم حصولي على نتيجةٍ مقبولةٍ في اللغةِ الإنجليزية كشرط للقبولِ تذمرت أشدَّ التذمُّر، وضاقت نفسي، وبدأتُ على الفورِ أهرعُ من جامعةٍ لأخرى في مختلف المدنِ البريطانيةِ.. لكنني حين هدأت نفسي تفكَّرتُ أنني لو كنتُ قد حصلتُ على قبولٍ غير مشروطٍ بمستوى اللغةِ فكيف سيكونُ حالي وأنا على ما عليه من الضعف والهشاشةِ في اللغةِ حين أؤدي الاختبارات، أو البحوث أو العرض..فقلتُ لنفسي بعد التفكير: لقد أراد الله لي الخيرَ في عدم حصولي على القبول..!!

هذا ما ينتجُ عنه التفكير.. التفكيرُ هو بثُّ الرسائل الإيجابيةِ للنفسِ لتقويتها، وبعثِ الطاقات الدفينة فيها، تلك الطاقات التي تنغمرُ تحت غبار الرسائل السلبيةِ، والحالات النفسية الانهزاميّة التي يغمرُ بها الإنسانُ نفسه.. وأنّى لإنسانٍ أن يبدأ خطواته الأولى دون تفكير..؟!! لقد أنشئت حضاراتٌ من إبداعات عقولٍ مفكِّرة، وقامت دول كألمانية واليابان بعد حروبٍ عالميةٍ سحقت بشرها وموارِدها، لكنّها لم تسحق عقولها المفكّرة، وفي المقابلِ هُدرت موارد، وخرِّبت طاقات، وضيِّعت قدرات في دولٍ أخرى لأنّها لم تستغل نعمة التفكير..!!

إن الرّغبة في التوحّد في التفكير صفةٌ تسودُ مجتمعاتنا، فالأبُ لا يسعدُ أن يفكّر ابنه بغير تفكيره، ولهذا يكبرُ الابنُ في "جلباب أبيه"..! والزوجُ المحدود الرؤية، لا يرتضي أن تخالف زوجته تفكيره إذ يريدُ زوجةً لا تخالفه في رأي، لأن الخلافَ في رأيه خروجٌ على الطاعةِ، ودلالةٌ على العصيان..!! والمدرس

يضيق صدره لطالبٍ يخالفهُ في حلِّ مسألةٍ، أو إبداءِ رأي..!! والواعظ لا يسرّه أن يسمع رأياً مفكّراً يحاول أن ينظر إلى المسألةِ من جانبٍ آخر..!! وهكذا تستمرُّ الحلقةَ بعدئذ وكأنه مقدّرٌ لها ألا تخرج من فكرِ الرأس الواحد..!! وهذا الحال لا يخرجُ من إطار ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٣]..!!

تستغربُ مثلاً أن تجد بعض الناسِ يصرّون على معالجةِ الخطأ بالخطأ ويمضون على ذلك طوال حياتهم، وتستغربُ من آخرين إنكارَ الآخر وإقصاءِ رأيه، أو معالجةِ الزلّةِ من الآخرِ بخصامٍ مستحكم الحلقاتِ لا يستطيعُ أحدٌ أن يفكَّ مغاليقها التي حشوهم غيظاً وضغينةِ، أو فعلِ سلوكٍ شاذٍّ لا يتناسقُ مع مسارهم العام أو أنَّ هذا السلوك يسبِّب لهم (وربما لآخرين) أذىً نفسيّاً وجسديّاً..! أو لا يستنكفون عن الحماقةِ مهما أدركوا أنّها خرابٌ نفسيٌّ، ودمارٌ عاطفيٌّ لا يحقق لهم احتراماً وتقديراً لدى الآخرين..! أو يدّعون المعرفةِ ويباهون النّاس بعلومهم فلا يوقظهم ما أيقظ غُلام أعرابي عند لقائه بأبي العلاء المعرِّي الشاعر.. فقال له: من الشيخ يكون؟ قال أبو العلاء: أنا أبو العلاء المعرِّي شاعركم المعروف.. فقال الغلام: أهلاً بالشاعر الفَحْل ذي القول الجَزل والرأي الفضل.. أأنت القائل في شعرك:

إنِّي وإن كنتُ الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعهُ الأوائلُ

قال أبو العلاء: نعم أنا القائل ولا فخر.. فقال الغلام: قولٌ طيِّب، وثقةٌ بالنفس واعتداد.. ولكن الأوائل قد وضعوا ثمانية وعشرين حرفاً للهِجاء.. فهل لك أن تزيدَ عليها حرفاً واحداً؟! فسكت أبو العلاء وقال: والله ما سكتُّ في حياتي كمثل ذلك السكوت..!!

ما فعله الغلام هو خلخلةُ الثِّقةِ المفرطةِ عن أبي العلاءِ، وتمزيقُ غشاءِ القناعةِ السميك الذي أحاط به نفسه بأنّه " الشاعرُ المعروف" القادر على الإتيانِ بما قصر عن إتيانه الأوائل..!

إنّما لا يزحزحُ قناعات بعض النّاس مزحزح، لا إدراكهم الخطأ،

ولا اعترافهم في دواخلهم بالعيب الذي يعانوه، ولا بما يسيرون عليه من نقصانٍ ملحوظٍ أو كبرياءٍ واضحٍ، أو خُلُقٍ شاذٍّ بيِّن..أو نصيحةٍ ثمينةٍ تُهدى إليهم، أو مُحرج يرمي لوخز وجه الحياءِ فيهم، يغلقون أسماعهم عن المثلِ القائل " رحم الله امرأ عرف قدر نفسه ".. ولو عرفَ المرء قدر نفسهِ لأنزلها المنزلةَ التي تستحقها، ولتلبّس بالشخصيةِ التي يجب أن يكونها، يقول المفكر الراحل عبد الله العلايلي في واحدة من شعاراته الجميلة: "ليس محافظة التقليد مع الخطأ، وليس خروجاً التصحيح الذي يحقق المعرفة".

إن مراجعةَ الإنسانِ لخصلةٍ أو سلوك، أو فكرةٍ أو "مبدأ" أو خُلقٍ أو رأي هو فضيلةٌ، والفضيلةُ كما يُعلم واقعةٌ بين رذيلتين..!! وهنا يأتي دور العقل الذي يجب أن تُطلق طاقاته في التفكيرِ الذي يولّد قناعات ويرسّخ أخرى ترسيخاً سليماً لا يرتكز على إرث السلف في جميع شأنه وإنما على اجتهاد الخلف.. التفكيرُ وحده هو القادرُ على زحزحةِ القناعات المتلبّدةِ التي أحاطت العقل بفطرياتٍ دبقةٍ لا يسهل إزاحتها إلّا بالاجتهاد في المعرفة، والتخلّي عن كبرياءِ النّفس..!

لقد استفاد الغربُ كأمريكة وبريطانية وألمانية وفرنسة وغيرهم، وبلدان آسيويّةٌ أخرى كاليابان وكورية الجنوبية وهونج كونج وسنغافورة وماليزية من خصيصة التفكير، وأبلى علماؤهم فيها بلاءً حسناً في الكثير الكثيرِ من مناحي الحياةِ والتي بفضلها نحيا نحنُ اليومَ في مجتمعاتنا العربية مرفّهين، مترفين..!! وفي الأصل فإن الموارد الطبيعية التي رفدت نتاجات تفكيرهم، وبثّت فيها دماءُ الحركةِ هي موارد أرضنا التي نمشي عليها..!!

يقول أحد علماء الغرب: "إن حياتك من صنع أفكارك"، ويقول جيمس ألين أحد العلماء البارزين في علم النفس والاجتماع والعلوم الإنسانية: "كل ما حققه الإنسان هو نتيجة مباشرة لأفكاره الخاصة" ويقول: "أنت اليوم حيث أتت بك أفكارك، وستكون غداً حيث أفكارك اليوم". ويقول ميلتون وهو الشاعر الإنجليزي الشهير: "إن عقل الإنسان في مكانه يستطيع أن يجعل الجنة ناراً

والنار جنة". ويقول كلاودي بريستول " :Cloudy Pristolالأفكار هي المصدر الحقيقي لكلِّ الثروات، والنجاحات، والمكتسبات الماديَّةِ، وهي مصدر المكتشفات والاختراعات والإنجازات العظيمة".

قال الخليفة عمر بن عبد العزيز: "التفكير في نعم الله عز وجل من أفضل العبادات" قال حكيم: "التفكير سلاح الفارس والأفكار أسوار المدينة".

* * *

ذات يومٍ استشارني أحد الشباب في زواجه، وحين طلبتُ منه أن نجلس سويّاً كي نضع تصوّراً ماليّاً مستقبليّاً، فأخذ يتسوّف حتى انزلق مني لغير عودةٍ حتى سمعتُ أنّه تزوّج ثم وقع في ورطاتٍ ماليةٍ عديدة..!! لربما لو أنصتَ هذا الشاب لصوت العقل وفكّر به لربما كان سيوقيه شرّ تلك الورطات المالية التي أوقعته رغباته فيها..

وشابٌّ آخر يعرض عليّ الرأي في أمرين احتار في أيهما الصواب: هل يتزوج أو يكملُ تعليمه..؟! وأعلمُ أنني لو رجّحتُ الآخر لأسعد نفسه، لكنه لا يسعدني ولا يُسعد حاله فيما بعد، فقلت له: أكمل تعليمك لأنّك ستكونُ في وضعٍ مهنيٍّ أفضل مما سيتيح لك مردوداً مالياً أفضل تستطيع به تأمين حياة أسريّة مريحة بعد ذلك..! لكن معظم الشباب لا يحبّذون التفكيرِ المنتسب للعقل لا النفس وشهواتها.. فالتفكيرِ في نظرهم معيق..!

لو استطاعت مدارسنا أن تعلّم الطلاب والطالبات كيف يفكّرون، كيف يستطيعون أن يتدبّروا في شؤون حياتهم، وحياة الآخرين.. لو استطاعت ذلك لخرّجت أجيالاً مفكّرة، قادرة على التأويل والتفسيرِ.. ولو استطاع المجتمع في بقية مؤسّساته الدينية وجامعاته وجمعيّاته أن يدفع النّاس إلى التفكير لا " التفكير بالإنابة" لاستطاع الكثيرون أن "يستفتوا قلبهم وإن أفتوهم النّاس.." بقدرةٍ بارعةٍ، وأسلوب منهجيٍّ سليم.

التفكيرُ الإيجابيُّ في الكونِ والوجود والذات الإنسانية وسائر الشؤون هو

الذي يستشرف أفقَ الحلول المشرقةِ، ويفتح مغاليق الأبواب التي استعصت على الفتح، يقول براين تريسي Brian Tracy: الأفكار الإيجابية هي التي تعزِّز الحياة، تملأ نفسك بالثقةِ والقوّة، وهي لا تمدّك بالدافعية فحسب بل إنّ لها آثاراً بنّاءة على شخصيتك، وصحتك، ومستويات طاقتك، وإبداعاتك. بقدرِ ما تكون متفائلاً، بقدرِ ما تكون سعيداً في كلِّ جانبٍ من جوانب حياتك..

قيمة الثقة

الثقة قيمة أساسية من قيم الشخصيةِ الإنسانية التي تسعى إلى المشاركة الاجتماعية الفاعلة، فالمجتمعات السليمة لا يمكن لها أن تقوم أو تتكون وتتطور دون انتشار الثقة بين أفرادها، فإذا قويت الثقة فيما بينهم قوية أواصر علاقاتهم، ومن ثم تطورت مصالحهم، وتقدمت أسباب معيشتهم، فلا تحاسد ولا تباغض ولا ضغائن ولا خيانات ولا كذب.. إنّما تسودُ الألفة بينهم والصدق والأمانة والرّشد وتحري الحقيقة قبل الانجرار إلى الأحكام المتهوّرة التي تؤدي إلى نتائج غير محمودة في نهاية المطاف..

في مجتمعاتنا العربية غيابٌ ملاحظٌ لبناءِ الثقةِ وغرسها في الأبناءِ، فالابن والابنة لا يتعلمان معنى الثقةِ بالنفس لأنّهما لا يشاركان في أحاديث الوالدين ولا يُستشاران فيما يخص أمراً من أمور الأسرة، وإنّما الرأي السائد هو في أنّهما بعيدان عن العقل أو أن السلامة مأثرةٌ لهما، وخير لهما أن يكونا صامتين، يصغيان للحديث بدل أن يطلقا لسانيهما في الحديث فيهرفان بما لا يعرفان..!! رؤيةٌ سائدةٌ تمسّك بها حتى الشباب من الأجيال الحاضرة الذين نقلوا الفكرة التي ترعرعوا عليها إلى أبنائهم، فأنّى لهؤلاء الأبناءِ أن يشعروا بالثقةِ وهم يواجهون المجتمع والواقع والحياة..

إن من الأمراض النفسيّة المتولّدة عن نقص الثقةِ في مجتمعاتنا الرهاب الاجتماعي، وهو الخوف من مواجهةِ النّاس أو التحدث إليهم أو إبداء الرأي أمامهم.. تقول إحدى البروفيسورات في جامعةٍ عربية: إن لديَّ اثنين من الطلاب متميِّزين جداً في دراستيهما، يحرزان الدرجات العليا في الاختبارات التحريرية إلّا أنّهما لا يستطيعان أبداً الوقوف أمام زملائهما؛ إذ لا يقويان حتى على الارتكاز بقوائمهما..!!

يقول أحد الأبناءِ إن والده كان يقول له: إن رأيك في كفِّ يدك، أمّأ رأيي أنا فبعيد المدى..!! فأيةُ ثقةٍ بالنفس سيتربى عليها هذا الابن، الذي لا يجد لرأيه متسعاً ولا متنفّساً.. سيولّد الكبتُ فيه الرهابَ والخوف فلا يجرؤ على التحادث مع الآخرين، ولا يقوى على جدالهم أو نقاشهم..

وإذا كان هذا شأن البيوت التي تسمعُ فيها رأي الأمّهات التقليديات بأنَّك لا يجب أن تلوم الابن أو البنت لأنّهما ليس لهما عقل..!! فإن حال المدارس عندنا ليس بالحال الذي يغرسُ الثقةَ ويعيدها كقيمةٍ مستلبةٍ من الطالب/الابن..! فالطالبُ في معظمِ الأحيان محروم من النّقاش، محروم من إبداءِ الرأي، ليس له سوى التخاطب مع الكرّاسةِ الجامدةِ أو النصوص المطبوعة التي عليه أن يحفظَ متنها ثم يفرغه في الامتحان..!!

إنّك لتجد الطالب وقد أنهى مرحلة الدراسة العامة في المدرسة وقد اقترب من العشرين عاماً وكأنّه صبيٌّ صغير ينقصه الكثير مما يقوِّي عوده، ويكوّن شخصيته، لا يفقه من شؤون الحياة الكثير إلّا ما اجتهد هو في تعلمه، واكتسابهِ..

وإننا لنذكر في هذا المقام قصّة الصبي الذي وفد مع قومه إلى سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، فوقف ممثلاً قومه ليتحدث إلى أمير المؤمنين، وحين طلب منه سيدنا عمر أن يقدّم من هو أكبر منه ليتحدث - من باب تقدير الكبير لا من التحقير للصغير - قال له الصبي: إنّما المرءُ بأصغريه؛ قلبه ولسانه!!

إن أساس الثقةِ وعمادها هو الالتزام بالدّين واتّباعه، لأن تابع الدين هو تابع لشريعةِ الله، وهي الشريعةُ التي تغرس الثقة في النفس، ثقة في الرأي، ثقة في القرار، ثقة في النظرةِ إلى الوجود، ثقة في التعامل مع الآخرين من منطلقات لا تشوبها النوايا السيئةِ ولا تطغى عليها المصالح الآنية الدنيوية المحدودة..!!

في إحدى المشاركات التي طُلب مني الحديث فيها عن التأليف المسرحي ضمن أسبوع ثقافي، وتزامنت مع آخر أيام الأسبوع، لم أتحدث بداية عن موضوع المشاركة وإنما تحدّثت عن أهميةِ كسر الحواجز النفسيّة، وإذابة عقدة

الرهاب الاجتماعي والخوف من مواجهة الآخرين مع النفس، وأصررت عليهم أنني يجب أن أسمع أصواتهم.. وكيف يمكنُ لممثلٍ يهوى الوقوف في الخشبة ألّا يكون واثقاً من نفسهِ..! الثقة في المسرحِ أساس الأداءِ ومحفّز الإبداع.. وحين خرجنا جاءني أحد المشاركين فقال لي: إنني أسمع لأول مرّة أصواتاً لأناسٍ لم يتحدّثوا طوال هذا الأسبوع..!!

وظللت أكرّر هذا الأمر في كلّ مرّة أتحدثُ فيها مع مجموعةٍ غريبة من النّاس.. ولا شكّ أن هذا الأسلوب هو الطّاغي في الفرقة المسرحية التي أرأسها إذ تعوّد كل فرد فيها على إبداءِ رأيه، حتى أصبح كل واحد منهم يقف دون أي خالجة خوفٍ من الناس.. الأمر الذي جعل أحد أبناء الفرقة يفوق الإنجليز في المملكةِ المتحدة في مسابقتين من مسابقات المدرسةِ الثانوية، إذ كان يقدّم عرضه بثقةٍ تامّة على عكس أقرانه الإنجليز..!!

لقد كان لضعف الثقة بالنفس انعكاس خطير، ونتائج وخيمة على الكثيرين من أبناءِ مجتمعاتنا، لقد شعر البعض بأنه لا يستطيع فعل شيء إلا بمساعدة الآخرين، قاطعاً بذلك الطريق أمام إبداعه، وطاقاته ومساعداً على طمس مواهبه وقدراته.. واتهم البعض آخرين بأنّهم وراء فشلهم وهو ما نتج عنه ثقافة المؤامرة والتواطؤ في المجتمعات العربية وإلقاء التهمةِ على الآخر في كل مصيبة، حتى أصبح الآخر شمّاعةً يعلّق عليها العرب أخطاءهم..!! وأصبح اللجوء إلى اتهام الغير بأنّه وراء الفشل أمراً سهلاً لا يحتاجُ إلى كبير عناء. وهكذا تربى الأبناء.. حتى إن أحدهم لا يمكنُ أن يعلن مسؤوليته عن (تجربةٍ) إذ لا نحبّذ قول (فشل) إلّا أن نعقبها بـ (لكن) حيث تأتي التهمة بعدها إلى مسببات أخرى..!!

الثقةُ بالنفس تعنى الإعلان عن أيّة تجربةٍ بغض النظرِ عن نتائجها، فالإسلامُ من حكمته جعل أجراً للمجتهد غير المصيب..!! مكافأةً له على جهده، فانظر إلى المؤسسات العملية هل تشعرُ بأجواء الثقة سائدةً فيها..؟! أخالك تنفي ذلك! هذا لأننا نرى الحال الذي تنعدم فيه الثقة بين المدير والموظّف، والرئيس والمرؤوس.. حتى أصبح الموظف غير مكترث بتطوير أدائه لأنّ مديره يريد

العمل على طريقةٍ محدّدة لا تخالف الروتين الذي نشأ عليه.. حتى إن الكثير مما جاء به الفكر العملي الحديث كأساس من أسس إدارة الموارد البشرية مثل (التفويض delegation) و(التمكين empowerment) لا يكاد لها وجود في واقعنا العملي مما ساهم في عدم استعادة الثقةِ من النفوس التي سُلبت منها..!!

وانعدام الثقةِ ساد بين أفراد المجتمعات كنتيجةٍ لاضمحلالها من نفس الفرد مما انعكس على تفاعله مع الجماعة، فأصبح إمّا لا يثق فيهم أو إنّه يخون ثقتهم فيه..!! حتى أثر ذلك على تعاملات الناس فيما بينهم، فأين هي ثقة الإقراض الشخصي..! كيف ذابت، وقد كانت كفيلةً بمنع الناس عن الاقتراض بالربا..؟! إنها الثقة التي ضاعت بين الناس وفقدت فلم يعد للدائن ثقةٌ في المدين، ثقة ضاعت حينما توقف رجل في صحراء ليروي مسافراً كاد العطش أن يقتله، وحين شرب وارتوى قفز على حصان المنقذ صاحب المروءة فتركه بدلاً عنه في الصحراء..!!

في حين أن التعاملات في بلد غربي كالمملكة المتحدة مثلاً يتم وفق الثقة، إذ ينجز المرء الكثير من الشؤون بالثقة... حتى إننا لنستغرب من الثقة التي لا يملك المرءُ الصادق لها إلّا كل احترام وتقدير وتعاملٍ بالشفافية والمصداقية؛ لأنّها تشعره بأنّه فرد ملتزمٌ بالقيم الحميدة..!

* * *

أجملُ ما يثيرُ إعجابي في المرءِ ثبات خطاهُ، فأيّما أمر يمضي فيه فعلى بصيرةٍ، وأيّما مكان يكونُ فيه ففي النُّورِ ذاك..! وأيّما رأي يقطعُه فهو المدروس المتفحّص فيه.. قامتهُ شامخةٌ، ورأسهُ سامق، ووجهُ بهاء، وقلبهُ نقاء.. فهو الكلماتُ البيِّنة، في الكتابِ الناصعِ البياض، لا تشوبُ حياتهُ شائبة، ولا تكدِّر صفحاتها عيوب مخلِّة، ولا سقطاتٍ مذلَّةْ، وهو بين النّاس رفيع لأنَّه يحيا دون مخافةٍ لإفشاءِ سرٍّ، أو كشفِ خطيئة..

لقد شهدتُ بعض النّاس من أصحاب الخطا العاثرة، عاثرة لأنهم أثقلوها بالأسرارِ والغموضِ والخطايا، فخافوا أن يكشفَ سرّهم، وتعلنَ خباياهم، وهم

لا يعيشون إلّا في صراعٍ مع القيم، صراعٍ مع الخوفِ من الإفشاءِ، مع إبقاءِ جذوة الشهوةِ ملتهبة في الخفاء.. فحياتهم كأنّها ورقٌ إن سقط عليه مطرُ الفضيحةِ تبلَّل وذاب..!! يجاهدون كي لا تعرف بواطنهم، أو تكشف أقنعتهم.. فهم في الظاهر يعيشون بقناعٍ، وفي الباطن بقناعٍ آخر..إنّهم باختصار يعيشون ألماً داخلياً عميقاً.. وهم لو أرادوا لقلبوا الموازينَ لصالحهم.. لو أرادوا النور لمشوا فيه وهم واثقو الخطو، لا يخشون من ألسنةِ النّاس ولا من عيونهم..إذ يمكنهم أن ينفضوا الوحل عن نفوسهم..!!

إن ثبات الخطا من سماتِ الإنسانِ النيِّر البصيرةِ، العاقلِ الراشدِ الذي يعلم أن لا سرَّ له إن كشف يقوده للخجل والنقيصةِ،الإنسانُ الذي يمضي على هدى من أمرهِ، ووضوحٍ من شأنهِ، فليس له ما يخفيهِ سوى الشأن الذي يوجبه الأدب، وتفرضه الأخلاق، وتقتضيه الشرائع، وتنصُّ عليه القوانين، أمّا غير ذلك فهو ممن يقال عنهم أصحاب القلوب البيضاءِ، وممن يُنعتون بـ "الكتب المفتوحة".. لا ترى في أعينهمُ الغموض الذي تقرأه في أصحاب الخطا العاثرةِ، ولا تشاهدُ في قسماتهم ما يدلّك على غير ما يعبِّرون عنه، ولا تستقرأ في أفعالهم نوايا غير حميدة، فإن تقوّل فيهم قائل مغرض واجهوه بكلِّ ثقةٍ وطالبوه بالدّليل غير هيّابين لفضيحةٍ، ولا كشف مستورٍ مُعيب.. فهم للحق أهلٌ.. وإن كادَ لهم مكَيد كانت نفوسهم أبيّةً، وعقولهم راجحة لا تفقد رشدها، فخرجوا من المحنةِ التي حيكت لهم أقوياء أعزّاء.. وإن امتحنهم صديقٌ مقرّبٌ في حالٍ كانوا هم الأوفياءُ المخلصون.. وإن شمتَ بهم شامت كانوا هم الشّامخون، الأعزّاء، وإن جادلهم جاهل أعرضوا عنه وهم أنقياء الأثوابِ، طاهرو النفوس، سليمو الخواطر.. لا ينقصُ منهم منقص، ولا يعيبهم ذام إلّا كما قال المتنبي:

وإذا أتتك مذمّتي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأني كاملُ

في الجانبِ الآخر، أولئك الذين أوقعوا أنفسهم في الشبهاتِ، وفي شوائبِ الأمورِ فلم يستطيعوا أن يعيشوا كما يعيش أصحاب القامات الشامخة، والخطا الواثقة، فهم في خوفٍ من الخزي، ورعبٍ من الفضيحةِ، وهؤلاءِ رهينو رغباتهم

وشهواتهم لا يستطيعون أن يُخرجوا أنفسهم من عوالم الظلمة التي يعيشونها إلّا أن يحبسوا النفس الأمّارة بالسوءِ، ويملؤوا أفئدتهم بالسنّاءِ المشرق للحياة، ورئاتهم بالهواءِ العليل للوجود فيتنفسون الصعداء دون همٍّ ولا خشيةٍ إلا من خالقهم القدير..

أصحابُ الخطا الواثقة هم المستمتعون بالحياةِ في نظري، لأنّهم تمسكوا بحكمة السلامة في العيش الكريم الذي لا تعبثُ به وطاويط الظلمةِ السادرةِ.. لقد صدق الشاعر إبراهيم ناجي وأبدع حين قال:

واثق الخطوة يمشي ملكاً ظالم الحسن شهي الكبرياء
عبق السحر كأنفاس الربى ساهم الطرف كأحلام المساء

قيمة القرار

حياتنا مبنيَّةٌ على القرارات، فهي مسلسل مستمر من القرارات التي نتخذها كلَّ يومٍ في سبيل تحقيق مصالحنا أو دفع المكارهِ عنّا أو عن غيرنا.. هل ترانا التفتنا إلى هذه الحقيقة؟! حقيقة أننا في كلِّ التفاتاتنا وحركاتنا وسكناتنا وكلامنا إنما نتّخذُ قرارات..؟!! إن لم ندرك هذه الحقيقةِ فإن غياباً للنتائج لا شكَّ حادث.. وهذا يعبِّر عن خللٍ نمارسهُ دون شعور..!

الكثيرون يعوزهم اتخاذ القرارات السليمة، فمنهم من يُطلق لسانه دون تفكير، ومنهم من يشرعُ في النظرِ متجاوزاً حدَّ الفضولِ، ومنهم من يتخذ هيئةً لا تليقُ به، أو لا تتناسق مع أجزائها الأخرى، وهكذا.. قد يكونُ ذلك إغفالٌ عن قراراتٍ صغيرة يسهلُ تصحيحها، ولكنّها مقدّمات لقراراتٍ أكبر إمّا يصعب التراجع عنها، أو التنصُّل منها، أو عدم القدرة على الهروب من عواقبها..!! هؤلاءِ إمّا أن يكونوا غير مكترثين للعواقبِ والجزاءات، وإمّا أنّهم يعانون من اضطرابٍ داخليٍّ يشوِّش عليهم عملية التفكير الصحيح قبل اتّخاذ القرار، أو إنهم اتبعوا شهواتهم، أو غافلون.

يرتبط القرارُ الأول للإنسانِ في مستهلِّ يومهِ، في أيّةِ ساعةٍ يقرِّر مسبقاً الاستيقاظ من نومه، وماذا سيفعل بعدها، ومتى سيتوجّه لمؤسسة عملهِ أو دراستهِ أو تدريبه، وماذا سينجز اليومَ، وكيف سينجزه، وهكذا تتوالى القرارات في اليوم الواحدِ، قرارات مسبقة، وأخرى رهينة اللّحظةِ، لكنّها لا بد من أنها تبني شيئاً، أو تهدمُ آخر..!!

في اعتقادي المتواضع أن أوّل قرار على الأرض بعد خلقها هو خلافةُ الإنسانِ فيها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[البقرة: ٢/ ٣٠]، ويتبيَّنُ هنا أن المقرِّر وهو الله سبحانه وتعالى عليمٌ بقرارِ الخلافةِ، ومن ثم فإن العلمَ بالقرارِ - ولا يقاسُ علمُ البشر بعلمِ الخالقِ إلّا على سبيل التمثل والاقتداء - هو أول الخطوات.. لكن ولأن علم الإنسانِ غافلٌ أو مغفلٌ عن كثير من عواقبِ قراره فإنَّ عليه أن يستشير.. والشورى ليست عمليَّةً متروكةً لخيارِ الإنسانِ بل هي أمر أصيلُ الفكرةِ، وخطوة أساسيَّةٌ لاتخاذ القرار ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩]. ثم تأتي المرحلة الأخيرة الحاسمة لاتخاذ القرار ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩]، وهي مرحلةٌ بعد الشورى.. فإذا كان هذا الأمرُ والتّوجيهِ للنبي الموحى إليه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٥٣/ ٣-٤]، فما هو وضعُ الإنسانِ المستندِ إلى علمٍ ناقصٍ، وإدراكٍ غير محيط؟! ومع ذلك فإنَّه في الحقيقةِ يستطيعُ تحقيق القرار بالوسائل المتاحةِ له والتي أوّلها العقل - تحديد المشكلةِ، تتبع جذورها، التفكير - ثانيها: الشورى - التقييم، دراسة البدائل، الحلول التفضيلية، العواقب- ثالثها: اتخاذ القرار - طريقة اتخاذه، الوقت، المكان - رابعها: متابعةُ القرار - مدى فاعليتهِ، التأكّد من تحقيق الأهدافِ التي اتخذت له ـ..

أين هذا كلّه عند كثيرٍ من النّاس؟!. فالطّلاقُ وهو من أصعبِ القراراتِ التي يتخذها الزوجُ، وهو أبغضُ الحلال عند الله، يتلاعبُ به كثير من النّاس..!! والغيبةُ والنّميمةُ وانتهاك أعراضِ النّاس والذمُّ والقدحُ، و التّسفيه وغيرها قرارات لا يجني أصحابها سوى المصائبِ من ورائها..!! "..... وهل يكب الناس على وجوههم، أو على مناخرهم، في النار إلا حصائد ألسنتهم ". (حديث شريف)، فكلُّ كلمةٍ هي قرار، فهل يُدركُ ذلك كلُّ من تكلّم؟!

لقد مررتُ بأشخاص اتخذوا قراراتٍ غير موفقة، فهذا أحدهم من إحدى دول الخليج العربي يحصلُ على رخصة عام واحدٍ من عملهِ لمواصلةِ دراسته، ثم يتّفق مع جامعةٍ غربيةٍ لدراسة تخصّص لمدّة عامين، ويصطحبُ معه أهلهُ إلى الخارج، وهناك يتخذ سلسلةَ قراراتٍ أخرى غير مدروسة: إنفاق الأموال الطائلة لإصلاح وطلاء البيت الذي استأجره، ورحلاتٌ طويلة في مدن مختلفة، وغيابٌ

متكرّر لأبنائه من المدارس، ثم بعد عامٍ يهاتفه مسؤوله ويطلبُ منه العودة ولم يستجب لتوسلاته بأن عليه أن يكمل عاماً آخر للحصول على مؤهّل دراسي، لكن المسؤول يذكّره بالموافقةِ على عام واحد فقط، وهكذا يعود بخفي حنين..!! وذاك الذي مرّت عليه سنواتٌ الآن وهو يسترجئ مطلّقته أن تعودَ إليه بعد أن هجرته هجراناً لا رجعة فيه حين اكتشفت خيانتهُ لها، وهو نادمٌ ندامةَ الكسعيِّ بعد أن طلق زوجته نوار..!! وذاك الذي يقرّر ردَّ كل طالبِ زواجٍ من ابنتهِ ليكونَ راتبها خالصاً له..!! وذاك الذي يقرّر حبس أموالهِ الطائلة عن أسرتهِ حتى يصبح موتهُ بالنسبةِ إلى بعضهم أملاً يُرتجى، وعاقبةً مفرحة..!! وتلك التي تقرّر أن تلهث وراء شهواتها فتتبع سبيل الشيطانِ كي تمرّغ شرفها وسمعة أهلها في الحضيض..! وذلك الذي لا يصدرُ منه إلّا قرار ربا المالِ أو الشكايةِ على فقيرٍ اشترى أرضاً، أو آخر أقامَ حدوداً لها.. وهو على ما يمرُّ عليه من الإنذارات الإلهيةِ بالأمراضِ لا يعودُ إلى رشدهِ، ولا ينتبهُ إلى عواقبَ قراراتهِ المشينة..! وذاك الذي يقرّر الانتحار لمشكلةٍ ماليّةٍ أو لخلافٍ مع زوجته، فيغلق عقلهُ عن التفكير، وأذنه عن سماع المشورةِ، وعينيه عن تعدّد الطرق في الحياةِ، ولا يرى سوى الحبل المعلّق في المروحة..!!

هؤلاءِ جميعاً لم يفكّروا فيما يقدمون عليه قبل اتخاذهم القرار، لم يفكروا في القرارات أكانت صغيرة أم كبيرة.. ما هو أثرها في حياتهم أو حياةِ الناس المرتبطين بهم.. ولا يفهم من هذا أن القرار الفاشل ليس هو ذاتهُ معلّماً.. يروي ستيفن كوفي أنّه سأل رجل أعمالٍ كيف نجح في مشاريعه التجارية، فأجابه بكلمتين: قرارات فاشلة..! فالتّعلم من الخطأ أمرٌ حسن، والاعتراف بالحقِّ فضيلة ـ كما يقال - والحقُّ هذا قد يكون هو الخطأ عينه..! لكن بعض القراراتِ تحتاجُ إلى تفكير، ومشورة ودراسة، ولن يضمنَ الإنسان النجاح لأي قرارٍ تحقّقت له الأسس السليمة، ولكنّه يكون قد بذل جهداً فيه، وتمعّن، ودرس، وشاور أهل الثقةِ، وهذا ما يملأ نفسه بالاطمئنان، ويعزّيه إن كانت النتائج غير تلك المأمولة..!

على المرءِ أن يعرف أن حياتهُ مبنيّةٌ على سلسلةِ قرارات، لسانه يُصدرُ قراراً، وعينهُ تصدر قراراً آخر، وأذنه، ورجله ويدهُ، وعقله.. كلُّ شيءٍ فيه يصدرُ قراراً.. فإن لم يكن قراراً قائماً على أساس مصلحةٍ فإن نتائجه غير مأمونة، ولهذا عليهِ أن يُدرك ما هو قراره القادم وليمطر نفسه بالأسئلةِ المتعلقة بالقرار، ثم ليستشر غيره، حتى يصل إلى قناعةٍ نفسيّة لاتخاذ القرار حينها يتوكّل على الله، وينفّذ.. ولن تكون هذه النهاية.. بل ويتابع التنفيذ ليضمن تحقق النتائج، والمراجعة، ويعودُ إلى الأصل، ويعدّل..وهكذا حياة متصلة كلّها قرارات..!

القرارُ كلمة بسيطةٌ من أربعة أحرف (من مصدر حرفين) لكنّ نتائجها آلاف الأحرف..!! وهي من أهمّ الكلمات التي يرتبطُ بها الإنسان، ويلتصق بها مصيره، ويقيّم بها، وتسيرُ بها شؤونه، ويجازى أو يعاقبُ على اتخاذها..! هي كلمةٌ غاية في الأهميّةِ على المرءِ أن يوليها عنايةً خاصّة، ويمنحها اهتماماً لا نظير له..! فكم من أناسٍ كانت قراراتهم أساس دمارهم وهلاكهم، وكم من آخرين كانت قراراتهم أساس نجاحهم وسعادتهم..

حياتنا مليئةٌ بالقرارات، بل إن كلَّ لحظةٍ أو فعل يقعُ منّا بناءاً على قرار؛ كلّ نظرة عين، كل خطوة قدم، كلّ حركة لسانٍ، كلّ تلويحة يدٍ قرارات، كلُّ غمزةٍ، كلُّ تأشيرةٍ، كلُّ تلميح..! لأن المرء محكوم بعقل يتحرّك بناءً على مفاهيمه واعتقاداته وتصوراته، فإذا طغى على هذا العقلِ طاغٍ كهوى النفس، ونوازع العاطفة، وهيجان الأعصاب، وحمية العصبيّة، ونعرة الجاهليّةِ، وشعور العزّةِ بالإثم، والأفكار المدمّرةِ فإن القرار سيكونُ محكوماً بالفشلِ، فلا تقعُ المصائب، ولا تحدثُ المشاكل، ولا يندم الناس، إلّا بسبب قرارات متعجّلةِ اتخذوها..!

لكن كثيراً من النّاس لا يولون القرار أهميّة..؟! وما هي الأهمية التي يجب أن يولونها القرار؟! أوليسوا أحراراً فيما يقرّرون..؟! هكذا يعتقدُ أحد النّاس أن حريّة المرء تكمنُ في قدرته على اتخاذ القرار بنفسه..! وهذا صحيحٌ إلى حدٍّ ما، ولكن لأن هذا الشاب يرى أن عليه أن لا يستشير أحداً لأمرٍ يتعلّقُ به، وهذا

أيضاً صحيح، ولكن أيضاً إلى حدٍّ ما..! إنّما بناء القرار على استشارة الثقاة أمر هام جداً، فهذا الشاب قد وقع في أمورٍ كانت عواقبها وخيمةً عليه لأنّه لم يستشرْ أحداً..! وحينما "وقع الفأس في الرأس" طلب النّجدةَ من المقرّبين، صارخاً بندم كما فعل الكسعيّ قائلاً قول الفرزدق:

ندمت ندامة الكسعي لمّا غدت مني مطلّقةً نوارُ

وحينها هل "يصلح العطّار ما أفسدَ الدّهر"..؟! فماذا بوسعِ المقربين أن يفعلوا وقد "تورّط" في كثيرٍ من الأمورِ المتداخلةِ، بفعلِ قرارٍ متهوّرٍ، أبى من قبل أن يستشير له أحداً..؟! هذا الشاب وغيره كثيرون في مجتمعاتنا..أولئك الذين يظّنون أن اتخاذ القرار أيّاً كان من (علامات الرّجولةِ)..! ومن سماتِ البلوغِ والرُّشدِ..! نعم إنّه لكذلك، ولكن إن بُني على أساس، فإذا كان الله يؤمرُ نبيّه الكريم، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، أن يستشير الصحابة رضوان الله عليهم في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٩]، فما بالك بالبشر العاديين مثله..؟!

لقد تهوّر الكثيرون في اتخاذ قرارات أودت بهم إلى مصائب وتعقيدات لم يستطيعوا الخروج منها، بل ظل بعضهم يعاني طوال حياته من جرّاء اتخاذ قرار واحد، اتخذه في لحظةٍ متهوّرةٍ..! فأخذ يجترُّ مصائبه طوال حياته..! فالمتنبي حين اتخّذ قراره بهجاءِ رجل اسمه ضبّة فقال قصيدته الفاحشة فيه، كانت هذه القصيدة سبباً في مقتله بعد أن ترصّد له خالُ ضبّة حتى أرداه قتيلاً..! وكم من أرداه لسانهُ: "وهل يكبُّ الناس على وجوههم في النّار إلا حصائد ألسنتهم"..؟! حديث شريف

من النّاس من اتخذ قراراً بالاستقالةِ من عملهِ لأنّ مديره أحمق، ومسؤوله حقود، ملأ حياته بالنّكد، لكنّ لم يفكّر أين ستكون خطوته اللاحقة فلم يستمع لنصيحة المتنبي القائل:

ومن نكدِ الدنيا على المرء أن يرى عدواً له ما من صداقته بدُّ..!

فخيرٌ له أن "يصبر على مجنونه" فلا يصبحَ هو ذاته مجنوناً يبحثُ في الشارعِ

عن مصيرٍ مجهول..! قلتُ في هذا شعراً:

وجـنـونٌ أن أبـكـي زمـنـاً كـانـت تـمـلُـكـهُ يـمـنـاي
وأصـرّخُ في وسطِ الشارع: ضاعت أيامي ومُناي..!!

وبعض النّاس يتّخذون قرارات فرديّة دون أن يدركوا أن لديهم شركاءَ في حياتهم كالزوجةِ والأبناء، حتى المثل الدارجِ الأعوج "المرأة شاورها وخالفها" لم يعملوا به على اعوجاجه..! فهم لم يستشيروا أحداً، بل ظنّوا أن رجولتهم تخوّلهم اتخاذ قرارات تقودهم فيما بعد إلى الفقرِ المدقع هم ومن يعيلون..! لم يجنوا على أنفسهم وحسب، بل جنوا على أسر بحالها، أسر كانت تجدُ فيهم الأمل في السعادة، والطريق إلى النجاح، والقدوة في الحياة فإذا بهذا الأملِ وهذا الطريق وتلك القدوة تقرّر دون استشارة في أمرٍ ينسف كل ما بَنت من بناء، وتهدم كل ما رفعت من أركان..! وإنني كثيراً ما أقول لأيِّ شاب يخبرني بزواجه: انتبه فقد كنت تتخذ قراراً يخصّك، أمّا الآن فيخصّ اثنين وبعد أشهرٍ سيخصُّ ثلاثة وهكذا.. فتمعّن في قرارك، وتأملّ وفكر وتأنّى فيه، فربّ قرارٍ رفعك، وربَّ آخر أرداك..!

إن صناعة القرار من أهمِّ سمات الشخصية، فإذا كان المرءُ هادئاً في اتخاذه القرار، دارساً له، محيطاً بجوانبه، متفحّصاً لأسبابه، سابراً لنتائجه، فطناً لعواقبه، متصوِّراً لنتائجهِ، لم يستغن فيه عن الاستشارة، حتى في الأمور الخاصّةِ جداً يستطيع الاستشارةَ فيها، بطرقٍ مختلفة عن طريق الوسائل التقنية الحديثة التي لا يعرف صاحبها، ولا يُكشف عنه، ويتم التواصل غير المباشرِ معه، أو بالكنايةِ أو التلويح، أو بالقراءة حول أحوالٍ مشابهة.. إن من يفعل ذلك فإنّه حريٌّ أن يقال عن شخصيته بأنّها ناضجة، راشدة. أمّا من يتعجّل في القرار، ويتهوّرُ فيه، ويرى أن رجولته تملي عليه عدم استشارة أحد فإن شخصيّة هذا أو هذه مهزوزة، غير ناضجة، متهوّرة..!

وما سبَّب ضياع آلية صنع القرار في بيوتنا هو عدم وجودها في البيوت، وفي المؤسسات المختلفة..! فالبيوت التي تغيبُ عنها الاستشارة، والبناء الجماعي

للقرار هي بيوت خربة، لا تنتجُ سوى أبناء غير قادرين على صنع القرار في شؤون حياتهم وهذه كثيرة..! والبيوت التي جعلت الاستشارة قاعدة، وبناء القرار عمليّة مشاركة جماعية، هي بيوت ذات أساسٍ متين لا يُخشى على أبنائها من مواجهة الحياةِ لأنّ لديهم الأدوات اللازمة التي تهيّئهم للتعامل مع كلِّ حالةٍ من أحوالها.. وهذه قليلة..! والأخطاءُ واردة دائماً حتى مع الاجتهاد، ولكنَّ المجتهد يُثاب، وإن لم يصب "**من اجتهد وأصاب له أجران، ومن اجتهد وأخطأ له أجر**" حديث شريف. إنّما نعني القرارات التي لا يُجتهدُ فيها، ولا يستشار لها من قبلِ أصحابها.. أولئك الذين جرّوا حياتهم وحياةَ غيرهم إلى مهالك ليس لها قرار، فحصدوا الندامةَ. ولكن "ولات ساعةَ مندمِ"..!

* * *

للنوايا تأثير وفاعليةٌ في صنع القرار، هذا غيرُ القيم والاعتقاداتِ والأفكار، فالنوايا هي التي تنحو به سلباً أو إيجاباً بحسبها..! فتأثّرت قراراتٌ لا تُحصى بالنوايا، ولهذا أخذ النبي ﷺ النوايا مأخذ الاعتبار فقال: "**من اجتهد وأصاب له أجران، ومن اجتهد وأخطأ له أجر**" ولذلك فالنوايا هي مؤسّسة للقرار، ومؤثّرةٌ فيه.

ولقد يبدو ذلك في كثيرٍ من الأمثلةِ التي نشهدها في الحياةِ، فبعضُ النّاسِ أصحابُ النوايا الحسنة ما إن يعرضُ عليهم أمر لا بد من قرار فيه، تجدهم ينحون مباشرة إلى الجانبِ الإيجابي، فيجتهدون في تحضير وإعداد ما يدعم اتخاذ قرار إيجابي، أمّا ذوو النوايا السيّئة فإنّهم لمجرّد أن يعرض عليهم الأمر الذي لا يتوافق مع نواياهم الفاسدة ولا تطيبُ له قلوبهم الحاقدة فإنهم سيظهرون على الفور علامات الرفض، وإشارات التعقيد، وسيبادرون بتحضيرِ كل إثباتٍ، وتكييف كلّ قانونٍ، وتفسيرِ كلّ بندٍ فيه ليوائم اتخاذ قرار سلبي..!! يفعلون ذلك دون أن يتمهّلوا في معرفة الحقائق المحيطةِ به، والنتائج المترتبةِ عليه، والأوقاتِ والجهود المهدورة له..! وهؤلاءِ مخالفون لسنةِ نبيّهم الكريم الذي "ما خُيِّر بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد

الناس منه، وما انتقم لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله" الجامع الصحيح.

إن من المؤسف أن نجد الغلبةَ في مجتمعاتنا للصنفِ الثاني من النّاس..! أولئك الذين هم أصحابُ قرار في شتى المواضع، فطبيعتهم الغالبة تحكمها النوايا المنفعلة التي تميلُ إلى العرقلةِ بدل التسهيلِ، والمنعِ بدل السماحِ فيما يخصُّ تحقيق منافعَ للناس، ويدفعهم إلى إنجاز المطامح النبيلةِ، ويتماشى مع القاعدة المؤسّسة "لا ضرر ولا ضرار". ولذلك عُرف بعض أصحاب القرار من المسؤولين في المناصب الإداريّة بأنّهم أصحابُ نوايا حسنة، وآخرون أصحابُ نوايا سيّئة. فيقال لو عرض الأمرُ على الأوّلين لأجازوا ما رفضه الآخرون ـ ونحن نتحدث عما لا يكون فيه ضرر - ذلك لأن الأوّلين عُرفوا عند الناس بحسن النوايا التي تدفعهم إلى اتخاذ قراراتٍ إيجابيّة، وعرف الآخرون بسوء النوايا التي تدفعهم إلى اتخاذ قرارات سلبيّة..! ولعلّك تسمعُ من يقول لك: لا تبشر خيراً من فلان لأن موضوعك عنده، أو يقول لك العكس.. وهؤلاءِ معروفون، مكشوفون على الأقلّ عند من يحيط بهم، على رؤوسهم الريش..!

وحينما يتواجدُ إداريّون يتّخذون قرارات هي في الأصل نتائج لنوايا سيّئة وليست نتائج لحقائق وشواهد، فإنّهم يضرّون بمؤسساتهم، وينشرون ثقافةً تنظيميّةً عقيمةً فيها..! هذا إلى جانبِ أنّهم يسيئون إلى مهنهم وإلى القيم الرفيعةِ التي يجب أن تؤسّسها، ناهيك عن إساءتهم لسمعتهم..! فكم من الناس قد تضرّروا بفعلِ قرارات عنجهيّةٍ، اعتباطيّة، متسرّعة، لأن صانع القرار ذو نيّةٍ غير حسنة..!! وكم من القرارات اتخذت بناءً على الأهواء الشخصيّة التي لا تميلُ إلى جهةِ الإيجابِ، والخيرِ، والمنفعةِ، وإنّما إلى جهةِ السلبِ، والعرقلةِ. أحد المديرينِ دفعته نواياه السيئة إلى حشو تقرير الأداء لنائبه بادعاءاتٍ باطلة، وحينما احتجَّ الأخير طالباً ما يدعم تلك الادعاءات ظهر زيفها، وبانت نواياه الخبيثة..!

لا ريب أن قرارات غير صائبةٍ تتخذُ يوميّاً، ولكن من المهمِّ أن تكون وراءها

نوايا حسنة، فالإنسانُ حَسنُ النيّةِ يعذرُ بل يكافأُ لأنّه اجتهدَ فلم يُصب، إنّما المشكلةُ هي في القرارات التي تؤسسها النوايا الفاسدة تلك المدفوعةُ بالحقدِ، والانتقامِ. وإذا كانت المسؤولية الإداريةُ أمانةً في نظرِ الإسلامِ، فإنَّ اتخاذ القرار هو حصادُ هذه الأمانة، ومن ثم فإن كانت نوايا الإداري حسنة فإن الإجراء الإداري سيمضي في انسيابيّة، أمّا إذا أغلقت النوايا السيئة منافذ النور فإن الإجراء الإداري سيتعرقل، ولن تكون له غايةٌ حميدة.

إن القوانين ذاتها مرهونةٌ بالنوايا، فالنوايا الحسنة تميلُ إلى التفسيرِ الحسنِ للقانون، أمّا النوايا السيئة فتميلُ إلى التفسير المعرقلِ في القانون، وفي هذا يحدّثني أحد الأصدقاء بقوله: لدينا أناس يبحثون عن كلمة "لا" في القانون..!! وهذا يُخالف بالطبعِ خُلق المسلم وغايته في البحث عن الحكمة " الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها" حديث شريف في تهذيب التهذيب. لكنَّ هذا الصنف لا يبحثُ عن الحكمةِ في القانونِ كي تؤسِّس له قراره، بل يبحثُ عن النقمةِ التي ينقمُ بها آخر..! يبحثُ عن معرقل، أو مانع، أو ذريعة يبرّر بها قراره السلبي..! وهؤلاء لا يرجى من قراراتهم نفعٌ، ولا ينتظرُ منهم تحقيق مصلحة، ولا يؤملُ منهم ما يدفعُ الضرر..!

قيمة الأسلوب

الأسلوبُ هو منطلقُ المرءِ إلى مبتغاه، ووسيلته إلى مقصده، تقامُ عليه الأحكامُ، وبه تسندُ الآراءُ، ومنه تستنبط التفاسير، فيقاسُ المرءُ بما نطق لسانه، وأوحى كلامه، وهو عند الناسِ بما يلفظُ بيانهُ..!

وقيمةُ الأسلوبِ في الإسلامِ قيمة راقية، إذ إن هذا الدين الحنيف لم ينتشر إلّا بالأسلوب الحسن قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥]، ولم تُربح قلوب الناس إلّا برقيِّ الأسلوب، يمثّله لذلك القرآن الكريم، والحديث الشريف، قمتا الرقيِّ في الأسلوبِ الحضاريِّ البليغِ، المؤثِّر..

يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١١]

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: ٣١/ ١٩].

هذه بضعة أمثلةٍ قرآنيّةٍ، أما شخصية الرسول محمد ﷺ فهي الخلقُ متجسِّداً، والأسلوبُ الحسنُ ماثلاً، فهو القدوة المُثلى، والأسوةِ الفاضلة..

يقول المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا ولا تنافسوا، ولا تباغضوا

ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم!، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره الكريم - بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم! كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " أخرجه البخاري ومسلم.

إنّما عطّل الكثيرون قيمةَ الأسلوبِ الراقي في التعامل مع الآخرين، أكان أسلوب القولِ أو الفعل، وقلّلوا من قيمته أو أهملوه وهو لعمري فاتحةُ القلبِ، والدليلُ إلى الشخصية، والمؤشِّرُ إلى العقل، أليس "المرءُ مخبوءٌ تحتَ لسانهِ" فإن تكلَّم عرفتهُ من هو، وعرفتَ خصائصهُ وأعمق من ذلك أنّك قد تطّلع على قلبه إن كنت من أهلِ الفراسةِ والقراءةِ النفسيَّة..!!

المسألةَ لا تحتاجُ إلى كبيرِ عناءٍ كي "يقرأُ الكتابُ من عنوانهِ"، فثمَّةَ أناس لا يكترثونَ للكلمةِ وهي تندلقُ من ألسنتهم، ففي الحديث "هل يكُبُّ النَّاس على وجههم في النّار إلّا حصائدَ ألسنتهم"، فالنوايا وإن فسدت وبقيت في القلبِ دون أن تتحوّل إلى كلامٍ أو فعلٍ فلها وضعها الذي لا تنالُ به العقاب، بل إنّ الفعلَ أو الكلامَ لو عاكس النوايا سيتحوّل إلى ثوابٍ كريم..!! تخبرني سيّدة عربيّة تكمل دراساتها العليا في كندة، تقول: ذهبتُ للحجِّ، وفي الحرم يصرخُ عليَّ رجل يظهر في هيئة الرّجل الملتزم دينياً: تحرّكي يا عورة..!! فوقفتُ وقد هجتُ غضباً لهذا الوصف، وقلتُ له: أتدري ما معنى عورة..؟! ردَّ وكأن لم يسمعني: اذهبي يا عورة..!! فهل ربّى الإسلامُ أتباعهُ على هذا النهج..؟ كلّا والله..!

قلتُ لا يراعي بعض النّاس قيمةَ الأسلوبِ وهم يتخاطبون مع الآخر، فيتحدَّثون مع هذا كما يتحدَّثون مع ذاك، ويخلطون بين الحابلِ والنّابل، يحملهم إلى ذلك معتقدهم وإيمانهم بأنَّ أسلوبهم هذا هو خصيصة شخصياتهم، وهو جديرٌ بالتخاطبِ مع أيٍّ كان، فليقبل من يقبل وليرفض من يرفض..!!

لكن الآخرين مذاهب فلكلِّ واحدٍ صفته هو الآخر، أخلاقه، سماته، طبعه،

تفكيره، وهو يمتعضُ لهذه الكلمةِ ويرتاحُ لتلك، ويقبلُ هذا الأسلوبَ ويرفضُ ذاك، ويألفُ هذه الطريقةَ ويتذمَّر لتلك.. وهكذا فإن عُوملَ النّاس وكأنّهم نسخاً متكرِّرة فذلك هو الخطأ المرتكب، والذنب المتعمّد.. إن نبيّنا محمد ﷺ كان يخاطبُ الصحابةَ أو يعاملهم بحسب طبائعهم؛ فهو يعرفُ في أبي بكرٍ الصديق رهافة جانبه، وفي عمر الفاروق صرامته، وفي عثمان حياءه.. فقد دخل عليه الاثنان السابقان وهو في وضع من الجلوس لم يغيِّره إنّما حين دخل عليه عثمان بن عفّان غطّى ساقه الشريف قائلاً إن عثمان لحيي..!!

إن النّاس ليختلفونَ في خصالهم التكوينية فلكلِّ واحدٍ له طريقةَ المعاشِ، والرؤيةِ، والتفكيرِ، والذوق وهذا يستلزمُ مراعاةَ شعورهم وأحاسيسهم فالرسالة القصيرة مثلاً لا تعمّم على كلِّ النّاس سواء، وبطاقة التهنئةِ لا تطبعُ عليها ذات العبارة التي تداولها النّاسُ، والحديثُ لا يمكنُ تعميمه إلّا أن يكونَ حديثاً فيه من الحكمةِ والنفع.. فقد شهدتُ على أناس لا يميِّزون في المجلسِ الواحدِ بين فلانٍ من النّاس وآخر.. وهم يجرون في أحاديثهم وكأنّهم مع فريقٍ واحدٍ من النّاس، والمجلسِ عامر بأطياف من الطبائع التي لا تهوى تلك الأحاديث، وهم ينادون كلَّ واحدٍ وفق أسلوبهم، وهم بلا شك، تاركين أثراً في نفوس الآخرين الذين لا يرتضون خفَّةَ الأسلوبِ، وانتقاص الهيبةِ..! تخبرني امرأة عربية تقول: اتخذتُ عادة لبس "الإيشارب" وهو عبارة عن رداءٍ يُلف حول الرأس، ساتراً ومكتنفاً للشعر، واضعة معطفاً حول رقبتي، وحين زرتُ بعض النّساءِ، لم يجدن من الأحاديث سوى الاستهزاءِ بما أرتديه، وأنا أكتم غيظي، وأهدّئُ نفسي، حتى قالت لي إحداهن: عليك أن تؤلفي كتاباً في كيفيّةِ لبس "الإيشارب" حينها لم أطق صبراً، واستأذنتُ منصرفة..!!

إن من لا يقيمُ وزناً لنفسهِ لا يمكنُ أن يقيمَ وزناً للآخرين، ومن ثم يصبحُ أسلوبه هو الطّاغي لا قيمة الآخرين، فلسانهُ يهرفُ بما يعرف وبما لا يعرف وهو يظنُّ أنّه يحسنُ إلى نفسه من حيث يسيءُ إليها، وهو يقلِّل من شخصهِ في نظرِ الآخرين من حيث يظنُّ أنه يرفعه..!!

وأذكرُ حكايةَ ملك رأى في منامه أن أسنانه تسقط الواحد تلو الآخر إلّا سناً أطول منها، فاستدعى مفسِّر الأحلامِ وأطلعهُ على الحلم. فقال له مفسّر الأحلام: إنّك ستشهدُ موت أهلك جميعاً.. فانخلع قلب الملك فأمر بقتله، فاستدعى مفسِّراً آخر فقال له بذات الأسلوبِ فأمر بقتله.. ثم استدعى مفسّراً ثالثاً فقال له المفسِّر: أنت أطول أهل بيتك عمراً.. فكافأه..!! هذا الأخير قال المعنى ذاته الذي قاله من سبقه إنّما بأسلوبٍ آخر..

وأنّ أحد السلاطين العمانيين في زنجبار شُفي من مرضٍ عضال، فاستدعى الشعراء ليؤنس خاطره بسماع أشعارهم، فقدِّم إليه شاعرٌ قدم على التوِّ فأنشده القصيدة الزينبية وهي ذات مطلعٍ غير مريح، قائلاً:

صرمت حبالك بعد وصلك زينبُ والدّهرُ فيه تصرُّمٌ وتقلُّبُ
نشرت ذوائبها التي تزهى بها سوداً ورأسك كالثغامة أشيبُ
واستنفرت لما رأتك وطالما كانت تحنُّ إلى لقاك وترهبُ

فلم يكد يكمل تلك الأبيات حتى أسكتهُ السلطان متذمّراً من هذا المطلع المشؤوم، فكأنّ جميع من في المجلس على رؤوسهم الطيّر.. القصيدة رائعةٌ إلّا أنّها في مجالِ الوعظ، وهذا ليس مكانها فلكلِّ مقامٍ مقال.. وحين هدأت سريرة السلطانِ استدعى شاعراً آخر، فأنشده - وقد تعلّم الدّرس، وفقه قيمة الأسلوب - قصيدة المتنبي:

المجدُ عُوفي إذ عوفيت والكرمُ وزال عنك إلى أعدائك الألمُ
صحّت بصحتك الغارات وابتهجت بها المكارم وانهلّت بها الدِّيمُ
وراجع الشمس نورٌ كان فارقها كأنّما فقده في جسمها سقمُ

فآنس السلطانَ منها وكافأه، فقد أصاب بها قائلها - وإن كانت لغيره - فجعلها درّة المجلسِ، وحين خرج الشعراءُ، سأل الأول الآخر كيف واتتك البديهة في أن تقول قصيدة المتنبي، فقال له: "تعلّمتها من وجه الذئب" أي إنني تعلّمت من درس إسكاتك فوثبتُ إلى ما يناسب المقام والموقف..!!

إنّه الأسلوب الذي اعتنى به البعض، وتجاهله البعض الآخر عمداً أو سهواً..

الأسلوب الذي يشكل صورةَ المرءِ في نفس الآخر، ويطبعهُ فيه.. به يُعرف وبه يعامل وعلى إثرهِ يحظى التقديرُ أو يستحقُّ التجاهل..!!

لقد عطّل الكثيرون قيمة الأسلوبِ في مجتمعاتنا، فكم من يقتحمُ عليك حوارك دون استئذانٍ في المجالس أو غيرها، وكم من يسابقك عند الباعةِ وفي المصالح، وكم من يحاول قفز الطوابير البشرية، وكم من لا يكترثُ لإلقاءِ السلامِ والشكرِ والاعتذار..إلخ؟!!

لا يكترث الكثيرون مما يقابلونهم بإبداءِ المجاملةِ اللّطيفةِ التي يخفق لها القلبُ، وترتاحُ لها الآذانَ، ويسعدُ بها الخاطر، وتتوطّد على إثرها المودّة، وتقوى بها الأواصر.. هؤلاءِ النّاس الذين عطّلوا قيمةَ الأسلوبِ اختاروا لأنفسهم جفاءَ المشاعرِ، وصلابةَ القلوبِ، ظنّاً منهم بأن الأسلوبَ اللطيف ضعفٌ للمرءِ، وانحطاط من قدرِ شخصه وهو السمو، والكرامة في أصلها..!

وفي التالي بعض الأمثلةِ فيما عطّل فيه هؤلاءِ النّاس قيمةَ الأسلوبِ اللّطيف..

فقد أخبرني أحدهم وهو في سرير المرض، وكنت أعوده.. أن أحد (أصدقائه) قد زاره قبلي، وعبَّر له عن دهشته الشديدة للحال التي أصبح عليها صاحبنا المريض!! قائلاً له: إنك لست الرجل الذي أعرفه، لقد أصبحت ضعيفاً، هزيلاً، ممتقع الوجه، ويبدو أن المرض قد نال منك نائلته، وشفى منك غليله!! فقلتُ له: ليس هذا بصديقٍ يعتدُّ به! هذا من الفئة التي تكتنفها السوداوية، والنظرة التشاؤمية، والفأل السيئ، وليس ممن يُرغَّبُ في الاستماع إلى حديثهِ لأن نذير الشرِّ في أطراف لسانه.. وأردفت قائلاً: إنك على خير ما يكون، وأنك ستقوم بعد قليلٍ معافىً بإذن الله.. وبعد يومين وجدته مسروراً، منتعشاً، نسي المرض وكلام صاحب الفأل السيئ!!

وجدت الكثير من هؤلاء، وشكا لي الكثير منهم، ولاحظت تذمر الكثير، وهم لا ينتهون، ولا يتفكرون في أن الكلام الذي يتحدثون به أمام الناس إنما هو خبيثٌ، وأن أثره غائرٌ في النفسِ غور الجرحِ في الأحشاء!

يقابلون الرجل فيبادرونه بالكلمةِ الحارقةِ: لقد شيّبت يا فلان، أو ضعفتَ، ويسمُّونه أباً، وهو لو كان قد كتب له الزواج راشداً لما أنجب من يضاهيهم عمراً!! وذات يوم أخبرني أحد الغربيين عن عمره، فرددتُ عليه قائلاً: إن من يراك يحسبك أصغرُ بنصف عمرك الآن.. فكاد يطير من الفرح وهو يسمعُ هذه العبارة المجاملةَ مني..

أولسنا نحتاج إلى المجاملة اللطيفة؟!! أولا يحتاج الناس من يضخ الحماسة في قلوبهم، وينبذون من ينزعها منهم؟! ثم ما الذي يجنيه من يطلقُ هذه العبارات الجارحة التي يظنّها (نكتة) مضحكة؟!.. وهي في الحقيقة كلمة سخيفة، جارحة!!

إن من الناس من يقابل الآخر فيقول له: لقد شيَّبت بدل أن يقول له: ما شاء الله لقد ازددت شباباً، ويقول له: ضعفت، وهزلت بدل أن يقول له: ما شاء الله إنك موفور الصحة، متعك الله بالعافية.. ويقول له: لقد اصفرَّ وجهك بدل أن يقول له: ما هذا النور الطافح بالبشر من وجهك، ويقول له: حالك لا يسرّ بدل أن يقول له: يسّر الله لك أحوالك، وأغناك ورزقك.. ويقول له: لقد ابيضَّ شعرك بدل أن يقول له: لقد ازددت بهاءً ونوراً..

أصحابُ الذوق الرفيع في المعاملة الإنسانية كالنجوم التي يهتدي الساري بأنوارها!! هؤلاء هم من ينفحُ الحياة بالأنسام العليلة التي تبعث على النشاط والحماسة والرغبة في العمل، في همة وعزم لا يباريان..

إن النبي ﷺ سمع أعرابياً يدعو ربه: اللهم خفف حملي، فقال له: بل قل اللهم قوِّ ظهري..

على الإنسان أن يشدّ أزر الآخر بالابتسامة اللطيفة، بالبشاشة الفياضة، بالكلمة الدافعة.. حتى ينطلق في حياته، وقلبه يفيض حباً وعشقاً لنفسه والناس..

وجانبٌ آخر يتعلّق بالنظرةِ إلى الأعمار في مجتمعاتنا، فلمجتمعاتنا نظرةٌ عجيبةٌ تجاه الأعمارِ، ورؤيةٌ غريبةُ الأطوارِ تناقضها فيها مجتمعات غربيَّةٌ لا تقيسُ

الإنسانَ بعمرهِ، وإنّما بقدرتهِ على البذلِ والعطاء.. في مجتمعاتنا (يُشَيَّبُ) الناسُ قبل أن يشيبوا..!! ويُدفعوا للكبر قبل أن يكبروا.. وهم في ذروةِ الشبابِ، وقمَّةِ الحيويّةِ، وعنفوانِ العطاء..!! وهذه واحدةٌ من المعضلات الثقافية التي للأسفِ يلتفتُ لها الكثيرون ويَدَعونَ ما هو أهم منها، وأعظم قيمة! شأنهم في هذا هو ذات الشأن الذي يقيسون به الكثير من الأمور الظاهريَّةِ فيحكمون على المرء في ظاهره، وما يملكُ، وما يكونُ عليه من المنصب فإذا قلَّ مالهُ أو خرج من منصبه لسببٍ أو لآخر قلَّ جلاسهُ..!! فهم ليسوا سوى "رفاقُ المصالحِ" أينما تولِّي يولُّون في أثرها مسرعين..!!

وإنك لتسمعُ الكثير ممن يعلِّقُ على فلانٍ من النَّاسِ بأنه "شيبة" فما الذي يجعله مواصلاً رياضته التي يهواها؟!! وإنك لتسمعهم يقولون إنَّ فلاناً من النّاس يكفيه ما أبلاه من سنينٍ في العمل، وهو قادر على العطاءِ والجهدِ أكثر منهم..! وإنك لتسمعهم يقولون لمن هو في سنّهم أو يقاربهم سنّاً نحن أبناؤك..!! وهكذا تسمعُ المقولةَ تلو الأخرى، وهي مقولاتٌ تتركُ أثرها البليغ في نفسِ السّامع الذي لا يشعر بالارتياحِ نحوها.

هل تكونُ هذه هي المقولة التي يُقصدُ بها التقديرُ أم مقولة " إنّك لتفورُ بالشبابِ والحيويَّة"، أو " ما أبهى وجهك المشرق المستنير " أو " زادك الله صحَّةً وشباباً" أو " أنت تزدادُ شباباً كلّما رأيتك"..هذه العبارات وأمثالها هي التي تُسعدُ النّفس فلا تترك فيها أثراً سلبيّاً نحو الحياة.. فذات مرةٍ قلتُ لأحدِ الغربيين حين أبلغني أنه في منتصف الأربعين من عمره: إنك تبدو ابن العشرين، فقال لي فرحاً: ستجعلني أحلّق بجناحين على الفور..!

إن ذلك الذي لا يُتقنُ التعاملَ مع الآخرين، ولا يجيدُ أسلوبَ التخاطب معهم لا يدرك أنّه بأسلوبه هذا يؤثِّر في نفسياتهم بشكلٍ عميق، فتتبدّل نظراتهم، وتضعفُ هممهم، وتطفئ حماستهم.. إنّه يطفئُ الوهج في عيونهم.. وهذه الثقافة العربية التي طغت هي التي ولّدت بيت زهير بن أبي سلمى القائل:

سئمتُ تكاليف الحياةِ ومن يعِشْ ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

وهي ذات الثقافة التي دفعت ناظماً الغزالي كي يشكو:

عيَّرتني بالشيبِ وهو وقارُ ليتها عيَّرتني بما هو عارُ
إن تكن ذابت الشوائب مني فالليالي تزينها الأقمارُ

هذه الأبيات تلخِّصُ نظرة الثقافةِ إلى الظواهرِ وليس الجواهرِ، إلى المرئياتِ وليس المخفيّات..! ومن ثم وقع الكثيرون في إشكالية ربط الشعرِ الأبيضِ بالشيبِ، والشّيبُ معقود بهرم الجسد، وهذا غيرُ صحيح.. فالشعرُ الأبيضُ لا يعني الهَرم إنّما قد يشيبَ شاب في مقتبل شبابه، ويحتفظ شيخ مسنٌّ بحيويته، ذلك لأنّ الشَّاب قد أعلّته علة فأوهنت جسده أو ابتلي بالحماقةِ أو الشقاءِ، وغيرها من الأسباب، بينما احتفظ الرّجلُ المسنُّ براحةِ الخاطرِ، وصفاءِ النّفسِ، ونقاءِ السريرةِ فظلَّ شابّاً..

إن الهَرمَ هو هرمُ الجسدِ وليس الرُّوح، فالرُّوح لا تهرم لأنّها نفثةُ الخالق الذي لا يهرمُ ولا يفنى، أمّا الجسد فطبيعيٌّ أن يتقدم بحسب ما تنقضي عليه من السنين.. وقد يملكُ المرءُ قدرته على نفسهِ فيظلُّ محتفظاً بنفسهِ الشَّابةِ الوقَّادة حتى وإن تقدّم به العمرُ، وقد يُوهن الشاب نفسه فينعتها بالضعف والهشاشةِ أكثر من غيره فيقول: "لقد شبت وكثر الشعر الأبيض في رأسي" فقرن بين الشيب وهو - في عرف المجتمع - مربوط بالوهن والضعف والسنِّ المتقدم بظهور الشعر الأبيض، وبذلك فقد جنى على روح شبابه الوثّاب بيده..!

ومع أن لا نقيصةَ للمرءِ، خاصة الرّجل أن يذكرَ عمره فهو أمرٌ ليس فيه عيب ولا نقصان ولا عار... هذه هي الحياةُ، وهذه أعمارُ الخلق، فلا هو ينقصها ولا يزيدها بإخفاءِ حقيقتها.. إنّما أجد عذراً لبعضِ النّاس الذين أضعفتهم ثقافةُ النظرة السلبية نحو أعمار الخلق، لا الذين يكتمونها لمآربَ أخرى، أن يكتموا عن النّاس أعمارهم إذا شعروا بأن ثمّة شماتة حمقاء قادمة..!!

إن هذه النظرة لا توجدُ في الغربِ المتقدِّم صناعيّاً وعلميّاً، لا يوجدُ شابٌ وشائب.. لا توجد فتاة وعجوز.. لم يحفلِ الغربُ لهذه المظهريّاتِ فنظرَ إلى النّاس دون اعتبارٍ لأعمارهم.. لقد رأيتُ رجالاً ونساءً متقدمين في السنِّ كثيراً

يعملون إلى جانبِ الشبابِ فيساوونهم في الحيويةِ والعطاء.. فماذا ستسمع لو رأيت هؤلاءِ في مجتمعاتنا..؟! لهذا نظروا للجوهر فتقدموا، ونظرنا للمظهرِ فظللنا في أماكننا أو تأخّرنا..!! ويالنا من هذه النظرات التي تشغلنا في حياتنا وليس لها من منفعة..!

والمشكلةُ أن البعضَ منّا إن ذهب للغربِ حمل معه أسلوبه الفظ معه، يحكي لي أحد الشباب العرب أنّه كان يحضر حصّةً إضافيّةً خاصة عند مدرِّس إنجليزي في إحدى المقاطعات شمال لندن، وكان يشاركهُ حضور الحصَّةِ شابٌّ آخر، فكان يُسرفُ في الحديثِ مع المدرِّسِ عن الإسلامِ، فظّاً في تناولهِ، متعسِّفاً في جدالهِ، متنطِّعاً في زعمهِ بأنّه قادرٌ على مقارعةِ القسِّيسين والرُّهبان.. يقول محدِّثي: فكنتُ أغمزُ له في بعض الأحيانِ، وأقاطعه في بعضها علّه يغيِّر مسار الموضوع أو يسكت، وهو لا يفتأ يثقل على المعلّم الإنجليزي بأسلوبٍ فظٍّ غليظ.. حتى إن حانت عطلةُ عيد الفصح وجدها المعلِّم فرصةً سانحةً للفكاكِ من هذا الشّاب تحديداً فأرسل إلينا معتذراً دون أن يذكر السبب، لكنَّ عرف محدِّثي السبب من شخص قريب له أنّه بسبب الجدلِ الثقيل، والأسلوبِ الفظِّ الغليظ المتنطِّع لهذا الشّاب..!! أين هو وكلامُ ربُّ العزَّة:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥].

هو يشبهُ إلى حدٍّ ما سفر أحد الشباب العرب للدراسةِ في الغربِ، وإقامته في بيت عائلةٍ أجنبيةٍ فما إن حان وقت صلاة الفجرِ، حتى رفعَ عقيرتهُ مؤذِّناً في البيتِ مما أثار رعب العائلة الأجنبية وهلعها، وفي الصبّاح وجد هذا الشاب نفسه مطروداً..!!

إنّه فهمُ الأسلوبِ، ومعرفة التّعاطي السليمِ مع المواقفِ والإيمانِ الجازمِ بأنّ " لكلِّ مقامٍ مقال".

الأسلوبِ هو في إيماني - كما أسلفت - واسطةُ القلبِ إلى القلبِ، وعنوان المرءِ وأساس علاقاته، ووزنِ شخصيته.. ولننظر إلى مثلٍ آخر يضافُ إلى ما أوردت من أمثلةٍ سابقةٍ عن الأسلوب، وهو ما يتعلّق بالطابور..

فالطابور ميزة من ميزات التحضر، وصورة من صور التعامل الإنساني الخلاق، إذ هو في جوهره تقدير للإنسان الآخر، كما هو احترام للنفس ذاته في الوقت نفسه، وللأسف الشديد فإننا لم نع بعد تلك القيمة العظيمة في الطابور، وهذا راجع في نظري إلى العامل الأول؛ وهو عدم وجود برنامج حضاري محدد واضح، الأمر الذي أنتج تشويشاً في الشخصية العربية بشكل عام جعلها تقتحم حدود الآخرين وبرامجهم، أما العامل الثاني وهو التعامل الإنساني فهو كامن في النفس لكنه كمون سلبي من هذه الناحية، فهناك إحساس لدى المقتحم أدوار الآخرين في الطابور بأنه يرتكب خطأً إنسانياً، لكن ومن الناحية الثقافية لا يعير ذلك اهتماماً؛ لأن الأمر من أصله غير منظم!! والهوس في الطابور نراه واضحاً في مقاصف المدارس حين يصبح شراء وجبة خفيفة أو عصير أو غيره دخولاً في معركة حياة أو موت!! أين هي المدارس من مقاصفها؟! فالمدرسةُ تبدأ يومها بالطابورِ لكنَّ القيمةَ الجوهريّة للطابور كمعنى لا تستقر في مستقر المعرفةِ الواعيةِ به، ولو كان كذلك لما رأيته في المقاصف أو سائر المصالح الأخرى في حياة الطالب..!

وانظر إلى الكثير من الجهات الخدمية تجد الناس كالشعر المنفوش لا تعرف منه خصلة أو ضفيرة تمسك بها ولا تجد شعرة سليمة تتبع جذورها!! الكل يريد إنجاز معاملته على حساب الكل، ولهذا تتعطل المصالح وتتبدد الأوقات وتتشتت الجهود.. انظر إلى هؤلاء الذين يحيطون بماكينات الصرف الآلي لا تعرف وراء من تقف إن كنت تقدر قيمة الآخرين، وتعرف معنى أن تقف في طابور! وفي أحد محلات صرف العملة كان الأجانب الآسيويون يقتحمون الواحد تلو الآخر طابوراً في طور نشأته.. فكأن أحد الواقفين واقفاً لهم بالمرصاد، فلو رأى هؤلاء العاملون تقديسنا للطابور لما تجاوزوه، بل وربما أثر

فيهم، كما أثر الطابور في الغرب في عدد ممن درسوا أو عملوا فيه.. هناك تجد الطابور في محل للبريد منتظماً، هادئاً يمشي بكل سلاسة ومرونة، تجد المصطفين ممتدين خارج المحل والجليد أو المطر يتساقط فوق رؤوسهم يحملون مظلاتهم، لكنهم لا يتأذون ولا يتذمرون والحال كذلك في المخابز أو أمام ماكينات الصرف الآلي أو في كل مكان فيه..!

للطابور معانٍ كبيرة لا يجب التهوين أو التقليل منها.. إذ هو برهان أكيد على احترام الآخرين وتقدير إنسانيتهم، فلتكن البداية المدارس التي يجب أن تعطي دروساً في الانضباط والسلوكيات والمعاملات والأخلاقيات..دروساً عملية يعيها المعلم قبل الطالب، والمدير قبل المعلم، ويحفل بها منهج أساسي للتربية والتعليم.. ثم مروراً بالمؤسسات الخدمية التي يجب أن تلزم المتعاملين بالتقيد بالطابور لإنجاز أية معاملة.. القصد هنا تربية شعور، وتغيير طباع، وتحسين سلوكيات وكلها قابلة لذلك فقط علينا أن نبدأ!!

وفي ختام الحديث عن الأسلوب فإننا نتحدثُ عن كلماتٍ بسيطةٍ ليس أكثر، كلمات تتنازلُ فيها النفسُ عن كبريائها لتسمو..وتتواضع في نظرتها لتعلو.

كلماتٌ بسيطةٌ، إنّما مبهرة، متواضعة إنّما غنيّة، صغيرة إنّما ساحرة..! هي في القلبِ كالعشبِ الأخضرِ الجميل، وفي البيت كالأضواءِ الملوّنةِ الهادئة، وفي الأجواءِ كالأنسامِ اللطيفةِ العليلة.. كلماتُ الثَّناء.. كلماتُ الشُّكرِ.. كلماتُ التقدير.. كلماتُ الصداقةِ الجميلةِ.. والرّفقةِ الحميدة.. والمعاملةِ الإنسانية.

كيف يمكنُ لرجلٍ يدّعي العلمَ، ويزعمُ أنّه خبر بواطن الأمورِ وظواهرها، وعرف الحياة وأحوالها أن يتجرّد لسانه، ويتعالى قلبه عن هذه الكلمات الراقية..؟! كيف له وهو يدّعي فهم النّاس ونفسيّاتهم أن يكونَ ذا أسلوبٍ جافّ مع زوجتهِ، فيتّخذُ كلماتِ الأمرِ والنّهي، والزّجرِ معها أسلوباً متوحشاً، وهي الرّفيقةُ، الرّقيقة ذات القلبِ الذي يجبرُ كسره الكلامُ المهذّب الناضحُ بالإنسانيةِ، المخضلُّ بالحب..؟! كيف لهذا الرّجل الذي شاءَ أن ينظرَ إلى الكلمات التي تعدُّ وسائطَ راقية للأسلوب العذب المغذِّي للعلاقةِ الحميمة بينه وبين زوجته على

أنّها كسر للكبرياءِ، وتهشيم لقامةِ الرّجولةِ الشمّاء..؟! كيف لم ينظر لها على أنّها الزهرات الرائعةِ التي تزيّن أسلوبه بألوان المحبّةِ الإنسانية الصّافية؟! كيف لم ينظر إليها على أنّها هي الرّقي، والتّحضر، والتّقدم..؟!

إنَّ إنساناً ينظرُ إلى كلماتِ الشّكرِ، والعرفانِ، والإحسانِ، والتقديرِ، وغيرها نظرةَ كبرياءٍ خاويةٍ، إنّما لم يعِ التّحضر، ولم يصل في مدارجِ الرّقيِّ إلى المرتبةِ الإنسانيةِ السّامية، تلك المرتبةَ التي يصبحُ فيها الإنسانُ سخيَّ العطاءِ لا بمالهِ بل بقلبه، جواد اللّسانِ لا بتملّقهِ وإنّما بصدقهِ، صافي السريرةِ لسلامةِ صدره.

وإنني لأمقتُ الرّجلَ الذي يمتدحُ من شاءَ، وأنّى شاءَ بالكلمات الجميلةِ، ثمَّ إذا اجتمع بزوجته لم يقطع لها نصيباً من تلك الكلمات (المبتكرةِ) التي ينثرها على هذه وتلك.. وذاك وهذا.. والزّوجة ليس لها حظ من عطائهِ السّخي، وكرمه المهدور.. سوى الزّجر والأمر والنّهي والوعظِ والإرشاد والنّصحِ والتعليم، والتّصغير والتّحقير.. وكأنّما هي داخل أسوارِ مدرسةٍ لا تعترفُ إلّا بالجسدِ ككائنٍ ليس له شعورٌ، ومادة ليس لها إحساس..!! أيّةُ حياةٍ يرتجيها الرّجلُ إذن من امرأةٍ يصدر أوامره ونواهيه فيها ليل نهار..؟! أيّ نفسٍ تنسجمُ معه، أو قلبٍ يهواهُ، أو خفقٍ يسكنُ إليه منها..؟!

هل عرفَ العلمَ..؟! لا، لم يعرف كنهه؛ لأنَّ العلم هو الرّقي.. هل فقه الدّين؟! لا، لم يفقهه، بل لم يعرف منه قِيمه..! لأنّ الدّين رقيٌّ وسموّ.. ماذا عرف إذن وهو مضطرب في جوهرهِ، غائب عن صوابه.. يقول المتنبي:

وما انتفاعُ أخي الدّنيا بناظرهِ إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلم...؟!

إنّ رجلاً لا يستطيعُ أن يجعل من المرأةِ (ذات النفسِ الجميلةِ، والحسِّ العذب، والشعور الرّهيف) ملهماً لخيالهِ، وشعورهِ، وموحياً لنفسهِ، هو رجل يبحثُ عن شهوةٍ تثيرُ له حواسه في إنسانةٍ أخرى.. رجل عاجز عن فهمِ ما يريد قلبه.. مستكين لمبتغى جسده.. ثم يدّعي التّحضر والإنسانية والرّقي بعدها..!

البيوت التي تختفي منها هذه الكلمات التي أسميتها " الكلمات الساحرة " ذات مرّة، هي بيوت جافّة، رعناء.. العلاقاتُ فيها مبنيّةٌ على الأجسادِ

لا القلوب.. إنّ رجلاً أو امرأةً يخاطبان بعضهما بأسلوبٍ راقٍ هما أدعى للمحبةِ والتآلف من آخريَن ليس لهما من الأسلوب سوى ذلك الجافُّ، المستأسد.. إن قال أحد الزّوجين الأوليين: من فضلك أو لو سمحت أردت الشيء الفلاني.. قال الآخران: هات الشيء الفلاني..! وسيّان بين الأسلوبين..!

وإنَّ ما يدهشني قول البعض من الرّجال خاصّة أن هذه كلمات رسميّة، ولعمري فإنّهم لو سألوا عنها حين يقولونها لأخرياتٍ غير زوجاتهم لقالوا إنّها كلمات تقرّب القلوب، وتشجّع النّفوس، ويا لهذا التناقض..!

لقد عنيتُ الرّجل في هذا المقام أكثر بكثيرٍ مما عنيتُ المرأة، لأنَّ المرأةَ كالبستانِ والرّجل البستانيَّ، فإن بذر زهراً أنبت البستانُ زهراً، وإن زرعه سرواً أنبت سرواً.. فهو البادئ ولا ريب.. وما زرعَ يجنيه ويحصده.. فكم من امرأةٍ بدأت راقية الأسلوب، مهذبة المنطقِ فشلت في مراميها مع زوجها.. فأيّةُ روضةٍ هذه التي تعلّم زارعها ما يزرع، وتطلبُ منه ما تَنْبت..؟!.. ولكنَّ الرّجلَ إن وصل إلى مرتبةِ الوعي بالكلامِ المهذّب الراقي، زرعَ كلماتهُ في أرضٍ جميلةٍ وادعةٍ.. تعهدتها المرأةُ وهي باسمة فسقتها ماءَ حبّها.. ثم أنتجا معاً بيتاً ترف عليه ظلال المحبّة، وتتمايلُ فيه غصون الودِّ المتبادل.. فأصبحا بحق شريكينِ رحمة، وعاطفة.. ذلك فقط حين وعى الرّجل معنى الكلمات الساحرة وقيمتها في قلب المرأةِ، وتنازل على هذا الوهم الذي غرّر به المسمّى بـ" الكبرياء "..!

عطّل الكثيرون قيمة الأسلوبِ وهي كامنةٌ في قيم الدين وجوهره. هي قيمة أساسيّةٌ تقوم عليها الدعوةُ للدين، ويتبع بها النّصح " والدين هو النصيحة" فكلاهما أسلوب، أسلوب للعبادةِ وأسلوب للنصحِ، فهل تتبع القشور ويترك اللُّباب..؟!!

قيمة التعامل

لِم لا يبتسمُ عندنا الموظَّف والموظّفةُ والمديرُ والمديرةُ، والسائقُ، والبائعُ والبائعةُ، وموظَّفُ وموظَّفةُ البنكِ، والمحاسبُ والمحاسبةُ، والطَّبيبُ والطبيبةُ، والمعلِّمةُ والمعلّم، ووو.. إلّا قليلاً..!! هل لأن حرارةَ الجوِّ لدينا تطغى وتكبسُ على حرارةِ العواطفِ..؟! أم لأنَّ الابتسامة مكروهة ومذمومة وإن كانت من بابِ اللَّطافةِ واللياقةِ..؟! أو لأن التّجهمَ في وجهِ الآخر أمر مطلوب كي يضطر الأخير إلى الرجاءِ والالتماس؟! أينَ الابتسامة وهي "صدقة في الدِّينِ" وقد كُبتت في مكانٍ مجهولٍ أو أُخفيت إلى الأبد..!!

لم لا نسمعُ عبارات التَّرحيب والمباركةِ وأمنياتِ النَّهاراتِ الجميلةِ، وآمال الأعمارِ السعيدةِ منهم إلّا نادراً..؟! فإنك إن كان لك مصلحة قلّما يرحِّب بك الطَّرفُ الآخرُ مستهلاً بعبارةِ ترحيبٍ جميلةٍ تضيء جوانحَ صدرك، وتُشعركَ بأنَّ ثمَّةَ من يقدِّر وجودك ككائنٍ بشريٍّ له دوره الفاعلُ أيضاً في الحياةِ الاجتماعية وله إسهاماتهُ في مجالاتٍ أخرى يحتاجُ إليها هذا الموظف الذي يقضي لك الآن مصلحتك..!

في مجالاتٍ كثيرةٍ رأيتُ الكثير من النّاس لدينا يعلو جبهاتهم التّجهُّم، وتطغى الشدَّةُ والحزم وجوههم، فقلّما رأيتُ بائعاً مبتسماً، أو موظَّفاً مرحِّباً، أو عاملاً ملاطفاً، وكأنَّ هموم الحياةِ بأحمالها قد حطّت على رؤوسهم، والأرضُ ضيَّقة عليهم.. حتى شعرتُ بأنني أستجدي منهم مصلحتي التي أقضيها بأجر..!! وقلتُ في نفسي سبحان الله، نحمد الله على أن خلقنا على ملّةِ الإسلامِ فلمَ نحنُ جفاة في الطِّباعِ، قساة في المشاعرِ، غلظاءُ في القولِ، متزمِّتون في القسماتِ..؟! أوليسَ الإسلامُ وهو أسُّ الحضارةِ قد لطَّف طباعُ العربيِّ، وهذّب أخلاقه، ورقَّ قلبهُ بعد أن كان يوأد أُنثاهُ وهي حيَّة..؟!!

لِم لا تسمعُ عباراتُ "السلام عليكم" و " صباحُ الخيرِ" أو "مساءُ الخير" أو غير ذلك من العبارات الإنسانية التي تسري في الخاطر سريان الماءِ الباردِ في الأوردةِ العطشى..؟! دخلتُ ذات مرَّةٍ على أحد المهندسينَ لحلِّ مشكلةٍ ما.. وحينَ رأيتُه أيقنتُ من منظرهِ أن مشكلتي قد تعقدت..!! وكأنَّه قد ظفرَ مني بما يمسكني من اليد التي تؤلمني كما يقال..!! وكان مظهرُ (الالتزام) متنافر فيه عما كان يجب أن يكون عليه من السّماحةِ واللّطافةِ والتّرحيب..!

فلم ينهض من كرسيِّه حين مددتُ إليهِ يدي مصافحاً.. وكان متجهِّماً، وكأن الإسلامَ قد فرضَ على المسلمِ أن يكونَ متزمِّتاً في قسماتهِ، غليظاً في أحاديثه، حادّا في نبراتهِ..! فأين ذلك من قولهِ تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩].

إن بعض العاملين في اختلافِ المهنِ لدينا قد وضعوا الشمع الأحمرَ حِجراً على العبارةِ الرقيقة والابتسامةِ اللّطيفةِ وكأنّها محرّمةٌ عليهم.. فتجدُ نفسكَ وأنت تقضي مصلحة ما، أنّك تُدفعُ دفعاً.. حتى إنَّ أحد الأصدقاءِ وقد خرجَ من إحدى دورِ المصالحِ أقسمَ بالله أن لا يمضي قُدماً في قضاءِ تلك المصلحةِ كنتيجةٍ للإحباطِ النّفسيِّ الذي آل إليه..!!

إنَّ أخلاقيات التعامل مع الناسِ كبشرٍ لهم مشاعر هي أهمُّ من التّعاملِ معهم كزبائنَ أو مراجعينِ أو مرضى أو أصحابُ مصلحة..! ويا للمفارقةِ فهذه الأخلاقياتُ موجودة في الغربِ ومنتشرة في حين أننا - ونحنُ الأحرى بوجودها - نادرة الوجود..فلِمَ لا؟!! إن تعليم الموظّف والموظفة والطبيب والطبيبة والمهندس والمهندسةِ والبائعِ والبائعةِ وسائق الأجرةِ وغيرهم وغيرهم الابتسامة في وجهِ الآخر صاحبِ المصلحةِ وإطلاق عبارات الترحيب المهذبةِ به، والتّلطفِ معه، أولى من (الشطّارةِ) في إنجازِ معاملتهِ أو تشخيصِ علّتهِ أو قضاءِ مصلحته بتجهُّم وعبوسْ واكفهرار..!! فلِم لا نرى هذه الإشراقات على وجوه

هؤلاءِ في مجتمعاتنا إلّا نادراً وديننا الحنيفُ دينُ اللّطافةِ والسماحةِ والرّقةِ والعطفِ..؟!! لم لا يكون أو تكونُ كمن قال الشاعرُ العربيُّ فيه:

تـراه إذا مـا جـئـتـهُ مـتـهـلِّـلاً كـأنّـك تُـعـطـيـهِ الـذي أنـتَ سـائـلـهُ

كثيراً ما أُقارنُ بين الموظّفة التي تقفُ على (كاونترات البيعِ) في الغربِ وعندنا.. الأولى: تبتسمُ في وجهك وترحِّبُ بك وتسألك إن كنتَ بحاجةٍ لمن يساعدك على تكييس أغراضك.. أما الثانية فلا تلفظ كلمةَ ترحيبٍ واحدةٍ بل - وفي أكثرِ الأحيانِ - تمزحُ مع زملائها أو زميلاتها في العملِ دون اكتراثٍ بوجودك إلى أن تلتفُت إليك ولا تكادُ تنظرُ فتقذف في وجهك السعر..!! فلمَ لا يجعلُ كل موظّفٍ وموظّفةِ الابتسامة شعارهُما، والترحيبَ استهلالهما، واللّطافةَ سمتهُما، والبشاشةَ خصلتهُما، والاعتناءَ بالطرفِ الآخرِ على رأسِ أولويتهما..؟! لِم لا.. وكيفُ يكونُ المسلمُ مسلماً إن لم يرقَّ طبعُهُ، ويتهذّب خُلُقُه، ويلطُف جانبهُ، ويتّسعَ صدرُهُ، ويتهلّل وجهُهُ، ويُكرمَ سائلهُ، ويتواضع جانبُه..؟!

ثقافة التآمر

بين رؤية تستنطق الوقائع وتستكشف البعد من ورائها، وبين أخرى تخشى المغامرة، يوصلها خمولها أو نقص عناصرها إلى محدودية الحكم بون شاسع، بين النظرتين عوالم لا يمكن إدراكها إلا بالوعي.

كثيراً ما تؤثر فينا ثقافة التآمر، وتسودُ في مجتمعاتنا بشكلٍ سافر..!! هذه الثقافة التي عطلت النمو في حركتنا على مختلف الأصعدة، تآمر ثقافي، سياسي، اقتصادي، ديني.. إلى آخره، في حين لم تستمر ثقافة الإصلاح الهادف أو النقد الذاتي البنّاءْ. وإذا كان مقصدنا الإنسانَ دون المؤسّسةِ في معرضِ الحديث، فهو أصل المؤسسةِ ومنشؤها، الإنسانُ العربي الذي تثقلُ عليه النصيحةَ، والأغربُ أنّها تزيدُ ثقلاً كلّما صدرت من دوائره القريبة حتى تصبح النصيحةَ من زوجتهِ هي أثقلُ النصائح كما يقول أحد العلماء..!!

عقلية الإنسانِ في مجتمعاتنا غير ممهدةٍ لتقبّل النقدِ البنّاء، ونفسهُ لن تتسامحَ مع الناقدِ السليمِ النوايا، وعقلهُ مغلق أمام التصالحِ مع النقد الموجّهِ، المُصلح.. ومن ثم فإن هذه الأجهزة تستنفرُ قواها حالما ينقدُ صاحبها، وربما لو حاولت أن تنقد بموضوعية شأناً من الشؤون سينظر إليك على أنك تغرد خارج السرب، وتغريدك هذا خارج عن أصول التغريد ذاته، بل إن الفضاء الذي ترفرف فيه حافل بكثير من المكامن فارغة الأكسجين يمكنها أن تحاصرك في إحدى دوائرها!!

ذات مرة حاولت أن أنقد (والنقدُ هنا نقد انطباعي للفكرةِ مع تحاشي النيلِ ممن يقفون وراءها، فكان الرد من تلك الجهة شخصياً، أي إن أحد المديرين المسؤولين عن العلاقات أو الإعلام في تلك الجهة نظر إلى الموضوع كأنه تهكم شخصي على أشخاص بعينهم!! وهذا قصور في النظر! فالناس تمضي

والمؤسسةُ تبقى وما النّقدُ البناءُ سوى لإصلاح المؤسّسة عمّا غفلت عن إدراكه بالتفكير خارج دائرتها، أو ما يسمى " التفكير خارج الصندوق Thinking out of the box " وما عملُ الناقدِ سوى التفكير بدل المؤسسة أو الفرد من خارج الصندوق..! وبعد نقدي الانطباعي لعملٍ فنِّي - ذات مرّة - اتصل بي مؤلف العملِ وقدّم لي الشكر على الملاحظات، ثم أراد أن يقنعني بأنني لم أفهم الفكرة التي أرادها في عمله، في حين فهمها أغلب الحضور، فقلتُ له: سأسديك نصيحةً في الفن، وهي أنك يجب أن تعلم " أنّه لو اتفق على عملك الجميع فهو فاشل وإن اختلفوا عليه فهو ناجح" فالعمل الفنِّي، عملٌ جدلي، مفتوح يستثير أسئلةً ويستفزُّ الجدل، ولا يخمدُ للنهايات الفاترةِ المغلقة، لكنّه استسمحني بأنه يواجه " ضغوطات الأصدقاء!! " وفي اليوم التالي قال في ردّه: إن ما كتبته كان "حقداً" وليس "نقداً"..!!

وحينما ننظر إلى قيمةِ النقدِ في ضمن قيمنا الثقافية الإسلامية نراها النصيحةَ ذاتها التي يرتكزُ عليه الدينَ كلّها " الدينُ النصيحة"حديثٌ شريف، فهي العمودُ الذي يرتكزُ عليه الدّين، وتقومُ عليه التقوى، وينهضُ به الإصلاح، فأينَ هي في سلسلةِ القيم المكوّنةِ للشخصية المسلمةِ..؟!

نعم هناكَ ما لا يسمى نقداً بنّاءاً، وإنما هو تجريحٌ سافر، وصعودٌ على أكتافِ العملِ إلى مراتبِ الشهرة، وهذا كثير في مجتمعاتنا. الأمرُ الآخر: إنّ الإشادةَ لا تباح وبدلاً منها يباحُ الامتعاض، ونبيّنا الكريم يقول" إذا أحب أحدكم امرءاً فليقل له إني أحبّك"..!! لكن في مقابلِ هذا وكردّة فعلٍ على ذلك فإن سلوك المنْقَد يجب أن يكون سلوكاً حضاريّاً، يسير على نهجِ الآية الكريمة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦]..

وأذكر أن أحد الكتاب العرب بعد أن امتدح المؤلف المشهور بول كنيدي لتشخيصه الوضع في أمريكة وأوربة واليابان والصين والهند، عاب عليه حينما شخَّص أوضاع منطقة الشرق الأوسط فهو يراه " خروج عن وقار

الأستاذية وهيبتها!!" ويقول معلقاً على ذلك الكاتب المصري الدكتور فؤاد زكريا بقوله المشخص أيضاً " إن المتأمل لتطورنا الفكري يشعر بأن هناك نوعاً من التناسب الطردي بين مدى تخلفنا ومدى إنكارنا حقيقة هذا التخلف، فكلما زادت أوضاعنا تدهوراً، ازددنا ميلاً إلى رفض الاعتراف بهذا التدهور، وازددنا شراسة في الهجوم على من يشير إليه - مجرد إشارة - ويصل الأمر في الحالة التي نحن بصددها إلى حد الخداع الذاتي بأجل معانيه!! ".

وبالطبع فإن هذه الظاهرة هي السمة التي تلصق بالشخصية العربية بشكلها العمومي، ولكلِّ قاعدةٍ شواذ..!، فلا تحاول التخلص منها بالإدراك أن " الاعتراف بالحق فضيلة "، بل إنّها تسعى بمقاومتها كي تظهر عليها اعتقاداتها وإن كانت مخطئة!! وأعترف بأن هذا الأمر قادنا إلى سكون هامد، كما قادنا إلى التصرف بغير ما يجب أن نظهر به.. إن ثقافة التآمر تسود أوضاعنا في جوانب شتى لا حصر لها.. أما كيف نتخلص منها فتلك هي مشكلتنا (الحضارية)!

قيمة النظرة إلى الآخر

النظرةُ إلى الآخر، والآخر في قاموسنا هو في مقصده الظاهر ما نصطلحُ على تسميته " بالغربي "، هذه النظرةُ هي العقدة التي ما انفكت تلاحقنا لأسباب سنذكر بعضاً منها لاحقاً، وما برحنا نحن أيضاً نلقي بكل همومنا وتخاذلنا على شماعتها، فاستنزف ذلك منا الوقت الكثير والكثير لو كنا قد أنفقناه في سبيل نهضتنا وإحياء وجودنا وتراثنا لكنا اليوم في صدارة الأمم، ها نحن اليوم أمام ظاهرة العولمة؛ وهي الأخرى لم نحدد منها موقفنا الموحد، إذ برز ثلاثة تيارات متباينة الآراء لمفكرينا العرب في أحد المؤتمرات التي عقدت في القاهرة وشارك فيه نحو أربعين من الشخصيات الفكرية والأدبية وقدمت في بحوث من دول عدة، هذا الاختلاف يمثل في ظاهره مسألة صحية بسبب أن تعدد الآراء هو ما يدفع إلى الالتفات إلى جوهريات الأشياء، ولكنه في باطنه يشير إلى أن هناك نوعاً من الاختراق الثقافي قد تم بالفعل ونجح في أداء دوره بكفاءة، وبرز ذلك من خلال التيار الواسم ظاهرة العولمة على أنها ثورة معلوماتية، ودعوته إلى ثقافة كونية لا تعترف بالثقافة القومية، ومن ثم لا تراث ولا حضارة ولا صلة، وإنما توحد إنساني محكوم من قبل برامج أخرى هي أقوى منا شأناً ونفوذاً كما هو حال برنامج (الأمركة) الساعية إلى فرض الهيمنة عالمياً بما تبثه من قيم رأسمالية بحتة لا تعترف بالخصائص الثقافية المتباينة والمضادة لها ولفكرها الداعي إلى التحرير الاقتصادي، وهو كما يرى مفهوم ظاهره الوجه المادي وباطنه الاختراق الثقافي اللامتناهي والذي لا يمكن بأي حال من الأحوال مقاومته في حال اختراقه..

ولعل التكريس لمقولة متهافتة لم يصبح لها مذاق فعلي جر إلى النكوص المستمر إلى الوراء والتقوقع في دائرة الرجاء بأن يعترف الآخر بفضل الحضارة العربية على علومه الطبيعية وعلى جرثومة نشأته. ما الذي تجديه مقولة: إن

الغرب ينكر الجميل الذي أسدته له الحضارة العربية في سابق عهودها حين بلغت أوج نشاطاتها الحضارية الفاعلة، وما الذي تجديه أيضاً مقولة إن التقهقر الذي حدث للأمة العربية والإسلامية مرد أسبابه إلى الغرب، لقد كرر التاريخ أمثال هذه المقولة، وإن يكن في ظاهر الأمر، ولا سيما في المقولة الثانية حجماً مسلماً به من التصديق المادي، بسبب الحملات الاستعمارية المتعاقبة والتي ربما انتهت نظرياً، أو انسحبت من المشهد العيني الميداني، ولكن الجوهر الحقيقي للأمور والتمعن الصادق العقلاني يحمل إلى توصيف السبب بأنه نفسي داخلي أدى تضعضعه إلى تراخي خطوطه الدفاعية تماماً كحالة الجسد الذي يفقد المناعة الذاتية ومقاومة الدخيل الآخر..

وكثير من المؤتمرات والندوات واللقاءات والطروحات وغيرها من الأشكال والقوالب الثقافية قد انتهت إلى خلاصة مؤداها أن الآخر هو السبب في تثبيط الحضارة العربية وتنتهي كل التظاهرات التي صرفت عليها الأموال الطائلة عند هذا الحد !!! وهو كلام مكرور يتمتع بجاهزية لغويّة، فذة لا تبارى، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تجاوز هذه النقطة إلى الفكر الذي ينتج عملاً حقيقياً يزحزح تلك المقولات جانباً، ويتفرغ إلى المعمل والمصنع والسوق والأفكار الجادة التي تسوغ العمل الحضاري مستغلة كل الظروف ـ وهي في صالحها ـ الدين والتاريخ والفكر واللغة وجميع المقومات والخصائص الإنسانية الأخرى، وتشغيل قيمها المعطّلة، ولكنها تقفل ملفاتها كما بدأتها، حتى أصبح العربي لا يستسيغ من أمثال هذه الجاهزية الباهتة ولا يلقي لها بالاً؛ لأنها لا تحرك فيه دفيناً، ولا تدفع ساكناً، وهذا أدى إلى تكريس الانهزامية وتحقير الآخر، وكأنما القضاء عليه أصبح هو الهدف الذي يجب ترسمه، كما أدى ذلك بالطبع إلى الابتعاد عن الأسباب الحقيقية للنكوص، ولعل مرد ذلك هو الخشية النفسية من مواجهة الذات، ومحاسبة الضمير، هذا المصطلح اللغوي العظيم والمرجع النفسي الكبير الذي يوسم بأنه "ظل الله في الأرض"، وُفقنا فيه لغوياً ولم نوفق عنده عملياً.

إنَّ جاهزية المقولات لدى بعضُ أصحاب النُّهى في العالم العربي الإسلامي حول إلقاء السبب الحقيقي وراء النكوص الحضاري للأمة على كاهل الآخر الذي عرفناه بالغربي، حتى أصبح الغربُ شماعة نلقي عليها تخاذلنا وقصورنا وتقهقرنا الحضاري، ونحن نعلم تمام العلم الذي لا يشوبه شك بكل التآمرات التي انحدرت من الغرب، وبأشكال مختلفة وعميقة أيضاً. وهي مسلَّمات تاريخية بديهية لا تقبل الجدل، فالاستعمار المادي والنظري شتت الذات العربية وكرَّس مفاهيمه الإمبريالية الانهزامية الذاتية حتى أوصلها إلى درجة التسليم بتفوق الآخر وعدم المقدرة على تحقيق الموازنة معه بأي حال من الأحوال، كما أنه أوصلها إلى التشرذم الحضاري ـ من جانبه الفكري السطحي ـ الذي فقدت معه عناصر قيامها، وعوامل نهضتها، فقطع حبال وصلها بالتاريخ عن طريق تشكيك الكثير من المستشرقين في كثير من المسلمات التاريخية العربية، وتدخلهم اللامبرر وبدون اتباع الأسس العلمية في الأبحاث، تحملهم نوايا هدامة فتضيع عليهم شروط البحث العلمي الصحيح، ومبررات الحرب على العراق برهانٌ على امتهان العقل البشري، وتسفيه للعلم حين أظهرت الدلائل المبرّرة للحرب زيفاً وخداعاً..!! وغير ذلك من السلوكيات التي تنفي عنهم المصداقية الفكرية في بعض الشؤون الخاصّة بالعالم العربي كقيام الدولة الفلسطينية ذلك الحلمُ الموهوم..! وهم الذي ينتمون إلى الحضارة التي قامت بالعلم أفلا تحملهم مقتضياته وأساسياته إلى انتهاج الأساليب العلمية الصادقة لبرهنة الحقائق، وما لهم يضربون عرض الحائط وجه كل من تسول له نفسه مبارزتهم بنفس السلاح الذي اعتقدوا أنه السبيل الحقيقي لنهضة الشعوب وتقدمها، وهو المنهج العلمي العملي الدقيق حين أنكروا على المفكر الفرنسي المسلم روجيه غارودي جهوده واتهموه بالعنصرية ومعاداة السامية، والدلائل والبراهين لا تحصى على التخطيط الدؤوب الذي تحركه الصهيونية بحبال دقيقة، وهي مسلمات يعلمها العربي تمام العلم، ولكن ثمة سؤالاً أصبح يلح عليه وهو: كيف يكون المخرج؟ يبحث عن التجاوز، عن نفي الارتهان إلى المسلم التاريخي الجدلي، يبحث عن

الأفكار التي تنتشله من مغبة الاحتقان المعيشي، يبحث عن الانفراج الذي يمكنه من القيام على قامته، ونحن هنا نقول إنه لا مجال لذلك إلا بالخروج من دائرة تعليق الأخطاء إلى المواجهة.. ليس مع الآخر وإنما مع الذات، وتجلية عيوبها، وتشريحها ثقافياً، وانتهاج الأسلوب السليم الذي تحمله نوايا صادقة وحقيقية في عملية النقاش تلك، هناك الكثير من الثوابت والكثير من المتحولات وهذه الأخيرة قابلة للنظرة الجادة التي تخدم الوضع الحضاري وتعيد التاريخ إلى نصابه الصحيح، ويؤكد المفكر العربي محمد عابد الجابري على أهمية " إعادة بناء الثقافة من داخلها وممارسة الحداثة في معطياتها وتاريخها، وفي ذات الوقت اكتساب الأسس والأدوات التي لابد منها لدخول عصر العلم والتقانة وفي مقدمتها العقلانية والديمقراطية" وفي اعتقادي بأنه الطريق الأوحد إلى إعادة الشكل الحضاري بصورته الجديرة بالاعتبار بدلاً من جعل الآخر على طول الخط حبالاً لنشر الغسيل، يذكرني هذا بمقولة سيدنا عمر بن الخطاب لقائد جيشه إن هزمت فليس لقوةٍ في عدوك وإنما لضعفٍ فيك..!! هذه هي القيمة التي يجب أن يدركها العربي المسلم.

هكذا تبدو العقلانية أكثر تقبلاً من جاهزية الاتهامات التي مع صدقها فإنها تثبط المعنويات، وتكريس الروح الضعيفة الخانعة، ولا تمد الشريان النفسي بأية منشطات حيوية تساعد القلب على استعادة رتم نبضاته السليم، فليس من سبيل للانتشال من الغرق سوى إعادة الإنتاج الثقافي وترسم طريق موضوعي تساهم فيه الأفكار بدور كبير، وتخضع من خلاله " الأنا " لمحاسبة متعقلة، فاعلة، غير منحازة، وحين سنطوي ملفات الجدل الثقافي عند الانتهاء من اتهام الآخر ونركنها للتاريخ، فإن الإجابة القادمة كامنة بأي حال من الأحوال فينا دون أية مواربة أو خديعة، وهو المخرج الحقيقي..

قيمة النظرة نحو النّفس

النفسُ وعاءُ الشخصيَّةِ، ومنطلق نظرتها للحياةِ، يترتّب على مستوى النظرةِ إليها أمور شتىَّ لها بالغُ الأثرِ كصياغةِ المشاعرِ، وتشكيلُ الأمزجةِ، وتحديد الميول، ونشأةُ الأفكار. تعطي بقدرِ ما توهب، وهي ذاتُ ألوانٍ متفاوتةٍ، وأمزجةٍ تصلُ بها الحالُ إلى الضد..! فهي الأمّارةُ بالسوء ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف: ١٢/٥٣]، وهي ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٨٩/٢٧]، وبين الأضداد تكونُ سعةٌ من الألوانِ لا تحصى ولا تعدّ..!

في الأزمنةِ التي تتتابع على الإنسانِ، تختلفُ فيها نفسهُ بحسبِ ما يعيشهُ من تجاربَ، وتمرُّ عليه من خبرات. فإن لم يُدرك قيمةَ ما يمرُّ عليه من أحداث إدراكاً عقليَّاً رصيناً، وإن لم يفقه حكمةَ التجربةِ التي خاضها، فإن نفسهُ ستكونُ مهلهلةً متقلِّبة المزاجِ، لا يُعرفُ لها قرار، ولا تدرك لها مبادئ، ولا يُعرف لها قيم..!! أمّا النّفس التي استلهمت من التجارب الصورةَ والمعنى، والقولَ والحكمة، والفعلَ والمعنى وعجنت ذلك بالتفكيرِ والتأمُّل، والحوار البنّاءُ والنقاشُ الهادفِ، فهي النّفس التي تنالُ مكسبها الحقيقي من حصَّةِ الرصانةِ، واللباقةِ، والنباهةِ وهي، وإن كانت سمة الكبيرِ الذي تحيطهُ النفس الناضجة بالحكمةِ والرزانةِ في القولِ والفعل، فإنّها ليست حكراً عليه.

وكقيمةٍ ثقافيةٍ ضمنَ بُنيةِ الهويَّةِ لمجتمعاتنا العربيةِ الإسلامية، تظهرُ النّفسُ كمسؤولٍ عن الفعلِ الإنسانيِّ، ﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾ [النحل: ١٦/١١١] وهي المجزيَّةُ عن الفعل والقول الإنسانيين ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾ [طه: ٢٠/١٥]، إنّما لنأخذ إحدى الزوايا التي نريدُ أن نسقط عليها بقعةً ضوءٍ ساطعةٍ وهي نظرةُ الكثيرين في مجتمعاتنا بصورةٍ سلبيّة نحوها ونحو غيرها

نظرةً تفقدُ فيها النّفسُ اتزانها، وتخرجُ بسببها من إطارِ التكريم الرّباني لها بصفتها نفسّاً فاعلة، مثمرة تعرفُ معنى الأحداثِ، وتفقهُ دلالات الأفعال..!

لقد شهدتُ نظرات بعض النّاس نحو أنفسهم، نظرات سلبيَّةٍ، حيث انتزعوا منها الثِّقةِ، ووصفوها بصفاتِ الهزالِ والضّعفِ والهونِ، ووسموها بالتخاذلِ والتكاسلِ والوهنِ، ونعتوها باضمحلالِ الإمكانات، وقلّةِ المواهبِ، وغياب القدرات..! مما جعلهم ضعفاء في أنفسهم قبل أن يراهم الآخرون كذلك، حتى إن قاماتهم قد بدا عليها الانحناءُ وهي شابَّة، صحيحة، معافاة..!

وهذه الصفات وإن تكنُ عامَّةً في كلِّ المجتمعات، وأن مثل هؤلاءِ النّاس كثيرون في الأمم، إلّا أنني شملتُها في القيم المعطّلةَ لأن مجتمعاتنا مسلمة، وسمةُ هذه المجتمعات أنّها ترتكزُ على نفسٍ أكرمها الله، ووهبها أجمل ما وهب عباده؛ وهو الإيمانُ وما يتبعهُ من علاجاتٍ كالصّبر ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ٣١/١٧]، والذّكر ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ١٣/٢٨]، كما روى البخاري ومسلم عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض، ورب العرش الكريم".

والتوكُّل: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٩]، و في الحديث: " لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً و تروح بطاناً " رواه أحمد والترمذي.

والاحتسابِ، فقد روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: "احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإذا أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا، ولكن قل، قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان"، والنظرةِ السّاميةِ التي تجعلُ الله خالقَ الكونِ ومدبِّر شأنهِ هو المستعان على كلِّ أمر حميد.

والإسلامُ حارب الضّعف، فقد روى مسلم عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف" وجاء في الأثر

أن نبينا محمداً ﷺ سمع رجلاً يدعو ربّه: اللهم قوِّ ضعفي!! فقال له عليه الصلاةُ والسلام: "لو قوى الله ضعفك لكسر ظهرك، بل قل اللهم قوِّ ظهري"..! فسيدنا عمر بن الخطاب يضربُ رجلاً بالدرَّةِ كان يدعو ربّه، وهو في منتهى الضعفِ والهنَةِ، قائلاً له: لا تمت علينا ديننا أماتك الله..!!

كم أرى من هؤلاءِ الناظرين إلى النصف الفارغ من الكأس أولئك السلبيّون الذين لا يرون الأشياءَ إلّا بلونٍ واحد..! فكلّما رأيت أحدهم وهو شاب، أراه وكأنّه يحملُ على كتفيه أحمال الدنيا، فهو متشائمٌ قانط، والله يقول:

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ١٥/٥٦].

كم رأيتُ من النّاس من يبخسُ نفسهُ حقَّها، فإذا قلت له أنت تستطيع أن تفعل كذا وكذا، ردَّ عليك بالقول: إنني قاصرٌ عن هذا الفعلِ، ولستُ أهله، وهو في هذا المقامِ ليس ممن يعرفون قدر أنفسهم، وإنّما ممن يبخسون حقَّ أنفسهم، وما كمن فيها من مواهبَ، وما منحها الله من هدايا..! وكم رأيتُ من إذا نظرَ إليكَ لم ير منك إلّا ما يراهُ سلبيّاً، فكأنّه يبحثُ عن جانبَ القبح فيك جاهداً مجتهداً علّه يظفرُ بخصلةٍ من الخصالِ السلبيّة كي يطفئ بها غلواءِ نفسه، ويبرّد بها عيونه..! فلا تحملهُ نفسه أن يمتدح المحاسنَ مهما ظهرت فهو محجورٌ عنها، لأنَّ نفسهُ المظلمة لا تراها أو تكرهُ أن تراها..! يرى المعايب فحسب، وهو لا يدري أنّه بذكره معايب الآخر إنّما يصبغ عليه النُّبل:

ومن ذا الذي تُرضى سجاياهُ كلّها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه..!!

إن قيمةَ النظرة المنصفةِ للنفسِ في مجتمعاتنا قد عطّلت من لدنِ الكثيرين في مجتمعاتنا لضيق فهمهم إيّاها على هدي الدّين الحنيف، فتركوها رهنَ المصادفات، والمواقفِ، وكأنّها رايّةٌ يقلّبها الهواء حيثما هبّ..!

تقول الدكتورة ليندا كارسنسن من جامعة ستراتفورد الأمريكية في دراسةٍ لها: إن الشعور بالاكتفاء يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالملاحظة الحسية لسرعة مرور الزمن، وبفقدان التواصل الملموس بين كل من المراحل الزمنية الماضية والحاضرة. وهذا مردّه إلى أن الإنسان عموماً يخطئ في تقييم أحاسيسه خلال المراحل

الزمنية المرتبطة بالماضي، ويفشل في تحديد توقعاته المستقبلية، وذلك بسبب عجزه عن الاستفادة من وقع مشاعره تجاه الأحداث المنصرمة.

فالذاكرة البشرية، كما تؤكد الدكتورة ليندا كارستنسن، صاحبة هذه الدراسة، تعجز عن استعادة المشاعر المرتبطة بحادثة سابقة، حتى ولو تمكنت من تسجيل صور أحداثها بدقة ووضوح. بمعنى أن الذاكرة لا تتمكن من تسجيل دقائق الأفكار والأحاسيس الماضية بالدقة التي تسجل بها الصور، الأمر الذي يحدث فراغاً بين الحدث وبين كيفية التفاعل تجاهه في الذاكرة. لذا فعندما يتكرر هذا الحدث لاحقاً، فإن الانفعالات الآنية تجاهه، تكون بحدة الانفعالات السابقة نفسها، لأن ذاكرتنا لا تكون قد حصّنتنا بالمناعة الكافية لمواجهة وقوعه. وعندما يطلب منّا أن نتوقع ما قد نشعر به، في حال واجهنا الظروف نفسها في المستقبل، فإن أدمغتنا تعجز حتماً عن إمدادنا بالجواب الصحيح.

إن النظر الإيجابي - بناءً على ذلك - يبدأ بملامسةِ الواقع بالصورةِ الإيجابية، وهو ما يُسكنُ الاطمئنانَ الداخلي، ويبعثُ على الراحةِ النّفسيّة، فالنظر الواقعيُّ يطردُ القلق والخوف من المستقبلِ المجهول، ويقوِّي التوقعات، ويعزّز السيطرة على القلق، وحيثُ إن النظرةَ الواقعيةِ هي إحدى القيمِ في هويّتنا فإن فقدانها يعني إلحاق الضرر بالهويّة. سأل أعرابي النبي ﷺ، وقد ترجّل الأعرابي عن راحلته: هل أتركها وأتوكّل؟! فقال له النبي: بل اعقلها وتوكّل.." وهذا هو الارتباطُ بالواقعِ من خلال الارتباطِ بالأسباب والمسبِّبات..وذات يوم سألت أحد الشباب الإنجليزي: ما هي خطتك الآن؟! فقال: إنني أدرس التخصص إلى جانبِ دراستي للغةِ الألمانية، وحينما تكونُ ألمانية مركز الوحدةِ الأوربية سأرحل للعمل هناك..! وهذا يعني أن الأهداف المستقبلية لا تصاغُ بعيداً عن أرضِ الواقع أو بالحظ.. بل بالتخطيط الواقعي البنّاءِ الذي يحسبُ للأمورِ حساباتها التي لا يداخلها الخيالُ ولا الأوهام.

إنَّ ما يلخِّصُ بخسَ النَّفسِ في مجتمعاتنا، تلك البدعةِ التي أضرَّت بالنَّفس ورؤيتها والمتمثلةِ في قول "أنا.. وأعوذُ بالله من كلمةِ أنا..!! " حتى صارت

كلمةً مقيتةً عند البعضِ فلم يستمرؤوها، ووسموا صاحبها إن لم يكن جهراً فباطناً بالكبرياءِ والغرور. ليس لشيءٍ، وإنّما لأنَّها وردت على لسانه..! حتى أضحت كالشوكةِ توخزُ قلب السامعِ كلّما قال محدِّثهُ "أنا"..!! ولعمري فماذا يقولُ إن لم يقل أنا؟!

هذا الظنُّ بين قول الغرورِ وبين تبيانِ الحقيقةِ ليس مما لا يسهلُ تفنيده لدى السامعُ الأريب، فمن اتَّسم بالغرور والكبرياءِ فإن سماتهُ هذه ظاهرة لا تحتاجُ إليها كلمة أنا وإن كانت مساعدة لها..! أما من يقولُ كلمةَ "أنا" على سبيل الاعترافِ أو التدليلِ أو الشهادةِ فلا ضيرَ فيها إذا لم يخالطها رياءٌ أو زيفٌ.

قالت لي إحدى الأمهات، وقد كنّا في معرضِ الحديثِ عن التربيةِ وعن التعليم: إنّ معلّمةً ضربت طفلها الصغير ذي الخمس سنواتٍ على ظهر كفِّه الغضِّ، محتجَّةً عليه لأنّه قال "أنا"..!! قائلة له وهي تضربه: " أنا من الشيطان"..!! ولشدَّ ما أغضبني هذا الأمر وأثار امتعاضي.

هل يعرف هذا الطِّفل ذي الخمس سنوات شيئاً اسمه "الغرور" أو "الكبر" أو "الفخرُ بلا أساس".. هل ترى الطفل قد استفزّها كما استفزَّ المتنبي سيف الدولةِ حين قال:

سيعلمُ الجمعُ ممن ضمَّ مجلسنا بأني خير من تسعى به قدم..؟!!

ألا تتولّد لدى هذا الطّفل عقدةُ "الأنا" في حياتهِ بسبب ضربِ هذه المعلمةِ له في نعومةِ أظفاره؟! ألّا تتسبب هذه العقدةِ في نظرتهِ السلبيَّة تجاه نفسه في مستقبلِ الأيّام؟! قلتُ للأم: اذهبي واسألي حيث ترين المعلّمةَ بين زميلاتها المعلمات واسألي: من معلّمةُ ابني فلان؟! ستجيبك حتماً بقولها: "أنا" لأنّه لا مفر من هذه الإجابة..! قولي لها: فهل "أنا" - الآن - من الشيطان أم أصبح لها تفسير آخر لأنك أنت التي قلتيها..؟!

يا للغرابةِ من هذه البدعةِ في مجتمعاتنا، فكلّما قال قائل أنا على سبيل الإقرار أو التدليل قال: "أعوذُ بالله من كلمةِ أنا.." وهو بعيد عن الغرور والكبر..!! وإن لم يقلها شعر من يسمعهُ بوخزٍ في داخلهِ يحدِّثه بأن المتحدِّث قد

لبسه الغرور حينما قال أنا، فإذا تكررت شعر السامعُ بالامتعاض..! لقد اختلط الحابلُ بالنّابل، فأصبح تعقيب "أعوذ بالله من كلمةِ أنا" يقال بمناسبةِ أو غير مناسبة، فهو ملصق بـ "الأنا" وكأنّما يمحقُ حقّها في الوجودِ، وهو في الحقيقةِ يمغط النَّفس حقها في الحياةِ، وينتهكُ حريَّةَ الفردِ في إثباتِ وجوده، وإقرار قولهِ وفعلهِ من خلال "الأنا".. أناه الشخصيَّة..!

كيف لقائلٍ أن يقول: أعوذُ بالله من كلمةِ أنا، ونبي هذه الأمة يقول: "أنا سيّد ولد آدم يوم القيامةِ ولا فخر"، ويقول وهو يحمِّس الصحابة في أحد المعارك: أنا النّبي لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب..! والله يقول له في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠/١٨]، ويروى عن السيّدة عائشة أم المؤمنين قولها في حديثٍ أخرجه البخاري في صحيحه: "كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ مِنْ قَدَحٍ يُقَالُ لَهُ الْفَرَقُ"، فهل تصبحُ "أنا" من الشيطانِ إلّا أن يخالطها غرورٌ، ويتلبّسها نكران، ويمازجها غرور؟!

وكم قلتُ لمتحدِّثٍ أسمعه يقول: أعوذُ بالله من كلمةِ أنا، لا تقل هذه العبارة وقل أنا وأنت تقصدُ الحقَّ، فالإنسانُ لا يدركُ أنّه يمارسُ عادةً سلبيّةً في حقِّ نفسه، وإن كان البعض يدرك ذلك فهو يخشى المجتمع، وما يقالُ في حقّه إن كرّر كلمةَ أنا دون كبرياءٍ أو زيف أو تحذلق.. إنّما ليثق أن السامع الحكيم، الراجح الذهنِ لا يدور في خلده التفكير بأن محدّثه إن قال أنا فإنّه آثمٌ قلبه..! وليس عليه أن يُقنع النّاس بأن نفسه خاليةٌ من الكبر، وليثق أن بعضُ الكبرياءِ - إن أخذ في جانبه الحَسن - فهو من شموخِ النّفس، وعزّتها فهو خصلةٌ محمودة فلا ضير أن يقول أنا إن كان في معرض الحديث عن نفسه إقراراً أو تبياناً أو افتخاراً محموداً.

إن أذنَ السامع لتميِّزُ بين الصدق والباطلِ لمعرفةِ سيرةِ المتحدِّث وليس لمجرّد أنّه قال: أنا، يميِّز بين ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢]، وبين ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَـِٔسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩/١٢]، الاثنانِ قالا أنا، إنّما الأوّل شيطانٌ، والثاني نبي..!!

وأذن السامع تميِّز قول صاحب الجنّة لصاحبه: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٤]، ورد صاحبه عليه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٩]، فقولُ الأولُ قد خالطهُ الغرور ونكرانُ النّعمة، وقول الآخر قد خالطه التواضع والشكر، وكلاهما قال "أنا"...!

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "مَن أصبح مِنكم اليوم صائماً؟" قال أبو بكر: أنا، قال: "فمَن تَبِعَ مِنكم اليوم جنازة؟" قال أبو بكر: أنا، قال: "فمَن أطعم مِنكم اليوم مسكيناً؟" قال أبو بكر: أنا، قال: "فمَن عادَ مِنكم اليوم مريضاً؟" قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: "ما اجتمعنَ في امرئٍ إلا دخل الجنَّة" رواه مسلم.

ليست مقولةُ (الأنا) إذن معضلة، بل هي حتميَّةُ الحضورِ؛ لأنَّها تجسِّد حضور الإنسانِ وكينونته، فإن ألغاها فقد ألغى حضوره شرط أن يكون الحضورُ واقعيّاً، يتماشى مع فكرةِ المنطقِ، ويتلاقى مع حكمةِ الله التي أراد للنّفس أن تتمثّلها.

القيمة المفقودة بين الأشياءِ والأفكار..!

نحنُ جزء مما يحدثُ في العالم، إذ أصبحنا - كغيرنا - حلقةً في سلسلةٍ طويلةٍ لكنّها تتأثَّرُ بأيّةِ عواملَ، ولَا منجاةَ لدولةٍ أو لشعبٍ من هذا التأثير، والأزمةُ الماليَّة أو الاقتصاديّة بشكلٍ أوسعَ هي أكبرُ دليلٍ تاريخي على هذا التأثُّر. ليسَ تأثُّراً عاطفيّاً، وإنّما تأثر مادي وفي جوانبَ مختلفة، لكن ما الذي غيَّره فينا هذا التأثُّر؟! هل تعلّمنا شيئاً في الاقتصاد، وفي إدارةِ شؤوننا الماليّة؟ هل راجعنا سلوكياتنا فيما يخصُّ بطريقةِ اقتناءِ الأشياء، وتكديسها؟! إنني لا أعتقدُ ذلك على الأقل عند السوادِ الأعظمِ من النّاس..!! هؤلاءِ الذين يتركون للمصادفة أن تؤدي دوراً في حياتهم، وللرياحِ أن تسيِّرهم في هياجٍ أو هدوء..! هؤلاءِ الذين يصرفونَ حينما تمتلئ جيوبهم، ويُحجبون حينما تفرغ..! كثيرون صحوا في فترةٍ سابقةٍ على غلاءِ كلِّ شيءٍ، وهم معدمون من المال، فأمسوا أغنياءَ لأنّهم باعوا أراضيهم بأثمانٍ خياليّة، وحدث لجب وصخب، هذا يبيعُ وهذا يبحثُ وانتعشَ السماسرةُ، وارتفعت أسهمهم، وأكثر كثيرهم من الحلف والقسم لينالَ حصّته من هذا الكنزِ الذي نزلَ فجأة..! ثم ولّت تلك الفترةَ وأعقبها محول وقحط.. ألا يذكّرنا ذلك بالفترةِ التي تولى فيها النبي يوسف عليه السلام وزارة الاقتصاد في مصر؟! سنوات خصبة، ثم سنوات جدب..! لكن السرَّ الذي جاءَ به النبيُّ يوسف عليه السلام يكمنُ في: الاقتصاد..! في حين تنسى مجتمعاتنا أن الأيامَ دول، وأن لكلِّ خصب محولاً، وكلَّ اخضرار يتبعهُ يباس.. فتجدُّ في تكديسِ الأشياءِ، جدّاً حثيثاً، وتطلبها طلباً ملحّاً.. يقول الفيلسوف مالك بن نبي: "إن قيمة مجتمع معين في فترة ما من تاريخه، لا يعبر عنها بمجموعة الأشياء في هذا المجتمع، ولكن بمجموعة أفكاره"[1] هذه الأفكار هي التي تقنِّن عمليةَ اقتناءِ (الشيءِ) وتضعُ له شروطه وقوانينه.

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (سلسلة مشكلات الحضارة)، دار الفكر، دمشق.

أغلبنا يهرعُ وراءَ (الشيءِ) لاقتنائه، ولا يُدركُ مزاياه، ولا يعقدُ المفاضلات بينهُ وشبيهه، ولا يسألُ نفسهُ عن مدى حاجته إليه.. إنّما تقودهُ الأهواءُ، أو الرّغبة، أو العادة..! وانظر إلى هذه الأفواجُ من الناس التي ترتادُ الأسواق، وهي تسعى لاقتناء الأشياء، واسأل نفسك: هل هم موجودون بالفعلِ لأنّ حاجة دفعتهم لذلك؟ وإذا كانت هناك حاجة - وهي في الغالب كذلك - فهل عرفوا إلى أيِّ مدى هم (محتاجون) للشيء الذي سعوا وراءه؟! فقد تكون حاجة وقتيَّة، ثم تُركنُ الأشياء، أو لحاجةٍ غير مؤسّسةٍ على تفكير، أو تصوّر ثم يعقبها ندمُ الشراءِ..! كثير من الناس لا يسألون أنفسهم وهم يقتنون (الأشياء) هل هي مناسبة، لم هذه تحديداً، لم ليس غيرها، ما الذي يميّزها عن سواها، ما فائدتها..؟! أسئلةٌ كثيرة لكنّها ضروريّة لو أراد الإنسانُ أن يحكمَ عقالَ أمره، ويديرَ بكفاءة ماله.

لقد أعجبتني نصائح رجل من أغنى أغنياء العالم الملياردير (وارن بافيت Warren Buffet) إذ يقول: المال لا يصنع الرجل بل الرجل هو الذي يصنع المال، عش حياتك بكل بساطة وعفوية، لا تنجرف وراء الأسماء التجارية، والبس ما تشعرُ نحوه بالارتياح (وهذه نصيحةٌ هامّة)، لا تضع نقودك في الأشياء غير الضرورية، أنفقها فقط في الأشياء الضروريّة (وهذه نصيحةٌ أهم). هذا رجل استطاع أن يكوّن في سنواتٍ معدودة رأسمالٍ قدره ١٠٠ مليار دولار، دون أن يرث غنى، أو أن يتولى تجارة عائليّة؟!! لكنّه مع هذه الثروة الطائلة ما زال يسكنُ في البيت نفسه المكوّن من ثلاث غرف في وسط بلدة أوماها، والذي اشتراه بعد زواجه منذ ٥٠ عاماً..! بيت لا يحميه سور أو جدار خارجي..! يقودُ سيارته بنفسه، وليس لديه حرس، ولم يسافر بطائرة خاصة بالرّغم من أنّه يملك أكبر شركة طيرانٍ في العالم..!! قد يقول عنه بعض النّاس للوهلةِ الأولى إنّه بخيل..! وهنا أذكر إجابةً على هذه السؤال تبرّعه لمؤسسة (بيل جيتس) الخيرية بمبلغ ٣١ مليار دولار، وهو ما يوازي ٨٠٪ من ثروته. فهل هذا بخل..؟!

النصائح والمسلكيات التي ينتهجها (وارن بافيت) هي في صميم ديننا نحن اللاهثون وراء المظاهر، والمكنّزون للأشياء، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣١]، ونبيّنا الكريم قد بيّن أساساً هدفهُ الاقتصادُ وتوطيد شبكةَ علاقات المجتمع بقوله " من كان له فضلُ زادٍ فليجد به على من لا زاد له". فهل يتفضّل الجارُ عندنا بالشيءِ (الزائد) على جاره؟! وما مؤاخاةُ الأنصارُ والمهاجرين إلّا أبلغ مثلٍ على ذلك..! في إحدى الدول الغربيّة، تقومُ جمعيّاتٌ بتجميع (الأشياء) من الناس، ثم إرسالها إلى دولٍ إفريقيّةٍ بالأخص، تخدمُ به الإنسانيّة، وتهدفُ به إلى خدمةِ التبشيرِ في تلك الدول..!!

أمّا نحنُ فغنيُّنا يكدِّس، ولا يشبعُ من التكديس، يتزوّد بما ينفعهُ وما لا ينفعهُ، وتزدادُ حمّاه، ويلهثُ قلبه كلّما زارَ مدناً عالميّة كلندن، حيثُ يشهدُ عليه مركز "هارودز" الشهير..!! يخبرني طبيب صديق كان في دورة تدريبيّة في إحدى العياداتِ البريطانية أن إحدى الخليجيات قد غضبت عليه حينما قال لها ناصحاً: من الأفضلِ لك أن تقومي بإجراء عملية تجميلِ الأسنان في بلدك لأنها هنا ستكلّفكِ ١٠ آلاف جنيه إسترليني..!! ولأنّها كانت مدفوعةً بالمظاهرِ، والتفاخرِ كي تزعم لاحقاً أنّها أجرت عمليه تجميل أسنانٍ في بريطانية، لم تستمع لنصيحة طبيبٍ يعرفُ سرَّ المهنةِ، ويريدُ أن يُسدي النصيحةَ المخلصةَ لها..! ولعلّ إجابةَ هذه تشبهُ حال كثيرين نُصحوا عن عدم شراءِ أشياءَ فقالوا: هل المالُ مالكم؟! ظانِّين أنّه الحسد، ولقد كان الحرص عليهم! وإذا كنتُ أتحدّثُ عن تصرّفات الكثيرِ من الأغنياءِ لدينا، فإنني لا شكَّ أيضاً متحدّث عن سلوكياتِ بعض الفقراء، فهم أيضاً لا يملكون الطريقةَ المُثلى التي تقودهم لاقتناءِ (الشيء)، تجدُ الواحد منهم يتّبعُ المثل القائل "أنفق ما في الجيبِ يأتيك ما في الغيب..!!" وهذا مسلكٌ خاطئ إلّا أن يُنفقُ لخير، أو لصدقة " فما نقصَ مالٌ من صدقة" حديثٌ شريف. وهم إن وقع بعضُ المالِ في أيديهم سارعوا إلى اقتناءِ (أشياءَ) لا يحتاجون إليها، أو غير ذات حاجة، فإذا فرغت أيديهم من المال، توجّهوا

إلى نقدِ الأغنياءِ المبذّرين..!! وهم في هذا المسلكِ سواء، فكما قال (وارن بافيت): المال لا يصنع الرجل، ولكن الرجل هو الذي يصنعُ المال.. هذا الرّجل الذي اقتنى أرضاً وهو صبي، عاملاً بمثلنا الشعبي القائل: "إذخر دك ولا لكَّ" أي امتلك أرضاً واجعلها سنداً لك، أفضلُ من امتلاكك لنقودٍ كثيرة..! إنّما كثير من الشباب، سارعوا فور حصولهم على قطعة الأرضِ ببيعها بثمنٍ بخسٍ، ثم تبخّرت نقودهم في أشياءَ لا يلمسونها، ثم عادوا يندبون حظوظهم بعد فوات الأوان..!! لكنَّ أحد الأصدقاءِ الذين كانوا ممن باعوا أراضيهم - اليتيمة - استشارني سائلاً: هل أزيدُ على ثمنِ الأرضِ وأتزوّج، أم أواصلُ دراستي في كليّة خاصّة؟ قلتُ له: بل العلمُ هو خيارك الذي أجدهُ لك، فبه سيتحسّنُّ مستواك المعيشي، وحينها تستطيعُ أن تعيش بمن اخترتها رفيقةً لحياتك عيشةً هانئة.

لقد شهدتُ مسلكَ امرأتينِ عربيّتين: الأولى لا تتبعُ أسماءَ (الماركاتِ) الكبيرةِ في انتقاءِ ملابسها، وإنّما تتّجهُ إلى الأسواق الصغيرةِ أو التي تبيعُ الملابسَ بأثمانٍ أرخص، أمّا الثانية: فهي لاهثةٌ وراءَ (الماركات) والأسماءِ اللامعة، وحين تلتقيانِ تسألُ الثانيةُ الأولى وهي تشاهدُ - بإعجابٍ - روعةَ التناسقِ: من أينَ اقتنيتِ هذه الملابس؟! إنّها الفكرةَ، والذّوق وليست النقود ولا (الماركات)..!

إننا بحاجة إلى مراجعةٍ في حياتنا الاقتصاديّة، أمورنا الماليّة، لأنَّ المالَ هو أمانة قبل كلِّ شيء، إلى التثقُّفِ الاقتصادي، إلى إدارة شؤون أنفسنا، إلى إدارة شأن بيوتنا من هذه الناحيةِ، وفي هذا الصَّدد فإن المرأةَ يجبُ أن يُناطَ لها مسؤولية البيتِ وإدارةِ شأنهِ الاقتصادي فهذا أجدى من أن تقوم بواجبِ الاستهلاك.. فمن لا يُكوّن ثقافةً، من لا يُحسنُ الانتقاء، من لم يشاهد ما يقارنه، من لا يعرفُ قيمته لن يكون مكترثاً بقدرِ من يعرفِ كلَّ ذلك.. وهنا فإنني أُشفق على كثيرٍ من الرّجالِ وقد تولّوا أدوار التّسوق الاستهلاكي بدلاً من زوجاتهم..

في حينٍ أرى أن طبيعةَ المرأةِ التي تتسّم بالهدوءِ، والصّبر تساعدها على عمليةِ الانتقاءِ والمقارنةِ بشكلٍ أفضلُ بكثير عن الرّجل العجول في طبيعته..!

نحنُ كمجتمعات فقراءُ في الاقتصاد، لكنّنا خبراءُ في الاقتناءِ والتكديسِ والتّخزين، ولا يعوزنا في هذا الفكرة، وإنّما العمل الذي يُبلوّر الفكرةَ إلى واقع، يقول مالك بن نبي: "إن الذي ينقص العربي ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، وهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاماً مجرداً، بل إنه أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً، ويقولون كلاماً منطقياً من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط"[١]، وهو كلام عام نجدهُ يحتوي هذه الفكرة.

أموال تُصرفُ بلا حاجاتٍ فعليّة، و (أشياءَ) تُقتنى بلا ضرورةٍ، ومكالمات هاتفيّة تُجرى بلا طائلٍ ولا جدوى، ومشاوير تُقضى بلا منفعة، وكلّ هذه الأشياء لا تُفضي إلّا إلى تراجيديا كما حدث مع (جوان كونان Joan Cunnane) ذات السبعة والسبعين عاماً، من سكّان مدينة (Heaton Mersey) البريطانية فقد اشتهرت هذه المرأة بإدمانها التسوُّق (Shopaholic) وذلك باقتنائها للأشياءِ بشكلٍ جنوني، حتى غصَّ بيتها بـ(الماركات) من كلِّ صنفٍ ونوع..! لكنّ نهايتها كانت بما جنت يداها، إذ سقطت عليها مجموعة من الحقائبِ المكدّسة فدفنتها حيّة..!! وحينما دخل فريق التفتيش بيتها وجد كنزاً من الأشياء الثمينة يحتوي على مظلّات، وشموع، وأدوات زينة، وجواهر، وحلي، وملابس، وأدوات كهربائية، وركام من أشرطة الفيديو، أغلبها لم يُفتح..!![٢]

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (سلسلة مشكلات الحضارة)، دار الفكر، دمشق.

(٢) صحيفة الميرور البريطانية، في ١٣/ ١/ ٢٠٠٩.

قيمةُ النظام

حكى لي أحدُ العربِ الذين يعيشون في المهجر الأوربي قصَّةً ذات دلالةٍ رمزيَّة، يقول فيها إنّه سافر براً إلى إسبانية وإيطالية، وفي طريقِ عودتهِ مرّ على حقول شاسعة تعمرها نبتة دوّار الشمس، وقد بهره جمالها ومصافحةِ ذوائبها المزهرة لنورِ الشمس، كأنّها أعينُ العازفين تتابعُ حركاتِ عصا المايسترو..!! وحين وصلَ حدود دولتهِ العربيَّة إذ بالفوضى تعمُّ الأرجاءَ، وتتفشّى في المكاتبِ، فوضى عارمةٌ تتجسّدُ في حركاتِ موظفي الحدود وفي أحاديثهم..، ومصادفةً مرّ على حقولِ دوّار الشمس في دولته العربيَّة فرآها لا تُشبهُ تلك التي رآها في البلدِ الأوربي، رآها في منظر متنافر، فمنها ما قد تغضّن ساقهُ، وما ذبلَت أوراقهُ، ويبسَت زهوره، كلٌّ مُولٍ إلى قبلةٍ يرضاها..! وكأنَّ فوضى الناسِ قد تجسّدت في هذا الحقلِ الذي عُرف نباتهُ باتباعهِ لحركةِ الشمسِ، واتجاه ضيائها..!!

فوضى معاشة في المجتمعات العربيَّة، وهي فوضى ذات صبغةٍ معنويَّة وماديَّة، فالمعنويَّةُ تتجسَّدُ في فقدان الضبط الإيقاعي على عناصر الحضارةِ التي يسمّيها الفيلسوف الراحل مالك بن نبي: الإنسان والترابُ والزّمن..!! ولعلَّ فقدان التخطيط الاستراتيجي ذي الأبعاد الزّمنية هو مؤشِّر واضحُ لهذه الفوضى التي تعمُّ المجتمعات العربيَّة.. "حبر على ورق" هكذا توصمُ الخطط الاستراتيجيَّة، والدراساتُ والأبحاثُ التي لا تجدُ القرارَ الفعّال الذي ينقلها من فكرتها إلى أرضِ الواقع.. كلَّ شيء يُتركُ للمصادفة.. على منوالِ الشاعرِ العربيِّ "دعِ الأيّام تفعلُ ما تشاءُ"، وعلى منهجِ المثلِ العربي " أنفقِ ما في الجيبِ يأتيكَ ما في الغيب". إذا ما أُخذ هذا المثل بسطحيته غير مقرونٍ بفعلِ التّصدِّقِ والإحسان..!

كلَّ شيءٍ يمضي دون تخطيطٍ مُسبق.. السَّفرُ آخرُ لحظة، دون تخطيطٍ ودرايةٍ

ومعرفةٍ.. والمواطنُ العربيُّ الذي قابلتهُ في إحدى وكالات السفريات يمثِّل شريحةً واسعةً.. هذا المواطن جاءَ ليحجز تذكرة سفرٍ إلى إحدى الدول وفي أثناءِ انشغالِ الموظِّف باحثاً له عن خطوط الطيران المناسبةِ وأسعار التذاكر بادرني بالسؤال عن هذه الدولة التي ينوي السفر إليها، حتى لمستُ منه أنّه لا يعرفُ عنها سوى موقعها في الخارطةِ وحسب..! وحينَ أبلغهُ الموظّف بالسِّعر، قفزَ إلى دولةٍ أخرى بسبب سعرِ التذكرةِ المنخفض عن الأولى..!! أما المواطنُ الأوربي فيدرسُ بعنايةٍ البلدَ الذي ينوي زيارته، ثم يقرِّر قبل فترةٍ بعيدة ليمضي في حجوزات الفنادق وخطوط الطيران وغيرها.. أحد المعارفِ الإنجليز أبلغني نيّته زيارة إحدى البلدان العربيَّة وطلبَ مني المساعدة في حجز الفندق، وقمتُ بالتنسيق بينه وأحد المواطنين العرب لعمل الحجوزات.. كان العربيُّ مندهشاً لأنَّ المدّة فيها متّسعٌ من الوقتِ يزيدُ عن ثلاثةِ أشهر، في حين أن الإنجليزي قد حجز الكراسي المطلوبة مسبقاً ولم يتبقَّ له سوى حجز الفندق.

العربي يتميّزُ بالظّهور في آخرِ اللّحظاتِ في المطارِ والفنادقِ ليتوسَّلَ إلى الموظفين ثم إلى المسؤولين بالحجزِ له على أوّل رحلةٍ مغادرةٍ، أو أول غرفةٍ شاغرة..!!

في إحدى البلدان الأوربية، قرّرت عائلتان عربيّتان أن تقضيا ليلةً خارج منطقةِ سكناهما، ودون أن يتجشّما عناء الحجزِ عبر الشبكةِ الدولية (الإنترنت) حسم أربابهما الأمرَ بأن مسألة الحصول على غرف للنومِ سيكون أمراً مفروغاً منه نظراً لكثرةِ الفنادق.. لكنّ صادف خروج العائلتين إجازة تعطيل البنوك "Bank Holiday" وعادا بخفي حنين بعد أن ضيَّعا الوقتَ بحثاً عن فندقٍ تلو آخر.. حيث كان النزلاء قد حجزوا مسبقاً..!

الفوضى تعمُّ الشوارع والأسواق في ليلةِ العيدِ، التي لا تأتي مصادفة، وإنما وفقَ مواقيتَ معلومة، ومع ذلك تؤخّر معظمُ الأسرِ مشترياتها حتى ليلةِ العيدِ. حينها يبدأ التّدافعُ على السِّلعِ، والمزاحمةِ على مستلزماتِ العيد..!! ومن ليلةِ العيدِ إلى ليلةِ الاختبار حيث تبدأ (المذاكرة الحقيقيّة) والانكبابُ على

الكتابِ بعقلٍ مكدودٍ، وذهنٍ مُجهد..! هذه السلوكيات المنبثقة من فوضى داخليّة تناقض الأسس الإسلاميّة التي أقامت دولةً ذات أركانٍ خلال ثلاثةَ عشر عاماً بعد عشر سنين من التأسيس العقائدي..!

ولا يكتفي بعضُ العربِ أن يعيشوا الفوضى في بلدانهم بل أيضاً ينقلونها إلى بلدان يسودها النّظام، فأحد العرب بعد أن نزل مطار "هيثرو Heathrow"وضع سيجارته في فمهِ وبدأ يدخِّن حيثما يحظرُ التّدخين، فهرع إليه موظف الأمنِ ونزع منه سيجارته ثم داسها بحذائه قائلاً له: افعل هذا في بلدك..!! أما المواطن العربي الآخر فقادته فوضاه إلى أن يقفَ وراء سيّارات الإنجليز كل يومٍ، تاركاً زوجته المنقَّبة في السيّارة تدلُّ على هويَّتهِ العربية الإسلاميّة..!! حتى في ردود الأفعالِ أمثلةٌ لتجاربَ غير مدروسةٍ، وانفعالات غير محسوبة.

غابَ النِّظام، وفُقدت خطوات الترتيب من المجتمعات العربيّة، فالموظَّفُ العربيُّ قليلاً ما يأتي عمله في موعده، ويغادرُ في موعده، وقد أدّى هذا إلى فقدانِ الحسِّ بقيمةِ الوقتِ والعمل.. قيمة الأمانة التي وضعت على كاهل الإنسان ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢]. صورة الفوضى تتناقضُ مع صفة العصر المتّسم بالدقةِ، والنِّظام، والترتيب..!!

أمّا الفوضى الماديَّة فالمجتمعات العربيَّة عُرفت بأنّها (مجتمعاتُ الشيء) حيث تتكدَّس الأشياءُ في فوضى ودون تنظيم أو حاجة في البيوت أو المكاتبِ، يغيبُ التنسيقُ والترتيبُ لأن الأشياءَ لم توجد في المكانِ بفعلِ حاجةٍ مدروسةٍ، وتخطيطٍ مُسبق.. فتصبحُ الأشياءُ كما الضيوف غير المدعوّين الذين يقول عنهم المثل "الضّيف الذي لم يُدعَ، يجلسُ دون فِراش.." يقول مالك بن نبي في كتابه (القضايا الكبرى): روح التكديس و (الشيئية) التي يجب التّخلص منها ما انفكّت مستمرة البقاء، وهي قد تتبدى أحياناً تحت مشتط في الهزا، وذلك عندما نلاحظ - إذ نعبر العالم الإسلامي ـ أربعة أجهزة للتكييف الهوائي في مقصورة أحد رؤساء المصالح، أو خمسة أجهزة هاتفية على مكتبه"(ص٥١). هذا السلوكُ ضدَّ الفكرةَ الإسلامية التي يجسّدها الحديث النبوي الشريف"من كان عنده فضلُ زادٍ

فليجد به على من لا زاد له" "صحيح مسلم" وضدّ الاستئثارِ وحرمان الآخر من تقاسم أدوات المعيشة بصورة عادلة كما يحثُّ على ذلك الدين الإسلامي في عموميّةِ قِيمه.

كم من المشاريعِ ضاعت لأن التخطيط الدقيق المسبق لم يصاحبها.. وهذا يعني أن ثرواتٍ تُهدر دون جدوى اقتصاديّة..! تجربة بعد أخرى والأمورُ على حالها وكأنَّ المصلحةَ تقتضي أن لا يحلَّ التخطيطُ المنظّم مكان الفوضى وعدم التخطيط.. مدنٌ تُبنى ثم تُهدم لأنّها تصطدم أثناءَ التنفيذِ بعقباتٍ واقعيّة لم تكنُ قيد الدراسةِ والافتراض. يقول مالك بن نبي في كتابه (من أجل التغيير): وإذا اتبعنا سبيل الاستنتاج المنقي، رأينا أن التطور لا يمكن أن يعدُّ جمعاً من العناصر المنفصلة، ثم ربطها فيما بينها بعد فوات الأوان، ويمكن في هذه الحالة أن نقع على مفاجآت غير سارة، كأن نلاحظ أن بعض العناصر تزيد عن الحدِّ وأُخرى تنقص عنه أو أن بعضها أيضاً لا يتلاءم مع المقياس المشترك للمجموعة، لكونها أصغر أو أكبر مما يجب"(ص٣١).

هذه الفوضى - ويمكنُ أن نجدَ في عشوائيات المساكن في بعض البلدان العربية الصور الماديّة لها - تعودُ إلى خلل المفاهيم، ونكوص المبادئ، والتي هي في نهايةِ الأمر تعطيل لقيمٍ إسلاميَّة، سماويّة المنشأ، أُنزلت من إلهٍ أتقن كلّ شيءٍ خلقه، ووضع له خطّ سيرهِ، ومركز دورانه، ومآل حركتهِ، يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٥٤/٤٩]، ومن هذا التنظيم الكوني ما يسجّله القرآن الكريم من نظامٍ دقيقٍ، محسوب، لا يرتهنُ إلى المصادفةِ، ولا يُتركُ للظروف، يقول تعالى في سورةِ يس: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٦/٣٧-٤٠].

الفصل الثاني

قيم معطّلة

في الثقافة التنظيميَّة

(حياة العمل)

من نوافع العولمة..!

في خضم ما يسمى بظاهرة العولمة (Globalization) والتي رأى البعض أنها مارد يجب صده بأية طريقة، دون أن يتمكنوا من توصيفه بشكل محدَّد إلَّا على نسق الأسطورة التي تُشكِّله كوحشٍ له أذنابُ الأخطبوط..!! في نظرهم أنه المرسَلُ، المستهدف قيمهم الاجتماعية، وهويتهم الوطنية، وأنه (ظاهرة مؤدلجة) لها أسُسُها الفكرية، ومنطلقاتها الثقافية المغايرة، تهدف في نظر هذا الفريق إلى تشكيل العالم ووضعه في بوتقةٍ ثقافية للقوة المهيمنة في العالم عبر تغذية فكرة (القرية الصغيرة)..

حسناً، تبدو صورة الظاهرة في الخيال الذهني شيئاً أقرب إلى هذا التوصيف التجسيدي، إنما تختلف - في وجهة نظري - عند تفسيرها في الجانب العقلي الذي يفترض عنده تبني الرؤى العقلية، والأسس المنطقية التي لا تؤمنُ بالاندفاع العاطفي، ولا تسلِّم بالانطباعات غير المؤسسة، أو المبررة فكرياً، لأن التسطيح لن يخدم بأي شكل من الأشكال مسألة التفكر والتأمل، واقتراح السبل الناجعة التي تضمن الوصول إلى طريق وسطي لا ضرر فيه.

ما يهمني في هذا الأمر برمته مسألة القيم، والهوية المجتمعية، والنسق الثقافي المميز للأمة؛ وكيف يمكن المحافظة على أنساقها التراثية المشكِّلة، وكيف يمكن التعاطي مع القيم الأخرى لثقافات أخرى، وعليَّ الاعتراف قبل البدء أن مواضيع كهذه تحتاج إلى تقص اجتماعي ممنهج، مبني على دراسات قائمة على مناهج بحثية موثقة. إنما قد يكون هذا، ما نكتبه هنا، الآن استهلالاً لتلك التوجهات مستقبلاً..

الثقافة في تعريفها التقليدي هي الوعاء المحتوي على الموروث والمعاش عبر التجربة المعاصرة في أنساقه القيمية، العقائدية، الأدبية، والفلسفية، مما يجعل الاثنان معاً رافدين لتشكيل سلوك وفكر الفرد، ، الذي يتناسخ بصورته العامة التي تحمل العناصر المشتركة فيصبح مجتمعاً، وتكون بذلك ما يسمى بـ (الثقافة المجتمعية).

هذه المشكلات الثقافية هي التي تؤسس المذاهب للإنسان وتوجهه بإدراك أو غير إدراك إلى الوجهة التاريخية التي سلكتها عبر المساق الزمني المتين للتاريخ، وعبر تطوره الذي تم على أساس من التفاعل البيني أو التثاقف مع الآخر، ومن ثم تبني قوالب جديدة، وطرائق مختلفة، إلى حد ما، وأقول إلى حد ما؛ لأن ذلك يعتمد على قدر الجهد المبذول من قبل المتأثّر، وقدر التأثير على المجتمع أكان عن طريق التنوير بالإقناع، أو الفرض.

اللافت للنظر هنا، أن الحديث عن تأثير العولمة على القيم، حديث عمومي في صورته الغالبة، لا تحديد على صعيد المؤثر وعلى صعيد المتأثر.. التشخيص من وجهة نظري يوفر الجهد، والوقت، والمورد للعلاج.

الحديث عن العادات مثلاً، هل الخوف هنا من العولمة ستؤثر في العادات التقليدية؟! أولاً: ما هي العولمة؟ أهي استراتيجية تجارية صرفة، أم (إيديولوجية) ممنهجة؟! ما هي العادات في المقابل؟! هل يجب أن تبقى العادات أم يجب أن ترتبط بالأساس الإسلامي في المجتمعات الإسلامية؛ حتى

يكون لها أساس ومرجعية صحيحة. وما دون ذلك فعلى رياح العولمة أن تريح المجتمع منه..؟!!

هناك حاجةٌ دائمةٌ لتحديد المفاهيم قبل إطلاقها على عواهنها. الحديث عن العموميات يقود إذن إلى ثقافةٍ جامدة، ثقافةٍ لا يريد لها أهلها التحرك إلى نفض مكوناتها، وحلحلةِ ذاتها، وتجديد عناصرها، ثقافة لا يريد لها أصحابها التخلص من مكوّنات سلبية، وإحلال مكونات إيجابية بديلاً لها بعذر المحافظة على القيم الوطنية ضد (الغزو الثقافي)..

في ظني أن مسألة (الغزو الثقافي) قد أتى الحديث حولها على الأخضر واليابس؛ فالصورة هنا أن كل مكون ثقافي خارجي ضمن هذا (الغزو)، ولكونه ينتمي إلى جسدٍ ثقافي من بيئة أخرى، فهو منبوذ وغير مقبول على الإطلاق..

هذا الأمر أو هذا التأطير قد أدى إلى الابتعاد عن مهامه الأساسية؛ وهي التمحيص والتفكر والتجريب والاستنتاج، بعد أن تكفل الآخر الوصي بتأطير وتوصيف هذا الكائن الغازي عنه..! ولقد رأيت في بلاد الغرب من الشباب العربي من عطلوا قدرات عقولهم بالصورة النمطية عن الآخر الغازي غير قادرين على حلحلة الصورة الجامدة، فكانوا يرون في الآخر سلبيته وإن كانوا - للحق - يروا بعض الإيجابيات، إلّا أن الصورة المشينة هي السائدة، وفي اعتقادي فإن ذلك أثر في مناهج الثقافة الأصل وتصويرها غير المنصف للآخر.. الغريب في الأمر أنهم يتلقون العلم في جامعات هذا القائم بـ (الغزو الثقافي) والمتهم في بلدانهم بتضليل أدمغة الشباب وانحرافهم عن الطريق المستقيم..!!

هذا الحديث يعيد النظر إلى مسألة المفاهيم وجاهزية المصطلحات كمثل (الغزو الثقافي، الهيمنة الثقافية.. وغيرها) وأهمية تحديدها من أجل الالتقاء الثقافي عند بعض المفاصل أو الابتعاد عن بعضها.. فالملاحظ أن بعضها تعريفه عند هبة الأقلام العربية في تناول ظاهرة العولمة، ثم لم يجرِ إعادة الحديث بعد أن ظهرت إيجابيات ما، وعلى سبيل التدليل على عدم التأثر بالنمط الثقافي المهيمن، فإن الأقليات العرقية في الغرب أو ما يسمى (Ethnic Minorities)لم

تؤثر عليها العولمة وهي في بلاد الغرب المصدِّرة للظاهرة، أو لنقل المنطلق الأساسي للشركات العابرة للقارات أو متجاوزة الحدود، بل إنها تمارس واجباتها الدينية، وطقوسها الاجتماعية، وعاداتها الوطنية المعبِّرة عن هويّاتها، بل هي تؤثِّر في الآخر في عرينه..!! بثقافاتها بأشكالٍ مختلفة، لعلِّ أوسعها انتشاراً نوعية الأطعمة الشعبية التي تنتجها مطاعمها. هذا إلى جانب أن الثقافات التي تقف وراء هذه الشركات لم تعد مقصورة على النمط الأنجلو / ساكسوني، فقد دخلت شركات كبرى كاليابانية والصينية والكورية والأوربية بشكل عام.

إذن، فقد كان الحديث عن مستهل ظاهرة العولمة (وهي ظاهرة قديمةٌ في الأصل) عن هيمنةِ ثقافةٍ أمريكية، لكن الملاحظ أن الأمر لم يعد قاصراً عليها على صعيد التنافسية التجارية العالمية، أضف إلى ذلك أن القوميات والعرقيات والهويات قد أبانت عن نفسها أكثر مما كانت في السابق بسبب تنامي النفوذ الإعلامي، ثم في الأصل الرغبة الإنسانية إلى تأكيد الجذور في مقابل الدفع إلى التماهي الثقافي العالمي.

من هذه الرؤية المبسطة، تبدو مسألة التماهي مقصورة على أشكالٍ محدِّدة من السلوك والـ(ماركات)، إلّا أن الشركات العالمية نفسها، أصبحت تعي مسألة الفروق الثقافية (cross cultural differences)، ومن ثم أصبح عليها إلزاماً أن تتواءم مع ثقافة البلدِ المضيف كي تنجح وتستقر في أعمالها فيه وإلّا واجهت الفشل، وثمة أمثلةٌ كثيرة في هذا الصعيد.

إنّما أرجو أن يُفهم المقصدُ من حديثي عن نوافعِ العولمة بأنّه مقصورٌ على ما صاحبهُ عن قصدٍ أو غير قصدٍ من نوافع..! فالعولمة لها أوجه عديدة غير حميدة النتائج، ومقاصد غير شريفة الغايات، وهذا مسلَّم به إلّا أننا يجبُ أن نأخذَ الصالح، ونترك الطّالح، وفي نظري ما أحاول طرحهُ هنا هو بعض الصالح من وجوهها.

بين التقارب والتباعد..

يبرز السؤال الهام في ظلِّ العولمة عن أثرها في الثقافات الوطنية: هل نحنُ بإزاء التقارب الثقافي أم التباعد؟! وأعتذر للقارئ في استخدام بعض المصطلحات الإنجليزية بسبب ما تحتمه جذور ظاهرة العولمة، أي الجذور الغربية.

في نظري أن استخدام كلمة التقارب (Convergence) معقولة، أما التباعد (Divergence) فهو ما أراه استخداماً غير موفق، لأن المسألة هنا - والحديث عن عولمةٍ وثقافة - لا يمكن مقارنتها بالأضداد.. ولهذا جاء أحد الباحثين ويدعى (فانسي Vance[1]) بمصطلح وسطي بين الاثنين أطلق عليه (Transvergency).. ليكون طريقاً وسطياً بين قطبي التباعد والتقارب ـ إن جاز التعبير ـ..وأقول لا يمكن مقارعة أضدادها لأنها نسبية، وذلك مثل أن توصف بشكل مطلق شخصاً ما بأنه اجتماعي من حيث انفتاحه على الآخرين، أو فردي من حيث تركيزه على أهدافه ومطامحه بالدرجة الأولى إذ المواقف نسبية، وحين يتم تحديدها عندئذ يكون إطلاق الصفة في محلها،كما يقال " لكل مقام مقال" ، هذه إحدى الانتقادات التي وجّهت للباحث الهولندي " جيرت هوفستيد Geert Hofstede" التي صنف على إثرها المجتمعات في واحد من أبعاده الثقافية الخمسة إلى مجتمعاتٍ تنزع نحو الجمعية أو الفردية.

مفتاح النظرة في اعتقادي يكمن في المثل الغربي القائل " think globally، act locally" أي " فكّر عالميّاً واعمل محليّاً" ، بكلمات أخرى؛ كن منفتحاً على

(1) - cited in Christopher R., Al-khatib, J., Al-habib, M. and Darry, L., (2001) Beliefs about Work in the Middle East and the Convergence Versus Divergence of Values, Journal of World Business, Vol. 36 Iss.3, p.223,245.

العالم في نظرتك وأفكارك، ولكن أُخدم ثقافتك المحلية، وهويّتك الوطنية، ولا تتماهى في التيّار العام.. وعلى سبيل المثال، فعلى صعيد الإنتاج الاقتصادي في عمان هناك تطبيق لهذا الشعار، أن يكون التفكير عالمياً والعمل محلياً.. فالشركات، وهي تعمل، تفكر بشكلٍ عالمي؛ لأن الدولة قد دخلت في منظومة التجارة العالمية أي السوق المفتوحة، والمنافسة الضارية لكن أسماء منتجاتها أو شعاراتها تعكس صورة ثقافتها، ولهذا برز كثير من المفردات التراثية في عروض البنوك مثلاً.

هناك احتدام على صعيد التنافس الاستهلاكي، ولم يعد الأمر قاصراً على النموذج الأمريكي المصدّر، والمتهم بعولمة العالم من خلال الفكر الاستهلاكي الذي تريد الشركات العابرة للقارات والمؤثرة على السياسة الأمريكية ترويجه في العالم. فأمريكة وحدها صرخت بأن صبرها قد نفد إزاء الفارق الكبير في الميزان التجاري مع الصين لصالح هذه الأخيرة.. هذا يعني أن المنتجات الصينية قد أغرقت السوق الأمريكية دون أن تستطيع المنتجات الأمريكية أن تفعل ذلك في المقابل..! إذن فأي ثقافةٍ - إن جاز أن نقول عليها ذلك - تؤثر في الأخرى..؟!

نعم، لقد كان الكثير من الباحثين على حق في أن العولمة تهدف إلى تذويب الهويات، وتشتيت العرقيات.. وهذا بالطبعِ هدفها من أجل الهيمنة على القرار الفردي في الاستهلاك ومن ثم في الحياة.. وثمّة (غربة) يعانيها الكثيرون لأسباب الانفتاح الإعلامي الذي وضعهم في مصير واحد ضمن قضايا قومية يطّلعون على أحداثها كل يوم، ويعيشون آلامها، ومن ثم يتوغل الاغتراب داخلهم بشكلٍ عميق.. الاغترابُ هنا ترميز للإحساس بالتيه. هناك شعور داخلي بعدم الأمان نظراً لما يعيشه العالم والمنطقة العربية، بالأخص من حروبٍ ودمارٍ وقتل وإبادات.. هذه المشاهد تؤثّر في استقرار الفرد، وتفكيره، ورؤيته للأمور.. ومن ثم تحضر في حياته، بشكلٍ طاغٍ فوق كل الشؤون الشخصية.. فكل جلسة حديث يسوده ما يجري في العراق وفلسطين ولبنان.. والسياسة الأمريكية..وغيرها..! قبل أن يتم الحديث عن تلك الشؤون الإنسانية التي تؤكد على الانتماء والثقافة

والهوية.. شؤون العاطفة الحميمة التي تتصف بها النفوس المنتمية إلى هذه الأرض.. هذه ثيمة كبرى من ثيم الاغتراب النفسي في المعاش اليومي.. والهم الحياتي.

لكن، من جانبٍ آخر.. هناك شعور متنامٍ في المجتمعات العربيّة على الصعيد المؤسسي بأهمية النقاش الهادف إلى الحفاظ على تكريس الهوية مع توظيف التقنيات العصرية، فكانت هناك البرامج المحلية التي تهدفُ إلى رفد دماءِ الوطنية من خلال مناقشة القضايا الوطنية المختلفة، وجلسات مجلس البرلمانات، واللجان المحلية..وكلّما كثرت هذه النقاشات - على افتراض فائدتها - فإن مفهوم الهويّة - وهذا يخدم في جوهره الهويّة ـ سيزداد تأصلاً في النفس.. إذ تعمل هذه التوجهات عمل المغناطيس الجاذب للنفس إلى ترابها الأول.. الهويّة إذن ترتبط بالإنتاج الثقافي. وكلما اتسع الإنتاج الثقافي لثقافةٍ ما باستخدام مفردات تلك الثقافة، خدم ذلك الهوية بشكلٍ صميمي، والقصّة العمانية في اتجاهها العام - على الأقل ما اطّلعتُ عليه - تنزع إلى تكريس الهويّة باستخدامها مفردات المكان، والأسماء والمصطلحات الشعبية وغير ذلك، وهو ما يعطي هويّة تصنّفها بشكلٍ مباشر عند قراءتها.

في الندوة التي أقيمت ضمن مهرجان الخليج للإذاعة والتلفاز بالبحرين عام٢٠٠٦، قال لي أحد الإعلاميين الخليجيين في حديثٍ جانبي: إن التلفاز العماني هو الوحيد الذي لو كان بلا شعار لعرفتُ هويّته..! هذا الأمر إذن يرتبطُ بالإنتاج وعلاقته بالهويّة.. في حين تشكو دول أخرى من أثر العولمة، لكن إنتاجها المعرفي أو الفكري أو الأدبي، أي الثقافي بشكلٍ عام، لا يخدمُ هويّتها..

الأهمُّ من هذا على العموم خدمة الهويّة الإسلامية العربية، واستخراج محاسنها للتّمثل والعمل بها دون أن يكون ذلك شكلاً من أشكال التّرف الثقافي.. وعلى العموم فإن مجملَ القول هنا هو: إن كثيراً من الدول قد انتبهت إلى أصالة جذورها في زمن العولمة أكثر من ذي قبل فتبعتها، وأخذت تسبرُ

مفردات ثقافتها فاستخرجتها؛ لأن المجسّات الحسيّة التلقائية تحرّكت كرد فعل نحو ظاهرة العولمة.. مع ذلك فثمة كثير مما يجب فعله على صعيد اللغةِ مثلاً، اللغة التي وجد السواد الأعظم من أهلها أنفسهم في مقابل مصطلحات غريبة تنساق عليهم في سيل منهمر من المنتجات، وهذا ما يؤدي إلى انفصام في اللغةِ الأم،وأزعم بأن السواد الأعظم من الشعوب (النامية) المعتمدة على الإنتاج الخارجي بصورة أساسية تواجه أزمة لغة، في المقابل يبدو أن لغتها الأدبية تميل في اتجاهٍ آخر، اتجاه يبحث عن هويّة لكنّه يعمد إلى انتشال الألفاظِ اللغوية الغامضة على أهل العصر أو محاولة الاشتقاق اللغوي بغية تكوين لغةٍ ذات رمزية مختلفة.. وهذا الاتجاه على عمومه يأخذ مساراً آخر لا يخدم حاجة السواد الأعظم في الجانب الآخر لوجودِ مصطلحات عربية - مثلاً - لمنتجات خارجية..وهم لا يهتمون كثيراً بتبرير النيّة الإبداعية من وراء هذا التجريد اللغوي الموظف للألفاظ ومن ثم المعاني الغامضة.. وحين انبرى لهذه المهمّة العتيدة من يتصدى للترجمة صاح بأعلى صوته: يا قوم إن "السندوتش" كلمة غربية فلا تقولوها، بل قولوا بدلاً عنها: شاطر ومشطور وبينهما كامخ أو طازج..!! وانتظروا من يجيبكم!!..

قيم العمل..

الحديثُ عن ظاهرة العولمة وتأثيراتها في القيم الثقافية يجب ألا ينحو منحى العموم، وإنما عليه أن يتّجه إلى مفاصل معيّنة تسهل فيها المقارنة بغية الحسم، أو على الأقل، الترجيح الحُكمي في مسألة التأثير السلبي أو الإيجابي فيها.

في هذا المقام سننظرُ في القيم الثقافية الخاصة بالعمل، لنقول رأياً في الزعم بسعي العولمةُ أو بالأحرى القيم الثقافية المصاحبة لها إلى النيلِ من الثقافة الاجتماعية المولّدة للقيم العملية؟!

يُعرِّف (سكين Schein ١٩٨٥[١]) الثقافة التنظيمية بأنّها شكل من الافتراضات الأساسية التي تنشأها أو تبتكرها أو تطورها مجموعة ما بهدف التّعلم للتكّيف مع المشاكل الناتجة عن ضرورات التكيّف الخارجي، والارتباط الداخلي داخل المنظمة، وتعمل بصورة فعّالة من أجل أهدافها.." هذه الثقافة هي وليدة الثقافة الوطنية الأم، إذ لا يمكنُ إنشاء أو ابتكار أو تطوير ثقافة ما إلا تحت مظلة هذه الثقافة، التي تجسد الشجرة الكبيرة ذات الظلال الممتدة..وهي القادرة في نظر أوتاوي، وباتناجر وكورول Ottaway، Bhatnagar، and Korol، ١٩٨٩، [٢] على فرض وجودها وقدرتها على تشكيل القيم العملية الخاصة ببيئتها.. إنّما يبدو لي هذا التعريف منقوصاً في جهة عدم الإتيانِ على التأثيرات الخارجية التي (تفرضُ) في أحيان كثيرة (نموذجها) -إن جاز التعبير- على ثقافة تنظيمية ما بحيث لا تُصبح للمجموعة يد في المشاركة فيها، كالثقافات التنظيمية

(1) Schein E., (1985) Organisational culture and leadership: A dynamic view, San Francisco, Jossey-Bass Publisher p.9.

(2) Christopher R., Al-khatib, J., Al-habib, M. and Darry, L. (2001), Beliefs about Work in the Middle East and the Convergence Versus Divergence of Values, Journal of World Business, Vol. 36 Issue 3, p223, 245.

المفروضة في الوكالات التي تتمتع بحق الامتياز لتمثيل شركات أخرى (Franchise) تلك الثقافة الممتدة من الثقافة التنظيمية الأم. إنما أجدني أميل إلى الفكرة بأن هناك تقارباً يحدث التنافس العالمي من أجل الوصول أفضل الممارسات الإدارية (best managerial practices) وهذا ما يراه كير وآخرون وإيسنتيد Kerr et al. 1960، Eisenstade، ١٩٧٣[1].

على العموم، فإن نظرةً للقيم العملية في مجتمعاتنا مثلاً تنبئ بأن فجوة كبيرة بين الثقافة الأصل تلك التي جاء بها الإسلام، وبين النظرة إلى العمل - ولم أقل القيم هنا لأنها ليست قيماً ـ إذ في الوقت الذي لا يلتزمُ فيه هذا الفكر الحاضر للشعوب العربية بالقيم الأصيلة في إطار العمل، نجد أن بعض التوافق ما بين المسبِّبات للـ (الخصائص التنافسية competitive advantages) وبين ما تدعو إليه القيم الإسلامية، وأقول - بحذرٍ - بعض التوافق، لأن الغايات تختلف؛ فمن غاية إنسانية نبيلة تنظر إلى مصلحة الجماعة في المجتمعات الإسلامية، إلى غاياتٍ مغايرةٍ تنزع نحو الفردية في المجتمعات الرأسمالية في الجانب الآخر.. إنّما (الخصائص التنافسية) هذه لا يمكن أن تكون دون إخلاصٍ في العمل، وتفان فيه، والتزام، وإتقان، وهذه قيم يدعو إليها الإسلام..

لكننا نجدُ في المقابل كثيراً من المتناقضات بين القيم الأصيلة للثقافة العربية وبين ما ينظر إليه منتسبوها نحو العمل - وأرجو أن يدرك القارئ بأنني لا أستند هنا إلى دلائل قاطعةٍ، وإنّما إلى قراءة شخصية مبنية على الملاحظة والتمحيص فقط ـ لنلتفت مثلاً نحو الإنتاج اليومي خاصة في القطاع الحكومي، فتقابلنا هذه الصورة النمطية التي لم تشأ التغيرات المتسارعة أن تزحزحها إلى وضعٍ أفضل: صورة الموظف الجالس في مكتبه بين كومةٍ من الأوراق والملفات وقد استأنس

(1) Pudelko, M., Fink, G., Carr, C. and Wentges, P.(2006) Editorial for the special section: The convergence concept in cross cultural management research, International journal of cross cultural management, Vol. 6., Iss. 1, pp.15-18.

بوجودها لأنها علامة للآخرين تدل على حجم العمل الذي يقومُ به، والجريدة على مكتبه،والشاي، والهاتف وأحاديث الموظفين عن فلان أو فلانة من الناس..!! هذه الثرثرات المصاحبة لنمطية الصورة أدت إلى بطء عجلة العمل وبقائه في نمط تقليدي لا يتواءم مع شكل الموظف العصري المتسم بالحركة والنشاط وحب العمل. بالطبع هذه الصورة النمطية جزء من صورة أكبر تنزع نحو البيروقراطية الهزيلة، المثبّطة لحركة الأعمال، وطغيان المصالح الشخصية، وفقدان التخطيط الدقيق والسليم، وتعطيل القيم الإسلامية الرفيعة في مجال التعاملات.

في المقابل دفعت ظاهرة العمل القطاع الخاص إلى تغيير ثقافته التنظيمية بسبب شعار (كن أو لا تكن)، إذ الحياة في القطاع التجاري تخضع لمنطق التنافس الشرس، وهو ميدان الأقوياء فقط، فإما أن تكون قويّاً لتستطيع المنافسة، وإما أن تُبتلع من الشركات العابرة للقارات، تلك التي مكنتها منظمة التجارة العالمية والاتفاقيات البينية للمناطق الحرّة من تجاوز الحدود بلا تأشيرات، كما مكّنتها مصائر الاقتصاديات المترابطة..!

إنّما لم تعرف أكثر هذه الشركات في اقتصادياتنا العمل على تأسيس ثقافةٍ تنظيمية ذات خصائص تتلاقى مع الثقافة الوطنية، ولذلك ظلّت ولاءات كثير من موظفيها إلى رواتبهم وليس إلى أهدافها العامة.. على سبيل المثال كنتُ أحبُّ دائماً أن أستطلع رأي كثير من الشباب العامل في الوظائف البسيطة في الشركات.. سألت أحدهم في إحدى الشركات بعد أن (أرهقني) في مواعيد تسليم البضاعة التي اشتريتها، سألته عن راتبه.. قال لي الراتب متواضع، إنّما أعرف كيف (أنتقم) منهم؛ وذلك بتأخير ساعات الدوام اليومية، في حين تخضع مواعيد تسليم البضاعات للزبائن إلى مزاجي وظروفي الخاصة..! سألت آخر عن ما يحمله من منتجات تسويقية في سيارة الشركة؛ قال: لا يهمني ذلك طالما أستلم راتبي.. قلت له ألا يهمّك إذا أفلست الشركة؟! حينها سكت!!

ما يعنيه هذا هو عدم التواءم بين القيم الأصيلة في الثقافة العربية في الغالب، وهي القيم الإسلامية بالطبع، تلك التي تنبثق من المراقبة ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٤]، و " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه" الحديث الشريف، و" إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها" الحديث الشريف.. ونظرة سيدنا عمر بن الخطاب إلى يد العامل وقوله فيها "هذه يد يحبها الله".. وغير ذلك كثير من المحفزات النفسية للعمل وإتقانه والإخلاص فيه والتفاني لأجله..

لكن ذلك نادراً ما يحدثُ على الصعيدِ العملي، هذه القيم الإسلامية الأصيلة غير موجودة في المعاش الحياتي للعمل اليومي، هي خارجةٌ من إطار ساعات الدوام الرسمية.. بل إنّك تجدُ مثلاً أن شهر رمضان ذلك الذي كتب الله فيه حرباً على المسلمين فقاتلوا فيه.. إذ بصائميه اليوم في مكاتبهم خائري الهمم، منطفئي الحماس!! أليس في ذلك تناقض بين المسنِّ من القيم المصاحبة للتشريع السماوي وبين المطبّق عمليّاً..؟!

كنتُ في يومٍ من الأيام في إحدى المؤسسات أتابع قضية من القضايا، تأخر المسؤول المنوط بها، وعلمنا أن هذا ديدنه اليومي كل صباح، حيث يتراكم المراجعون في مكتبه ثم يأتيهم ضحى، وبعد أيامٍ قرأتُ حواراً معه يشدّد فيه على أهمية الوقت في الإسلام؟! وهو نمط سائد متكرر يمكن القياس عليه في مسألة الازدواجية بين القيم الإسلامية التي يُنافَح عنها

(والمدافعون عنها بعيدون عن تطبيقها..!) وبين نظراتهم نحو العمل..

في الثقافة الصينية مثلاً ما يُعرف (بالكنفوشيسية Confucianism) وهي نسبة إلى الفيلسوف كونفوش.. وقد أصبحت فلسفته بمنزلة عقيدة متأصلة تؤطر كثيراً من الأنشطة الثقافية في الحياة الصينية، ومع أن في هذه (العقيدة) صوراً كثيرة من الاستلاب مثلاً في ما يخصُّ ما يشبه (التقديس) للمنصب الأكبر، وإبداء الرأي وغير ذلك، إلّا أننا نريد بذلك التدليل على التزام الثقافة الشعبية بموروث

فلسفي أصبح عقيدة عبر عقود من الزمن بمثل هذه الأفكار التي كان لها في الجانب الآخر مردودٌ إيجابي كبير وملاحظ على الناتج القومي الصيني وعلى بروزها كقوة اقتصادية ضخمة.

فالمسلمون لو تمسّكوا بالقيم الأصيلة التي جاء بها الإسلام في إطار العمل ـ موضوعنا هنا ـ وهي قيمٌ بلا شك تهدف إلى وجود مجتمعات ذات أسس متينة على الصعيد الحضاري لما آلت حالهم إلى ما آلت إليه اليوم.. إذن، فما الذي يخاف عليه الخائفون من سحق العولمة لقيم هي في الأصلِ مهدورة إلّا على صعيد الإيمان الذي لا يجد طريقه للتطبيق في هذا المضمار؟! أليس من الواجب هنا أن ينكفئوا إلى قيمهم الأصيلة، ويعيدوا حقنها بصدقٍ وجديّة في أوردة يومياتهم العملية، دون أن يضيعوا الوقت في مخاوف غير مبرّرة؟! إن هذا الفعل الجوهري لأحقُّ بالعمل الثقافي؛ لأنّه فعل قيمي يرمي إلى توطيد الثقافة العملية، ودفع الأمة إلى وضع العمل كـ (قيمة) من قيم الإيمان المفعّل على الصعيد الحياتي..

قيم حديثة تتوافق مع قيم الإسلام

إنّ جودة العملِ هذه قد دفعت إلى النظرِ إلى سماتٍ أبعد من مسألة القدراتِ في العامل المحتمل، وهذه قيمة من قيم الإسلام، وعلى سبيل المثال ما قالته ابنة النبي شعيب لأبيها وهي تصف صفات العامل المستأجر ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦/٢٨]، فهي لم تكتفِ بوصف القوّة، وقد شاهدت قوة سيدنا موسى وهو يزيحُ غطاء البئر، وإنّما أضافت الأمانة إليه؛ لأنها لازمة من لوازم العامل السليم..

والخصيصة الجوهرية التي صاحبت القوانين العالمية للعمل هي قضية عدم التفرقة (Discrimination) في الجنس، والعرق، واللون وغير ذلك.. وهي أصل من أصول التوظيف والاختيار يجب أخذه في الاعتبار مأخذاً جديّاً..

هذه الرؤية تتوافق مع القيم الإسلامية في النظر إلى الناس كافة نظرة تكافؤ ومساواة ..﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣/٤٩]، وإن كان الإسلام يفرّق في طبائع البشرِ، ولا سيما في طبيعة جنس الرجل وجنس المرأة، فلا يمكن لأحدهما مزاحمة الآخر في عمله، إذ لا يصبحُ الرجلُ حاضناً للأطفال وتعمل المرأة عمله الرجولي، وإن توافرت القدرة البدنية لها. فإن الطبيعة الأنثوية تمنعها بصورة فطرية من إنجاز مهمتها كما تمنع الرّجل طبيعته الذكورية.

صفةٌ أخرى، يجب أن يتحلى بها العامل الحديث، وهي صفةٌ أصبحت تتنامى بشكلٍ سريع، وتصبحُ مفردة هامّة من مفردات العمل: صفة القدرة على أن يكون العامل عضواً ناجحاً في الفريق (Team member)، فالنجاح في هذه العملية، أي إن تشكيل الفرق الناجحة أصبح من علامات التميُّز في عالم

الأعمال، وذلك للاعتمادِ الكبيرِ على هذه الفرق في أداء أعمال معيّنة دون رقابة لصيقة من المسؤولِ، وإنّما يكتفي هذا الأخيرِ بالتوجيه والإرشادِ فقط.

هذه الفكرة تتفق مع قيمة الترابط والتعاضد في الإسلام في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣].

من بين الأفكار أو المبادرات التي شجّع عليها الوضع العام هي المنظمات التعليمية أو ما يسمى بـ (learning Organizations)، وهدفها هو إبقاء شموع العلم وقّادة في المؤسسات، وتحوّلها إلى بيئة ذات إنتاج معرفي يتلقى فيه الموظف العامل بواعث التّعلم بصورة مستمرة، وبطريقةٍ ناجعة، وهذه الرؤية في الحقيقة هي واحدة من أعظم القيم الإسلامية المتجسدة في الحثِّ على التعلم، وإبقاء جذوة العلم مشتعلة في الصدور "اطلبوا العلم من المهدِ إلى اللّحد" حديث شريف.

من الخصائص التي جاء بها الفكر العملي الحديث (Contemporary pragmatic intellectual) تلك المتعلقة بأداءِ العمل، وهي من الخصائص الجوهرية في الإسلام، على سبيل المثال: التفويض (Delegation) وهو ما يعني تفويض الصلاحيات دون المسؤوليات، لإشعار العامل بكفاءته، ومنحه الشعور بأهميته داخل المؤسسة، وأيضاً التمكين (Empowerment) ويعني زيادة المسؤولية للعاملين في الإدارة المباشرة ومنحهم الحق في اتخاذ القرار المناسب، كما ظهرت فضيلةٌ تنافسيّة جديدة أصبحت تؤثِّر في علاقة المستهلك بالشركة أو المنتج، هي ما يسمى المنتجات الخضراء (Green products)، ويعني بها المنتجات التي لا تضرُّ بالبيئة ولا يعمل استخراجها على الاستخدام الجائر للموارد الطبيعية، وذلك دفع كثيراً من الشركات إلى أن تهتم بما يسمى

الاستدامة (Sustainability) وهي الترشيد في استهلاك الموارد الطبيعية، وقبلها المحافظة على الإنسان العامل من الناحية الصّحية والاجتماعية.

هذا الاتّجاه يدعو له الإسلام، فهو قيمة من قيمه الأصيلة، يقول تعالى:

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: ٧/ ٣١].

ويبيِّن أن ظهور الفسادِ في الأرض هو من عمل الإنسان ..﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [الروم: ٣٠/ ٤١]. بل وصل التّحذير إلى تصنيف المبذرين...

﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٧].

وفي الجوهر فإن الإنسان بوصفه كائناً مفكِّراً، قد ارتقى من النظرة التقليدية، التي نظر إليه بها تيلور (Taylor)، الذي عرفت به ما تسمى بالإدارة العلمية (Scientific Management)، حيث كان يقيس كل حركةٍ يقوم بها العامل بالوقت، فيقدّر من ثم أن إنجاز العمل يحتاج إلى وقت محدد، وكأن القائم بالعمل آلة وليس كائناً بشرياً.. لا.. لم تعد النظرة إلى الإنسانِ في الفكر العملي الحديث في هذا الإطار المحدود، وإنّما أصبح له فضاؤه غير المحدود، الفضاء الذي تتوافر له شروطه، لأنه أصبح هو رأس المال الأثمن (Human Capital)، إيماناً بالدور الذي يقوم به الإنسان لإنجاح المؤسسة بصفته كائناً مفكراً (Intellectual Capital) وظهرت ركيزة أساسية لا مناص عنها؛ هي إدارة الموارد البشرية (Human Resource Management)، ثم ظهرت مصطلحات جديدة على الصعيد الإداري كالتقدير (Recognition) الدافعية (Motivat) والنظريات الكثيرة التي صاحبتها، ولضمان العدل وجد التقييم الوظيفي (Performance Evaluation)، كما لم يعد العرض الوظيفي مقتصراً على مقدار الراتب بل على الميزات الإضافية غير المالية (non tangible) كالإجازاتِ، والعلاج، والتخفيضات،

وغيرها..الأمر الذي أبرز ما يُعرف بالرضا العملي (Job satisfaction)، ليبرهن على أهمية العامل النفسي للعامل.

هذه الخصائصُ التي صاحبت الفكر العملي الحديث ذلك القادم مع العولمة، هي من قيم الإسلام ومن جوهر تعاليمه، وهي من منطلقات الحديث الشريف "كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته؛ فالإمام راع، وهو مسؤول عن رعيته.." أي إن الإسلام قد حض عليها منذ أكثر من ألف وأربع مئة عام، في العدل مثلاً يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٥]، وكل أمرٍ هو مقطوع به في الإسلام على قاعدة " لا ضرر ولا ضرار "حديث شريف.

إنّما السؤال هنا: هل التفت المسلمون إلى هذه القيم الأصيلة في تراثهم الإسلامي وعملوا بها؟!.. هل خصائص التمكين،والتفويض والتقدير والدافعية كائنات حيّةٌ في الحياة العملية للإنسان العربي المسلم؟! هل ما يسمى بالموارد البشرية يتمحور هدفها حول الإنسان بوصفه أثمن كائن للمؤسسة، بصفته رأس مال فكري؟! هل التقييم الوظيفي يؤدي وفق قاعدة " لا ضرر ولا ضرار"..؟! أم أن مساحة السلطة (Power Distance) بين المدير والموظف تزداد اتساعاً برغم الشهادات التي يتبجّحُ هؤلاء المديرون في تأطيرها بعد أن درسوا في الغرب ولم يخرجوا منه سوى بالشهادات والألقاب؟!

إن فكرة المركزية (Centralization) في الأداء الوظيفي لا تزال معشِّشة في العقلِ العربي لا تريدُ أن تغادره، فالمغادرةُ تعني ذهاب الهيبةِ، والأبّهةِ، والنفوذ.. وبالطبعِ فقدان نشوةِ التوقيعِ في ذيل الورقة، وذلك هو التعبيرُ المختزلِ لكلِّ هذه الخصائص الضيِّقة، ومع أنّها قد أوجدت وضعاً مرضياً، سقيماً أثّر على الأداءِ وقضاءِ المصالح إلّا أنّها جاثمةً كالدّاء الذي يصعبُ استئصاله حتى بالتنوير العلمي..!

وفي دراسة أجراها أحد الباحثين[١] وجد أن الحواجز تحولُ بين المدير وموظفيه في مجتمعاتنا، فمنذ أن يتبوأ الأول منصباً إدارياً رفيعاً إذا به يستمتع بالسلطة وما يتبعها من ممارسة النفوذ والسطوة، وبالطبع فإن ثمة استثناءات في كلّ قاعدة.

هذه المسائل تدفعنا إلى ضرورة الكشفِ عمّا غفلنا عن الالتفات إليه، مما جاء في الفكر العملي الحديث ضمن نطاق العولمة، وهو في الأصلِ ضمن قيمنا الإسلامية الثمينة.. هذا يعني أن العقل التمحيصي، الباحث عن المنطق يجب أن يقوم بدوره الفاعل، لا أن ينسف هذا الدور وراء ظهره، وظهر متزمّتاً يدعو إلى محاربة ما يزعمُ أنه " غزو ثقافي".. و"مؤامرة" تحاك ضد الثقافة العربية الإسلامية لتذويبها أو بالأحرى لسحقها. في حين أنّ الثقافةَ ذاتها قد ولّدت مفاهيمَ معكوسة، مضادّةٍ لقيمها حتى عرفها الباحثون الأجانب، حيث رصد أحدهم وهو (لي Lee، ٢٠٠٣)[٢] بعض هذه الميزات الثقافية المعكوسة الفهم، ذات الأثر على الإدارة العربية كالتالي:

إن كلمة "إن شاء الله" وهي تعني في حقيقتها إذا أراد الله[٣]، وكان يجب أن تكون كلمة مساعدة للفعلِ والنيَّة لكنّها للأسف ـ كما يقول ـ تستخدم لدى الأكثرية كغطاء لعدم الفعلِ، على عكس ما تمّ الاتفاقُ عليه..!

وكلمة "بكرة" وتعني غداً أصبحت مفهوماً محبطاً، يقصدُ به التأجيل للعمل أو القيام بأي نشاط، وهي تدلُّ على التراخي والكسلِ وعدم الهمَّة.

الكلمة الثالثة "واسطة" وتعني قضاء المصالح مع التحيِّزِ لطرفٍ دون آخر، وهي عملٌ لا ينسجم مع القيم الإسلامية الأصيلة.

---

(1) Hofstede (http://www.geert-hofstede.com)

(2) Lee, M., (2003) HRD in a Complex World, New York: Routledge.

(٣) وقد جاءت اتباعاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٣].

الكلمة الرابعة "البيروقراطية" وهي "الشريط الأحمر "red tape كما يسمّيها الغرب، وتعكسُ في الإدارة العربية التأخير في إنجاز المعاملات خاصةً في القطاع العام.

لقد برهن الفهم المحدود في الوسط الإداري العربي لمصطلح الموارد البشرية (Human Resource) إلى طرح الفكرة الجوهرية التي أرادها الغربُ من وراء إنشائه، أو هي بالأحرى إحدى نواتج الميزات التنافسية، ومن ثم فإن الفعل لم يتعدَّ تغيير المسميّات فقط من شؤون الموظفين (Personnel Affairs) إلى الموارد البشرية، في حين بقيت الوظيفة الأساسية كما هي: السيطرة وليس الخدمة، كما يقول أحد الباحثين[1]. الموارد البشرية هي في الواقع من يتكفّل برعاية القاعدة الأساسية في الإسلام "كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته" إذ الرعاية هنا هي كليّة، جامعة ولا تتعلّق في جانب الأجر المادي فقط.

(1) Robert J Lavignam and Steven W Hays. (2004) Rcruitment and Selection of Public Workers: An International Compendium of Modern Trends and Practice, Public Personnel Management. Washington: Fall 2004. Vol.33, Iss. 3; pg. 237, 17 pgs

ضياع (أنا) الهويّة

علت أصوات الباحثين والأكاديميين لفهم الثقافات الوطنية من أجلِ النّجاح التجاري،وما يصاحب ذلك من مفاوضاتِ على سبيل المثال، لقد كان الاهتمام في الأدبيات الأكاديمية بالنموذج الأنجلوساكسوني لأكثر من عقدٍ[١] لأسباب؛ لعلّ أهمها أن معظم الباحثين الذين تصدر لهم مقالات في الدَّوريات العالمية المشهورة هم من الأمريكيين والإنجليز، ولذلك فقد أسهبوا في الكتابة عن ثقافة مجتمعاتهم، أما المجتمعات الأخرى فقد ظلّت بكراً إلّا من شذرات قليلة من المساهماتِ الخجولة غير الرصينة؛ لأنها اصطدمت بحواجز ثقافية، والتي منها السياسية والدينية، ذلك في هذه المجتمعات كالشرق الأوسط مثلاً.. حواجز مثل الأيدلوجيات الحكومية، العوامل السياسية وأيضاً تلك الخاصة بالعادات والتقاليد والمتمثلة - مثلاً ـ في عدم القدرة على سبر آراء المرأة بشكل واسع ومعتمد على صعيد البحث الأكاديمي الرصين. وقد قام الباحث (جيرت هوفستيدي Geert Hofstede[٢]) بإجراء دراسة عالمية عام ١٩٨٠شملت عشرات الدول عن طريق موظفي شركة (IBM) واستخدم لذلك خمسة أبعاد ثقافية للقياس والمقارنة بين الدول هي: تفادي الغموض (Uncertainty Avoidance) ومساحة السلطة (Power Distance) ومدى ذكورية أو أنوثية المجتمعات (femininity/Masculinity)، والنزعة نحو الجماعة أو الفردية للمجتمعات (Individualism / Collectivism) والبعد الخامس هو التوجه بعيد المدى (Long -Term Orientation) (LTO)، وبغض النظر عن الانتقادات التي

(1) Al-Hamadi, A.B., Budhwar, P. and Shipton, H. (2007) Managing Human Resources in the Sultanate of Oman. International Journal of Human Resource Management, 18: 100-113.

(2) http://www.geert-hofstede.com/

وجّهت لهذه الأبعاد من قبيل أن من أجري عليهم المسح لا يمثلون مجتمعاتهم، فإنَّ هذه الأبعاد في رأي (لوكي وآخرين.Lewicki et.al (٢٠٠٣) قد أصبحت ذات تأثيرٍ نافذ في أدبيات المقارنات الثقافية للأعمال الدولية.

نشأ إذن مصطلح الإدارة العالمية للموارد البشرية (International Human Resource Management)، كما ظهر مصطلح آخر هو الإدارة العالمية المقارنة للموارد البشرية (International Comparative Human Resource Management)، هذه المصطلحات هي عناوين للحاجة العالمية الملحّة لفهم الثقافات الوطنية للشعوب، ومن ثم التعاطي معها بغية تحقيق النجاح فيها، والحصول على ميزة تنافسية في أسواقها.. وهي ما تندرج في القيم الإسلامية التي تحث على التعارف بين شعوب الأرض ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣].

لكنّ التوجّه العالمي لفهم الثقافات الوطنيّة للبلدان المختلفةِ، وإن بدا مناقضاً للصورة العامّة للعولمة والزعمِ بأهدافها في سحقِ الهويّات وإذابة الثقافات في نموذج واحدٍ، هو النموذجَ الأمريكي بالأخصّ، إلّا أنه،يقصد بالدرجةِ الأولى إلى معرفة الخصائص الثقافية لهذه الثقافات بغية الإحاطة بنقاط ضعفها وقوتها كي يسهل التعاطي معها وفق ما ترتضيه، وإن كان ذلك بشكلٍ مؤقّت كي يسهل فيما بعد ترويض الثقافات على قبول أنماطٍ مختلفة من الفكرِ والسلوك..

لقد فعل ذلك اللورد كرومر إبّان الاحتلال الإنجليزي على مصر عن طريق مستشار لشؤون التعليم دانلوب، الذي استطاع أن يوظّف خصيصة تقديس العقلية العربية للنصوص المكتوبة، وبذلك أعلى من قيمة الحفظ لدى الطالب، وجعل ذلك علامةً من علامة الذكاء والتّميُّز يكافئ عليه الطالب..فظهرت أجيالٌ من المعتقدين بالضرورة القصوى للحفظِ، ونقلوا اعتقادهم الذي تربوا عليه إلى

أجيال ناشئة في بلدانٍ أخرى..حتى ضجّ العالم العربي بالحفظ عن "ظهر قلب"..فعطّل العقل الناقد، والصوت المشارك بالرأي..!!

إن ذكرنا السابق لمناقبَ صاحبت الفكر العملي الحديث والتقت في جوهرها بالقيم الإسلامية التي تؤسس ثقافة مجتمعاتنا، كان في جانبٍ محدّد هو جانب الممارسة الإدارية، التي أرى شخصيّاً أنّها استفادت من القيم الإسلامية أكثر مما استفاد المسلمون، على غرار مقولة محمد عبده: "وجدت الإسلام ولم أجد المسلمين..!!".. وهو تحفيزٌ في الوقتِ ذاته للنظر في هذه (الفضائل) الإدارية والاستفادة منها؛ لأنّها لا تتقاطع مع الثقافة الأصيلة، ولذلك فإن تطبيق النافع العملي منها هو إثراء للهويّة، وإثبات جذري للانتماءِ الثقافي.

إنّما هنالك جوانب كثيرة تسعى من خلالها أدوات التكريس إلى التأثير السلبي على العقل العربي.. لا تظهر كما ظهرت الديمقراطية الأمريكية فجأة ودون مقدمات.. لأن الظهور بهذه الصورة الدراماتيكية كانت له ردّة فعلٍ غير متوقعة لصاحبِ المبادرة ذاته، وهذا ما كان إزاء المبادرة الديمقراطية الأمريكية إذ تباطأت أو خفت صيتها؛ لأنّها رأت مدّ الإسلاميين أو الأصوليين ـ على حدِّ زعمها ـ يتّسع مع ضغوطاتها في الجانب الآخر على الحكومات كي توسّع من نطاق الحريّة، والمشاركة الفعلية في اتخاذ القرار..

هي وسائل لا تثير الصخبَ، كسائل المخدّر الذي يسري في الجسد بسلاسة باردة..! وكالأفعى التي تتسلسل في هسيس ناعم حتى لا توقظ فريستها فتفرّ منها، فرار الحمر المستنفرة من قسورة..!!

لكن مِعقل هذا الكلام ومنطقه الشخصي لا يدوران حول الآخر ونيّته أو ما يحب البعض تسميته " غزواً " أو "مؤامرة".. إنّما يدورُ حول "الذات الثقافية" و " أنا الهويّة".. والالتفات إلى الرموز الثقافيةِ التي تشكّل منظومة الشخصيّة الفرديّة والجمعيّة في نهاية المطاف..

هل شغلنا سوى (الحديث) عن الآخر ونيّاته ومخطّطاته..؟ لكنّ الحديثَ عنه

لم ينتج عن شيء..! كجعجعةٍ لم تُنتج طحينا..!! الحديثُ كان ليوجبُ في منطقه الارتداد إلى الذات من أجل نقدها لأن ضعفاً بيِّناً غير مشكوكٍ فيه هو الذي أمدّ الآخر بالقوّة، الارتداد هدفه في الأصلِ التغيير ..﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١/١٣].

والتغيير يوجب التنازل المرَّ عمَّا التصق بالنفس من العوالق، والشوائب التي لا تتواءمُ مع الفطرة السليمة التي أكّد الإسلامُ على نقائها وصفائها، وهنا مكمنُ الاختبار الحقيقي: جهاد النَّفس...!!

وفي صميم هذا الجهاد - كما أرى ـ تشكيلُ الهويّة الجوهرية للذات، إذ إن هذا التشكيل المتحقق عبر المجاهدة الحقّة الصادقة سوف يوفّر الأسس القويمة لهويّة قويّمة لا يمكنُ مسحها بجرّة قلم.. أو اجتثاث جذورها بعملٍ همجي أو حتى استعماري ممنهج لأنّها ذات جذور ثقافية غير ماديّة.

حدوث الارتداد..!

لقد حدث الارتدادُ ولكن أضلَّ طريقه..!! فتارة استمرأ القدحُ بالذمِّ في الأعداءِ محمِّلا إيّاهم مسؤولية التّخلف الذي تعانيه الأمّة، وتارة أخرى استلطفَ اجترار الماضي وبطولاته وأمجاده.. ولكن أين المستقبل؟! ما هي نسبة الحديثِ عنه؟! وبأيةِ لغة؟! لغة أرقامٍ أم لغة أحلام؟!.

استشارني أحد الشباب المقرّبين في مسألةِ زواجه أي في واحدٍ من أحلامه، وحينما طلبتُ منه أن نحسب المسألةَ بالأرقامِ هرب، ولم يعد إليَّ ثانيةً، فذكّرني بمقولة الأعرابي للنبي ـ ﷺ ـ وهو يمسك بعقالِ ناقته: هل أتركها وأتوكّل، رد عليه أفضل الصلاة والسلام: اعقلها وتوكّل..!

هذه هي الفكرةُ الأساسية، بل القيمة الإسلامية العظيمة، التي لا تبني التوكُّل على التواكل، ولا تبنيه على غير الأسبابِ، حتى لا يركن المرء المؤمن إلى جانبٍ من الدِّعةِ هو في غنىً عنه ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩]، فإذا كان الله قد أغنى نبيّه بوحيه، فإنّه لم يعفه مع ذلك من مشورة أصحابه، فجعل المشورة تأسيساً للقرار النهائي.

كلَّ تأسيسٍ لم يرتهن إلى قاعدة "اعقلها وتوكّل" هو تأسيسٌ هشَّ،غير سليم القاعدة، هذه القاعدة تقومُ على الفعل العقلي المبني على المنطق والسبب المادي في (العقال)، وعلى الإيمان بالله عزّ وجل في (التوكّل).. وإنَّ أحدهما لا يستغني عن الآخر فهو مرتبط به ارتباطاً جازماً، لازماً..

من هذه القاعدة، كيف يمكنُ لنا أن نتهرَّب من أسئلةِ المستقبل، تلك الأسئلة التي تواجهنا حتماً في طريق الواقع، نتملّص منها لأنّنا نعتقد بالمثلِ القائل (أنفق ما في الجيبِ، يأتيك ما في الغيب)، لقد حُرِّف الإنفاق هنا، وهو في مقصدِ الخير والبرّ، فسلخ من لباس مقصده وأدخلَ في جانب الإنفاق الاستهلاكي

الضيّق، أصبح (مفردةً) في الثقافة الشعبية يستعان به هرباً من أسئلة العقل...!!

إنّ مستقبل الأمس هو اليوم، إنّما كيف لنا أن نُهمل الأسئلة الكبرى التي تفتحُ لنا طرق التفكيرِ والعمل، أسئلةُ المصير: عن العمرِ فيما أفناه الإنسانُ، عن الجسدِ فيما أبلاه، وعن المال مما اكتسبه وفيما أنفقه.. وحينما يسأل الإنسانُ عندها: هل علمت؟! فيقول نعم!! سيقال له حينها: هلّا عملت؟! فإن قال: لا. قيل له: هلّا تعلمت كي تعمل..!!

إذن؛ في أية ناحيةٍ سيجدُ المرء حجّته الدامغة المقنعة من أسئلة الحياة المصيرية؟!!

هذه الأسئلة هي التي تصرفُ مسألة العبثية في الخلقِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٥].

لقد ارتكز الإسلامُ - كسائر الشرائع السّماوية الأخرى - على هذه الأسئلة، ووضع لها الأطر العمليّة أو لنقل الخطوط العريضة بالأحرى، أمّا التفاصيل فهي رهنٌ للتفسير الشخصي، إذ هي على سياق (البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في الصدور وإن أفتاك الناس وأفتوك، قالها ثلاثاً) حديث شريف، استفتاء مرجعه الإيمان المشكّل للضمير الواعي، أو على سياق الآية الكريمة: ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٤٣]، والأنبياء ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧]. أو على سياق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٤/ ٥٩]، يحدثُ التوافق هنا بين أمر" الطاعة" وقاعدة " أنتم أعلم بأمور دنياكم" في المستجدِّ من الأمر..

لكن ما يحدثُ من كثيرين هو عدم القدرة على إدارة التوافق، أو الجهل بالأدوات الممكنةِ للتوفيق، أو عدم الاكتراثِ أو التواكلِ والتّخاذل.. ومن هنا تتّسع الفجوة بين الإدراك الحقيقي لمعنى الحياةِ في عقليةِ الإنسانِ وبين خطّ مساره الحياتي. وكلّما ازدادت الفجوة كثرت التوافه والانشغالات التي لا ترتهن

إلى المصير الحتمي، وضَعُفَ الرابط العقلي بالحياة والوجود، واستمرأ الإنسان العبثيّة، والنظرةَ الخاويةَ للحياةِ مما يجرّه إلى مساراتٍ فارغةِ المعنى، إلّا من تأويلاتٍ تدّعي جزالة الرؤيةِ في منطقها..

أسئلة الاختبار إذن مكشوفة مسبقاً..! والقرآن الكريم زاخر بالأسئلة فهي مسطّرة في مواضع كثيرة في سوره الكريمة، ثم يعقب ذلك هذا التحذير المسبق للخاتمة ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٢]، وقد وجدتُ أن هذه الآية قد تكررت ثلاثاً بالصيغة نفسها، والصيغة المكرّرة ثلاثاً في الثقافة الإسلامية تعني ضمان الإدراكِ بالأمرِ، والوعي العاقل به وبمعقّباته.

لكنَّ تهرّب المسلم بالأخصّ من الأسئلة التي أثارتها عقيدته وهو يدعو سبع عشرة مرة - على الأقل ـ في فرائض صلواته ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ١/ ٦]، هذا التّهرب يعدُّ سرّ معضلته الأساسية، وجرثومةَ محنته الحياتية.. تلك التي تسلب منه منطق الرؤية إلى الأشياءِ كما تجري على فكرة:

وفي كلِّ شيء له آيةٌ تدلُّ على أنّه واحدُ

إذن فإنَّ الإيمان الذي يولّد التوحّد الإلهي في الخلقِ هو القمينُ بدفع المسلم أكثر فأكثر إلى لمس الأسئلة المصيرية وترجمتها إلى واقع عمليٍّ، أو جدولٍ أولوياتٍ يوميّة، والمسلمُ هو أحرى من غيره بإدراك الفكرةِ من الشواهد والغيبيات.

الاستلاب

الاستلاب لا يصدّر إذن بقدرِ ما يكونُ مكرّساً في كينونةِ النّفس البشريةِ، والتّكريسُ هنا بفعلٍ ذاتيٍّ يتوافق مع الثقافة السائدة، والتّحرّر منه يجب أن يكونَ انسلاخاً من فِكره المكمّم للعقل، والنزوح عنها، أكانَ نزوحاً فكريّاً كالذي كان للنبي إبراهيم عليه السلام، وهو يقول لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ١٩/٤٣]، أو نزوحاً ماديّاً.. من قبيل نزوح أصحاب الكهف ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/١٦]. أو نزوحاً روحيّاً كخلوات النبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام في غار حراء، أو نفسيّاً كنضال الحريّة الذي خاضه سيدنا بلال بن رباح من الأسر والعبوديةِ إلى الشرف الأسنى كمؤذن الرسول ﷺ..

يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٦٧/٢٢]، هذه هي صورةُ الاستلاب العقلي.. الحياد عن "الصراطُ المستقيم" هو المسبّب للاستلابِ، والمكرّس له، بل يصبحُ الإنسان رهناً للعبوديّةِ، والبُكمِ، وفوق ذلك فهو عبء على من يرعاه، يتجسد ذلك في المثل الذي ضربه الحق سبحانه ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ١٦/٧٦]، تتكرّر وجهة "الطريق المستقيم" مرّة أخرى في هذا المثل.. فالمُستلب حبيسُ ذاتهُ، ليست لديه القدرة على فعلِ شيء، والفعلُ ليس الجهد العضلي، وإنّما هو العقل إذا المقارنةِ المعقودة بآخرَ يأمرُ بالعدلِ فهو عاقل وهو على صراطٍ مستقيم فهو رشيد.

حينما يلبّد الإنسانُ الزّيف حول بصيرته بأنّه عالم وأنّه مدرك فهنا ينثرُ أول بذور الاستلاب حول نفسه، هو الأمر ذاته الذي واجهه الأنبياء والمرسلون من

بعض الأقوام المدّعين العلم، ولهذا قال سيدنا إبراهيم لأبيه ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطًا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ١٩/٤٣]، إذن نعود مرّة أخرى إلى "الصراط السوي أو المستقيم" ذلك الذي يُخرج الإنسان من استلابه بالعلم، لكن المصرّ على الزّيف أي الاستلاب يكابر ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: ١٩/٤٦]، والرّجم هنا ليس رجم إنسان، ولو كان كذلك لعزّ على الأب أن يرجمَ ولده، بل رجم حقيقة مناقضة للزّيف المشكّل للثقافة التي أفرزت أباه وأقرانه.

يقول ثورو (Thoreau): "كيف لنا أن نتذكر جهلنا الذي يحتاج إليه نموّنا، حينما نستخدم معرفتنا طوال الوقت"، هنا تكمن المعضلةُ الكبرى.. معضلةُ الارتهانِ إلى واقعٍ زائف غير الواقع المنطقي المستمدّ عناصره من أسس العلم، ومنطق الخشيةِ ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٣٥/٢٨].. وهذا ما يؤدي إلى عواقب غير تلك المحسوبة لأنّها غير مؤسسة على العلم ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٨/١٠٤].

وجودُ البصر لا يعني النّظر.. يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٢٢/٤٦].

وفي هذا يقول المتنبي:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

لا يعني أيضاً انتفاخُ الجسدِ صحّةً وراحةً وعافية، وإنّما قد يعني الأورام كما يقول المتنبي:

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسبَ الشّحم فيمن شحمه ورمُ

الأشياءُ إذن ليست في مرآها وإنّما في حقيقة جوهرها!! الجوهرُ وحده المقياس على الزّيف أو العلم.. ومن هنا فإن تحرُّر الإنسان من الزّيف الذي يُغشّي به بصيرته هو خطوةٌ أولى نحو " النَّفَسِ الحر".. التّحرّر الذي بدأ بـ "اقرأ".. وإن كانت القراءة في "غار"..!! فالتّحرر النفسي أهمُّ من التحرّر

الجسدي، وحينما تتحرّر النفس، يتحرّر الجسد، فكلمة "أحَد.. أحَد" حرّرت جسدَ سيدنا بلال بن رباح من العذاب إذ عملت على فكِّ أغلاله ليس بمطرقةٍ فولاذٍ صلبةٍ تطرق الحديد طرقاً.. وإنّما بالاطمئنان الداخلي الذي انسابَ في النّفس،بالعلمِ الذي عبر بالجسدِ من مرحلةِ العبودية إلى مرحلة التّحرّر.. العلم الذي جاءَ بعد الاقتناع بالجّهل..

بدايةُ التّحرر الاقتناع بالجهلِ هذا هو منطق الرؤية العاقلة..

قل للذي يدّعي في العلمِ معرفةً علمتَ شيئاً وغابت عنك أشياءُ

الجهلُ هو طريق النّمو كما قال ثورو.. وكم من مدّعٍ بعلمه هوى، وكم من مدّع بجهلهِ ارتقى.. لكنّ الاقتناع بالجهلِ ليس ذلك المفهوم على أنّه التسليم أي العودة أو البقاءُ في الاستلاب، وإنّما الجهلُ المحفّز للمعرفةِ - إن جاز التعبير - الجهل بالنّقص والبحث من ثم عن ما يردم هذا النّقص بالعلم، كالمشخّص علّته باحثاً عن دواء شافٍ عن طريقِ الدّرايةِ بخصائص الأدوية وفاعليتها ومضاعفاتها..

ما العلمُ سوى معالجة الجهلِ، وما لم يُعترف بهذا الجهلِ، وتشخّص عِلَلَهُ ومواطنه فلن يكون العلمُ سوى ترفٍ..! لن يكون سوى إحدى الكماليات التي يُكملُ الإنسان مظهرهُ بها.. أن يقفَ المرءُ مع نفسهِ، يشخّص جهله أو أن يقبل أن يُشخّص له جهله مؤمناً بحكمة، كما ورد عن عمر رضي الله عنه: "رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي". فإن هذه الخطوة هي مبتدأ الطريق للعمل أو للنّمو..!

التّوقف عن هذه الحكمة يوحي بأنها صادرةٌ عن عقلٍ واعٍ، ونفسٍ رحبةٍ، وقلبٍ متسامح.. يتجلّى ذلك بالدُّعاء بالرحمةِ إلى ذلك الذي "يُهدي" العيوب.. وأين هي النظرة التي تُنصفُ الناصح المرشدَ فتراهُ في صورةِ مانح الهديّة في شكلِ نصيحة..؟!

الفردُ الذي يصلُ إلى الإيمان بتلك الكلمات الست هو فرد واعٍ يضعُ نفسه في موضع الرّحمة التي يدعو بها للآخر، موضع " رحمَ الله امرأً عرف قدر نفسه"

ولا تصدر تلك الحكمة إلا عن هذا القدر الذي يضع فيه الإنسانُ نفسه.. وهو موضع الرّحمة..!

المصيبة ليست في الجهل بل في إخفائه.. هنا يرتدي الجهلُ قناعاً.. قناعاً خادعاً..! ويحدثُ الخلط حينما تكثرُ الأقنعةِ، وتصبحُ المجتمعات حفلات تنكريّة منتشرة تمارس أدواراً مزيّفة، خادعة يقوم كلّ فرد فيها بدورٍ خادع حين يخفي وجهاً آخر لا يمتُّ بالقناعِ بصلة..!!

ولو تعلّمنا كيف نُعالجُ الجهل، وكيف نديره لما اضطررنا للبس الأقنعة..!! هذا العلم - علم معالجة الجهل - هو كما أرى بذرة النشأة للفكر الإنساني الواعي.. هو (الخرسانة) الأرضيّة التي تتأسس عليها فيما بعد قوائم العمل النازع إلى انتقاء المفاهيم السليمة لثقافة صحيّة عاقلة.

المشكل أمام هذا التّوجه هو تقييد العقلية بفكرة (التعليم) التي ترفع شعارها مؤسساتنا التعليمية، لكن الأحرى أن يكون التوجّه فضاءً مفتوحاً "بالتّعلم"؛ أي أن تكون لدينا مؤسسات "تَعَلُّم" وليس "تعليم".. التعليم مقرونٌ في ثقافتنا بـ "التلقين"، وهذا المعضلُ لا يساعدُ على فضحِ المكنون، ومناوشته، وتحويل مسلّماته إلى فرضيات، وحقائقه إلى جدليات تقبل النّقاش حتى تُبنى من هذا معرفةٌ تتأسس على الاقتناع..

الشّعورُ بالجهلِ محفّزٌ للعلم، والوهمُ بالعلمِ عائق.. ولا ينفكُّ الشعور بالجهل يلاحق المرء الواعي كي يتعلّم.. إنّما لدينا الكثير ممن يكتفون بنهايات ما حقّقوه من "إنجازات" بل " ألقاب" علمية فركنوا بعدها إلى هذا الشعور بالأبّهةِ والفخر.. وليتهم ركنوا إلى الجهل.. وكما تناقل من القول: " لا يزالُ المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل..!!"

لقد حكى لي بعض السلف أن أخاه كان يتعلّم في مدرسة للقرآن، فكتب المعلّم على لوحه ذات مرّة متذمراً..

عليَّ صبُّ المعاني في قوالبها وما عليّ بما لا تفهمُ البقرُ..!!

وحين قرأ الطالبُ ردَّ لمعلمه مجيباً:

حمّلتُ نفسي طاقةً فوق طاقتها وما عليّ بما لا يُسعفُ القدرُ..!!

عرضت لي هذه القصّة بدلالاتها التي أرمي إليها في حديثي فرأيت في خيالي وأنا أتأملها هاتين الطريقتين اللّتين لا تجمعان المعلم والطالب في مفصل واحد.. المشكلة هي ذاتها.. المعلّم يريد حمل الطالبِ على "التّعليم".. حتى "حمّل الطالب نفسه فوق طاقتها..فسلّمها لقدرها..!

القصّةُ في نظري تختصرُ مشكل "إدارة" العلم: نفسيّاتٌ متذمرة، ومصائر مفترقة.. الجهل في علم المعلّم، والعلم في جهل الطالب..!!.

صفحة بيضاء
رقم ١٧٢

الفصل الثالث

التغيير

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

لم تقولون ما لا تفعلون..؟!

بعد أن أنهيتُ الحديث عن قيم معطّلةٍ في مجتمعاتنا العربيّة أعودُ إلى المشهدِ المنقسمِ إلى صورتين: صورة الأحذية المتراكمة قبل عتبةِ الجامعِ، وصورة المصلين المنتظمين في صفوفٍ متراصة كالبنيان داخل الجامع، وقد حفّزني هذا المشهدِ بما يحمل من مفارقةٍ إلى الكتابةِ طوال ما يقاربُ العام كاملاً..!! آملاً أن أسبر أسباب هذه المفارقة تحدّثت خلالها عن القيمِ الإسلاميةِ المعطّلة، وفي ظني أن هناك الكثير من القيمِ المعطّلة التي يقصر عنها إدراكي المتواضع أو لم أطرق أبوابها مخافةَ عتب التطويلِ أو التهويل..!

وفكّرتُ مليّاً ماذا بعد ذكرِ هذا التعطيلِ وكيف يمكنُ تفعيلِ القيم ولم أجد سوى كلمةٍ واحدة هي الأقربُ في اعتقادي والأنجعُ وهي "التغيير"، فالتغيير هو البلسمُ الشافي للأمراضِ الفكريَّةِ والنفسيَّةِ التي عطّلت القيم النبيلةِ التي كوّنت بنية الثقافةِ ومنحت طابع خصوصية الهويَّة لمجتمعاتنا.

لقد مضى عام أو أكثر منذ أن أثارني منظرُ الأحذيةِ المتراكمةِ على عتبات الجامع في صلاةِ الجمعةِ، ثم الصفوف المنتظمةِ للمصلين خلف العتباتِ من الدّاخل بما يصاحبها من الخشوعِ والسمتِ والهدوء..! ذهبتُ إلى الجامعِ نفسهُ

بعد أن كنتُ مغترباً عن الوطنِ ووجدتُ مشهداً آخر زادَ من الفوضويَّةِ خارجِ الجامع لم يكن معهوداً من قبل، وهو الذي "زاد الطِّين بلَّة"..!!

فكما خلع الكثيرون أحذيتهم في فوضى عارمة عند عتبةِ الجامعِ والرفوف شاغرة، فقد ظهرَ سرب طويل من السيارات الرابضة في جسدِ الشارع المؤدي إلى الجامع، في حين كانت المواقف في حَرَمِهِ شاغرة هي الأخرى تنتظر من يملأ فراغها..!! وفي هذا المشهدِ تتبدّى الأنانيّة والفوضى وعدم الاكتراث..! تساءلت: ما معنى أن يمتلك إنسان ما سيّارة فارهة، باهظة الثّمنِ، وهو لا يملكُ عقلاً راجحاً، ولا حسّاً شفيفاً، ولا ذوقاً أنيقاً يوازنُ من خلاله مصالحه ومصالحَ الآخرين..؟! ما معنى أن يكون لإنسانٍ ما ملبساً نظيفاً، وهيئة رائقة في حين لا يقدّر قيمةِ النِّظامِ والقانون في حياتهِ، ولا يعترفُ بأهميّةِ المبادئ الأساسيَّةِ في شؤونه؟! ما معنى ذهابهِ للجامعِ للصلاةِ تاركاً سيّارته تعيقُ المرور في الشّارع، وحذاءهُ يعيقُ المصلِّين..؟! أينَ هي قيمةُ الدِّين في حياتهِ التي لا يمارسُ فيها بديهيّات، ومسلّمات تعدُّ من ألفبائية الدّين الإسلامي..؟!

هل لأنّه جاهل أم متجاهل؟! غافل أم متعمّد؟! مهمل أم مدرك؟! أغلبُ الظن أنّه مدرك لما يفعل لكنّ في الوقت نفسه غير مكترث وهذه هي المصيبة.. فكما يقال:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظمُ..!

والمشكلةُ الكبرى التي أوجدت هذه التناقضات الحياتيّة الصارخة، كما رأيتها، تكمنُ في تعطيل القيم الإسلامية النبيلة التي اتسمت بها هويّتنا العربيّة الإسلاميَّة، والتي نفاخرُ بها في أحاديثنا ولا نتَّبع الكثير منها في واقعنا..! مما أوجد ازدواجيّةً بين الفكرِ والسلوك في تركيبةِ شخصيّاتنا.

المصيبة الأدهى أن ينقل بعضُ العربِ هذا الاختلال وهذه الازدواجية والفوضويّةِ إلى بلدٍ يسودها النِّظام..! والمواقف متعددة وعلى سبيل المثال لا الحصر..فمنهم من لا يلتزم بالطابور، ولا بالمواقف المخصصة للمركبات ولا بالأنظمة المتبعة وغيرها..

القيم في حقيقتها ليست أشياء لا تحسّ ولا تعاش، بل هي التي تُكسب العلاقات طابعها، والأشياءَ معانيها في المعاش اليومي. لا يمكن استقراؤها منفردة، مجرَّدة من السلوك الإنساني، والنشاط الاجتماعي، إنما هي الفعل ذاته في سلبيته وإيجابيته ولكنها ظاهرة جمعية، لا تخص فرداً بعينه بقدر ما تخص مجتمعاً، ولا يمكن أن يوصم مجتمع ما بسلوك فردي يعدُّ شاذاً على السياق الاجتماعي في غالبه.

من هنا، يبدو المجتمع في حراكه الحضاري، في انتمائه الثقافي، في سعيه نحو بناء مستقبله، مراهناً على القيم الرفيعة التي توارثها واكتسبها في حاضره.. والمجتمع لا يمكن له أن يتخذ خصوصية ثقافية، وصبغة تاريخية يتسم بها فيما يسمى (الهوية) دون القيم التي جاءَ بها الدِّين الإسلامي وأقرّ أخرى كانت مفعّلة، ثم كانت تكتسبُ باستمرارية نشاطها من خلال المدارس والمجالس، والأسواق، والأنديةِ، والجمعياتِ، وعموم العلاقات الإنسانية، والرموز الفكرية، والروايات، والاشتغالات الأدبية، والممارسات العملية المهنية، وغيرها، يمارسها سواد العوام دون تدقيق في فلسفتها، ووقوف عند تفاصيلها وأبعادها، في حين كانت لها جذورها المتينة الضاربةُ في تربةِ الحنفيَّةِ السّمحاء التي أسسّت العقيدة والركائز الثابتةِ للمجتمع، وتركت فسحةً للابتكارِ، والاجتهاد، والتّجديدِ، وفق إطارِها العام، لكن شابَ بعض القيمِ الإغفال والإهمال، وشابَ أخرى التجاهل، وأخرى نالها التحريف والتزييف..!! ومن هنا أخذت بعض القيمِ الشذوذ عن مساقها المرسوم، حتى استغربَ لها منتسبوها وبالطبعِ الغرباءُ عن الثقافةِ الذين رأوا فيها تحجُّراً وتزمُّتاً مبالغين..! والدِّينُ المنتج للثقافة الإسلامية هو في الأصل دين الوسطيّةِ والاعتدال وليس دين تطرّفٍ وتزمّت..! من هذا المنطلق؛ فإن هذا الأمر يستدعي الوقفات الجادة لدى هؤلاء بين كل فترة وأخرى لمراجعة ما يستجد من ظواهر قد تتحول إلى قيم بحكم تبنيها من فئات معينة غير واعية إن كانت سلبية، أو من فئة مستنيرة إن كانت

إيجابية.. يجب التدقيق فيها والتفكير في تثبيتها أو إزاحتها؛ لأنها تشكل داءً سرطانياً لا يمكن إزاحته إن تفشى في الجسد الاجتماعي لاحقاً..

هناك بالتأكيد مجموعة من الظواهر المتفشية في كل مجتمع تتحول إلى (بدعة) في المصطلح الفقهي، وقد رسم مسارها الرسول الكريم بقوله: "كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار".. التدقيق هنا مقصده البحث عن (البدعة) وإزاحتها كي لا تعلق بالجسد.. كما البحث عن (السُّنّة الحسنة) بقصد تثبيتها والتأكيد عليها..

ومهما يكن من تشابه بين مجتمعات يجمعها الدين أو الدين واللغة أو التاريخ معهما فإن لكل مجتمع (هويته) الخاصة، ابتداءً من مفردات اللغة إلى ألوان العاطفة، إلى أطياف الأمزجة، إلى أشكال السلوك.. إلخ..

أفكر كثيراً في قيمنا، وأقارن بها دائماً في كل محفل وموقف بالسلوك، ولا يشكِّل هذا (المسح الانطباعي) فكرة عامة، وإنما تجميعاً لصور قد تخرج نتيجتها في يوم من الأيام أو بالأحرى يخرج تحليلها بصورةٍ أكثرُ منهجيَّةً. لقد بدت لي القضيَّة كأنّما تُختصر في الآيةِ الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٦١/ ٢-٣]، وهي عينُ الازدواجية وجرثومتها..! فالازدواجية خلل خطير في الشخصيَّةِ يصيبها بالعطل ويشلّ حركةَ تقدمها في الوقت الذي تظن أنها تمضي بشكلٍ طبيعي..!!

الاقتناعُ بالجهل منطلق التغيير

إذا استطاعت مجتمعاتنا أن تتسلح بالشجاعة فتعترف بجهلها في شؤونٍ لا تدركها فإنها ستكون قد وضعت خطاها في بداية الطريق..! إذ إن الإجابة المخلصة ستضعها في طريق التغيير.. "التغيير" هذه الكلمة الساحرة تبدأ من الاعترافِ بالجهل، إذا لا تغيير مع مكابرةٍ أو ادّعاء أو عدم قناعة لإحداث تغيير..

منطلق التغيير هو الاقتناع بالجهل، والاقتناع ليس عمليّةً يسيرة، بل هو مكابدة نفسيةٌ عسيرة المخاضِ، شاقة المراحل..! وترويض عاطفي صعب المراس..! فاقتناعُ المرءِ بأنّه علمَ شيئاً وغابت عنه أشياء ليس بالأمرِ الهيِّن، وإن كان على النّحو النظري يمكنُ تحقيقه إلّا أنّه على الصعيد التطبيقي صعب استيعابه.!

في مجتمعاتنا يعترف البعض بالجهلِ في أمورٍ حياتية، ولا سيما حينما يضعون أنفسهم إزاءَ بعض الأمم التي تقدمت في وسائل الحياة.. وقد يصلون إلى تحديد "مثبطات" نهوضهم، أو بالأحرى تقدمهم الفكري الذي يصاحب العمليّة الحضارية المتقدمة، إنّما لا يستطيعون أن يتغلبوا على تلك "المثبِّطات" النّفسيّة التي تعرقلهم..!! وهذا هو العجزُ بعينه!!.. أن تشخِّص الداءَ وتعرف الدواءَ ثم لا تُقدمُ على تناوله بأي حجّةٍ من الحججِ التي تصطنعها لنفسك، وهي لا تعدو كونها زيفاً خادعاً يسوِّغ للنفسِ أسباباً لا تؤمنُ بها، ولا تعتقد.. لكنّها تتشبّث بها تشبُّثاً عجيباً..!

إن خصيصةً كـ "الحسدِ" قد أصبحت سمةً لمجتمعاتنا، وهي خصيصةٌ يشهدُ بها شاهدٌ من أهلها قبل غيره، وهي لعمري من أكبر "مثبِّطات" الحراك الاجتماعي بأنساقه الفكرية، والعملية، والنفسية..!!

الحسد داءٌ استشرى في جسد مجتمعاتنا وأوغل فيها وتمكّن منها.. الداء الذي يدقُّ طبوله في النفس ما إن ينمي إلى أسماعها تفوُّق ما أو خير أو فضل أو نعمة لآخر..!! وبسببه شهدت البشرية أول جريمةٍ في تاريخها، إذ قتل قابيل أخاه هابيل؛ لأنَّ الله تقبّل من الأخير قرباناً ولم يتقبّله من الآخر.. فقتله!!

إن ذكري لهذه الخصيصةَ المأفونةِ هنا في معرض الحديث عن الثقافة والهويّة في زمنٍ متغيِّرٍ لهو من باب اللوازم، وليس من جزاف القولِ؛ لأنّها أكبرُ العراقيلِ أمام التجديد الثقافي الذي يؤطِّر بالتالي هويّة المجتمع ويمنحهُ طابعه الخاص..

تنطلقُ مؤسسات الهويّة الإسلامية من مبدأ "لا يؤمنُ أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" حديثٌ شريف، وفي حديث نبوي آخر" مثل المؤمنون في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " البخاري ومسلم. هذه المؤسسات لا يمكنُ لها أن تتحقق في ظلِّ استشراء داء الحسد في النفوس، الذي يعمل على سدِّ كلِّ طريقٍ موصلٍ إلى الرُّقي إن لم تدخل فيه مصلحةُ الحاسد الضيِّقة وبصورةٍ نفعيّة لا تراعي فيه مصلحة الجماعة. وهي متحقِّقة بتحقق شرطِ النفع للفرد في نهايةِ الأمر..! إلّا أن غياب النفعِ المباشرِ هو الدافع الرئيس أمام الحسد، الكامنِ كغولٍ يتسلل بين دهاليزِ النّفس فيقضُّ مضجعها، وأنّى لها أن تخمد فحيحه؟!!..

بين ثقافةِ:

معلِّلتي بالوصلِ والموتُ دونه إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطرُ

وبين ثقافة:

فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا

بين تلك وهذه أفقٌ شاسعٌ تترتبُ عليه كثير من الرؤى، والأفكارِ والخطوات.. تناقضات نفسيّة حادّة توازنُ لمصلحة الجماعةِ، أو تؤرجحُ لمصلحة الفرد.. وبينهما تتأخّر المجتمعات التي "تُحرم من القطر" أو تتقدم تلك التي تغدقها السحاب الذي يعمُّ العباد..!

لا يتحقق شرط الإيمانِ - كما جاء في الحديث الشريف ـ إلّا بزوالِ الحسدِ

حينما تنسجمُ المصالح، وتتداخل المنافع، ويصبح ما يحبّه المرءُ لنفسه هو ذاته الذي يحبّه لغيره..!! كيف تصولُ أفعى الحسدِ في النفوس وتجول بينما تدّعي الإيمان..؟! هذه معضلةٌ حضاريّة مثبّطة للتقدم الاجتماعي وعاملة على عرقلةِ أيّ تقدّم فيه بالمكر والدسيسةِ، وغير ذلك من الحِيل والفخاخِ المستهجنة..!

يقول ﷺ فيما رواه عنه ابن مسعود: "لا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ" أبو داود، الأدب: ٤٢١٨.

المُشكلُ أن تحقيق الانتصار الخارجي لا يتمُّ إلّا عبر الانتصار الداخلي - أي القدرة على التغيير - فحينما تتحقق سلامة الصدر يكون ذلك من أسباب الانتصار الداخلي ـ كما يقول الإمام القرطبي ـ في تفسيره للآية الكريمة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٢-٦٣]، وبسلامة الصدور تأتلف القلوب.. إنّما لا تأتلفُ القلوب الموغرة بالحسدِ فهو مولِّدُ الخصال السيئةِ الأخرى وهو منبعها النّتن..!

التغيير لا يتمُّ في كينونةِ أنفسٍ ضعيفةٍ ليست لها إرادة شمّاء، وهمّة قعساء..! كيف لمدمنِ عادة خبيثة أن يتحرّر من سلطانها على نفسه دون إرادة وهمّة؟! كيف لراغب في تحقيق المنى دون تجشُّم الصعاب..

ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدّهرِ بين الحفر

"أبو القاسم الشابي"

كيف لمن يرغبُ في الرّاحةِ أن يستسلم للدّعة والخمول..؟!

بصرت بالرّاحة الكبرى فلم ترها تنالُ إلّا على جسر من التّعب

"أبو تمام"

لا يكونُ التغييرُ إلّا عبر قناعات مبنيّة على الإرادةِ لا العلم فحسب.. العلمُ مؤسِّس القناعة، عربتها، أمّا الإرادة فحصانها.. وحين تُفتقد الإرادة فلا منفعةَ في العلمِ ولا مصلحةَ منه..!

بين المحافظةِ والتجديد

تطرحُ فكرة التغيير الفكري المفضي بطبيعتهِ إلى التغيير السلوكي مسألة مواجهة الزّمن المتغيِّر بصورةٍ سريعةٍ كإشكاليةٍ حضاريّةٍ تواجهها الهويَّة وخصوصيتها، مواجهة تكتبُ السكون للهويّات المقيّدة للتغيير، أو بالأحرى للأفكار التي تعتقدُ بخطر فكرة التغيير، وتكتبُ الحِراك للهويّات المتحرّرةِ فكريّاً والمرنةِ أمام أيّةِ تغييراتِ مصاحبة للتغير الزّمني..

بين الفكرتين: فكرة المحافظةِ (Conservatism) على التركيبةِ التقليديّة في العقل التقليدي الثابت، وبين فكرة التجديد والتغيير (Renouvellement) تقعُ المجتمعات في منطقة المواجهةِ مع المتغيراتِ الزّمنية التي تصاحبها تجدّدات الفكر، وتغيرات الثقافة، منطقةٌ مصيريّةٌ هي منطقة التاريخِ الحقيقي لمجتمعاتٍ ترغبُ في التّحرك، في الإبداعِ والتجديدِ، تتمتعُ بروح المبادرةِ، وتمتلك الجرأة، ومجتمعات مضطربة، محشوَّة بالخوفِ من تبعاتِ التغيير، وعواقب المغامرةِ، مقيّدة بأفكارٍ جامدةٍ أصبحت ثوابتَ لا تجوزُ غربلتها أو تحديثها أو حتى إثارة النقاش حولها..!!

المجتمعات المتحرّكة التي تمتلك روح الابتكار تواصلُ زحفها الحضاري، أمّا الأخرى الساكنة التي تثقل أرجلها قيودُ المحافظةِ الثقيلةِ الوطءِ فترهنُ نفسها إلى اجترار ماضيها ولا شيء سواه.. وإن كان هناك إيمان بقيمةِ الماضي كأساسٍ إلّا أن هذا الأساسُ يحتاجُ إلى إضفاءِ الحداثةِ عليه، وإسباغ المبررات المجدّدةِ لصيرورتهِ التي تبرر مواكبة الزّمن المتغيِّر.

يقول فؤاد زكريّا في مضمار الحديث عن أصحاب الفكرِ التقليدي: إنهم "يريدون عقلاً مطواعاً خاضعاً لا يتساءل ولا ينقد، ويخلط بين المشكلات الحقيقية والمشكلات الفرعية، وهم في هذا التوجه يعطون انطباعاً أن العقل

شيء غير مرغوب، وليس مطلوباً أصلاً، ومن هنا نجدهم يدافعون عن الثقافة الهابطة".

لقد أضحى التغيير في حدّ ذاته قيمةً معطّلةً، وهي قيمةٌ بارزة بل وجوهرية من قيم الدين الإسلامي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١]، فهي إذن ليست من المنزلات الإلهيّة، وإنما من الدوافع التي يجب على المسلم أن يتبنّاها ويقومُ بمسؤوليتها، بمعنى أنها ليست من الأمور القدريّة - مع علم الله بها - فلو كانت كذلك لنفت دور العقلِ في التغيير، ومسؤوليته في الابتكار لإعمار الأرضِ.

لا يمكنُ لأي مجتمع أن يدّعي التغيير في حين أنه يرمي خلف ظهره بديهيّات التغيير.. يقول غاندي عام ١٩١٧ بمناسبة افتتاح المعهد الذي أسسته (الآنسة آني بوسانت) متوجّهاً إلى الحضور من مواطنيه: " إن الهندَ لا تستحقُّ الاستقلال ما دام المار في أحد شوارع بومباي أو كالكوتا معرّضاً لأن يتلقى بصقة على رأسه من إحدى النوافذ".

ولا يمكنُ لأي مجتمعٍ أن يدّعي الديمقراطيّة - على سبيل المثالِ - كسبيلٍ من سُبُل التغيير دون فكرٍ ناضج، يقول الفيلسوف مالك بن نبي: " الديمقراطية لا تكمنُ في كلمةٍ تسجّل في مطلع الدستور، بل تحوُّل الإنسان هو الذي يخلقها، المواطن هو الذي يحملها في أحشائه، وبالأحرى حين يتعلق الأمر بالنخبةِ من المواطنينi"

التغيير يتمُّ بالعلم أولاً فهو أوّله وأساسه، يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣/٤]، لقد بدأ الإسلامُ بكلمةِ (اقرأ).. فالعلم ـ وهو التنوير ـ هو أساسُ التغيير النفسي والفكري، وهو ضدُّ الجاهليّة التي أعمتها العصبيّة والتبعيّة العمياءِ والكبرياء المضلّل عن اتباع الحق، والحقُّ وليدُ العلم. وما العشرُ سنواتٍ التي نزلت فيها السور المكيَّة إلا تكريسٌ للعلمِ بالعقيدةِ، والعقيدة هي علمُ التوحيدِ.

والتغيير يبدأ من التفكير، فهو المحفِّز عليه، فكيف لتغيير أن يُصنع بلا تمهيد

منسوجٍ من التأمل..؟! يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٤].

والتغيير يتمُّ بالعمل بعد العلم، فالصحابةُ لم يكونوا ليزيدوا من حفظِ آيةٍ قبل أن يطمئنوا إلى العمل بما جاءِ في الآيةِ السابقةِ التي حفظوها.. وما قيمة العلم بلا عمل أي بلا تغيير..؟! والتغيير يتم بالإيمان الصادق بالفكرةِ والاعتقادِ الراسخ بالمنهجِ الرّباني؛ فالهجرة إلى الحبشة والصمود في وجهِ حصار قريش وصنوف الوحشيّة الممارسةِ هي صورُ التغيير. والتغيير يتم بالتّوحدِ وإخلاص النوايا، وما التآخي بين المهاجرين والأنصار إلّا صورة مشرقة في التاريخِ لهذا النّمط من التغيير.

والتغيير يتم بنقد الذات وليس باتهام الآخر، وما قول سيدنا أبي بكر: " إن أخطأتُ فقوّموني"، وقول سيدنا عمر الفاروق: " أصابت امرأة وأخطأ عمر"، وهما من أولياء أمور المسلمين في مرحلة من المراحلِ إلّا الدليل الواضح على هذا السبيل المؤدي للتغيير. يقول الفيلسوف مالك بن نبي: " إننا نؤكّد على نقاطِ الضعف عندنا كي نحضِّر أسس (نهضتنا) بوجه أفضل".

والتغيير بتم بالإقناع، فربُّ العباد أخذ شاربي الخمر بالإقناعِ والتدرّج في تحريمها.. في ثلاث مراحل:

- **الأولى**: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٦٧].

- **الثانية**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤/ ٤٣].

- **الثالثة**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٩٠].

في مجتمعاتنا تغييبٌ كبير لفكرةِ التغيير الفكري، يتمثّل ذلك في مناح مختلفةٍ لا نشهد تغييراتها الواضحةِ الساطعة إلّا في بعض الاتّجاهات، فالممارسات الوظيفية التي تنهجُ (البيروقراطيّة) تعمدُ إلى الجمود الذي عمّم الروح الهامدة في أجواء المؤسسات فأصبح العملُ رتيباً، مملاً ليس فيه ما يحفّز العقل، ويدفعه للمبادهةِ والابتكار.. والأفكار المتحجّرة تنشطُ حتى في بعضِ الممارسات الشبابيّةِ، تلك الأفكار التي تنصتُ إلى الطبيعةِ التقليديّة المثبّطةِ للنموِّ والحركةِ حين يكون تركيزها ملتفاً حول آلياتِ الإدارةِ تاركةَ أساس وجودها وسبب نشأتها، ناظرة إليها بعين الدهشةِ والتّحسر، هذه الجمعيات، وهي ضمن المؤسسات المدنية التي لفتت أنظار العالم في الدول المتقدمة، لها أثرها البالغ في التغيير بما تطرحه من أفكارٍ متجدّدةٍ، ومشاريعَ طموحة. وفي مجتمعاتنا الكثير من العادات القديمةِ التي تحتاجُ إلى تجديد، والأفكار التي تحتاجُ إلى استبدالٍ أو تحديث.

وفي أحد المجالسِ التي كنتُ أطرحُ فيها أهميَّة التغييرِ السلوكي في المجتمع، عقَّب أحدُ الأصدقاء بالقولِ: إنّها مهمّةٌ شاقَّة لا قدرةَ لنا عليها..!! قلتُ: نستطيع تغيير أنفسنا إن لم نغيِر العالم، فقد قال أحد الفلاسفة: أردتُ تغيير العالم ثم استنتجت أنني لا أستطيع فعل ذلك، لكنني أستطيع تغيير نفسي، ومن ثم تغيير العالم..!! وحين يتم لنا تغيير أنفسنا وتطويع القوى الكامنة في دواخلنا نستطيع حينها التأثير في الآخرين،من خلال ما نملك من أدوات،فأنت معلِّم تستطيع أن تؤثِّر في طلّابك، وهذان ممثلان يستطيعان أن يقدّما رسالةَ التغيير مطويَّةً في مضامينِ الأدوار الفنيَّةِ، أما أنا فأستطيعُ أن أوظِّف الكتابةَ منبراً للتغيير الواعي للأساليب الحضاريّةِ، والمسلكيّاتِ القويمةِ التي تليقُ بالإنسان.

يقول وليم جيمس: " ليس بمقدورنا أن نغير شيئاً من إحساساتنا بمحض إرادتنا، ولكن في مقدورنا أن نغير أفعالنا، فإذا غيرنا أفعالنا تغيرت إحساساتنا بطريقةٍ آلية" فلربما لا نستطيع الابتسام بمحض إرادتنا لكن نستطيع التظاهر بالابتسام، وحينها تبدأ الابتسامة تسري إلى أعماقنا فتصبح حقيقية أصيلة..!

إن الوعي بفكرةِ الديمقراطيَّةِ في بلد ناشئ يحتاجُ إلى جهدٍ جهيدٍ كي يعي النّاخبَ فيه أهميَّة قراره، وعواقب ذلك الاسم الذي عمد إلى ترشيحه. يجب أن يتحضر لفهم أن خطاه التي يقطعها إلى صندوق الانتخابِ إنّما هي خطوات بناءِ الوطن، وأن تلك الورقة التي يُلقيها في جوفِ صندوق الاقتراعِ إنّما هي كلمةٌ في مضامين المبادرات الوطنيّة، والخطط الخمسيَّة، لكن حتى يصلَ المواطن إلى هذا الفهم فإن عقبات لا بدَّ لها أن تزاحَ وعراقيل لا بدَّ أن تزال..!!

هذا يعني أن المجتمع الآن يمرَّ بعمليّات شاقّة للتغيير أهمّها تغيير الأفكار، يقول الفيلسوف (إبكتيتوس): "إن إزالة الأفكار الخاطئة من العقلِ أجدى كثيراً من إزالةِ أورام الجسد". وهذا معقدُ التغيير وأسّه..!

صون الهويّة

تمرُّ المجتمعات بحالةٍ من الحراكِ الثقافي، وهذا أمرٌ طبيعي ومسوَّغ إذ لا شيء يبقى ساكناً في هذا الكوكبِ الذي تشرقُ شمسه كلَّ يومٍ من مشرقٍ مختلفٍ وتغيبُ في مغربٍ مختلف..!! إلّا أن استسلام البعضِ لفكرةِ التغيير الذّاتي المرتهنِ للظروف المحيطةِ بحسبِ المتغيرات الدولية والإقليمية الاقتصاديةِ منها والاجتماعية والثقافية بشكل عام، هذا الاستسلام لا نجدُ له مسوِّغاً، ولا يمكنُ لمجتمعٍ أن يُرهن للتغييرِ المسلّم للمصادفةِ وكأن مؤسّسات المجتمع قد رفعت يدها عنه وتخلّت لتترك المجالَ لمحركات تغييرٍ تغورُ في جسدِ المجتمعِ، وتنخرُ هويَّتهُ، وتناغشُ تقاسيم حياتهِ اليوميةِ البسيطةِ والمؤثِّرة في ذات الوقت.

وليس المجالُ هنا عن تقييد المجتمع، وشلِّ حركتهِ، وتكبيلِ حرِّيتهِ، إنّما ذلك بعيدٌ عن المقصد، بل رسمُ الخطوات الواعيةِ لإبقاء ثوابت الهويَّةِ؛ فعلى سبيل المثال فإن أهمَّ مطمحٍ لنا هو إبقاءُ ثوابتُ الدينِ الإسلامي لمجتمعاتنا واللُّغةِ العربيةِ، فهما الضامنانِ لثوابت الهويَّةِ وكنزاها، يقول ﷺ: " تركت فيكم شيئين لن تضلوا ما تمسكتم بهما؛ كتاب الله وسنتي"، الفكرةُ هنا بعيدةُ التخطيطِ، سليمةُ التركيزِ، ترتكز إلى أهميةِ وضع الخيوطِ السليمةِ التي يسيرُ بها المجتمعُ فتقودهُ إلى إبقاءِ ثوابتِ هويَّتهِ مع التجديدِ في مذاهبِ حياتهِ، والمثاقفةِ مع الآخرِ، والتعاطي ثقافيّاً بوعي معه.

من أهمِّ عناصر التخطيطِ، بل وأعظم ركائزه: التربية، فهل المهدُ الأوّل لخلقِ مجتمعٍ سليم الفكر، واضح الأهداف، صحيح البُنى إن كانت تربيةً ذات منهجيّةٍ مستقيمةٍ، يقول أحمد شوقي:

الأمُّ مـــدرســـةٌ إذا أعـــددتـــهـــا أعـددت شـعـبـاً طـيِّـب الأعـراقِ

وحيث إن المدرسةَ في مجتمعاتنا تشكّل مهداً تربويّاً يناط على كاهلهِ الكثيرُ

من الأعباءِ والمسؤولياتِ في هذا الشّأنِ، فإنها - أي المدرسة - تصبحُ ذات أثرٍ قوي في إحداث التغيير الاجتماعي، فهي الزارعة لجيناته بعد البيت، أو بالاقتسام معه أو بالتفوّق عليه، في كثير من الأحايين.

وهنا أقطف من ورقةِ الدكتور عبد العزيز بن عبد الله السنبل نائب المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وعنوانها (البعد السياسي لحركة تعليم الكبار: منظور عالمي) هذه الفقرات التي تدلُّ على أهميَّة التربيةِ في إحداث التغيير الاجتماعي، يقول:

"يمثل باولو فريري، وإيفان إيليتش رأي مدرسة الصراع والثورة في الفكر التربوي الحديث، إذ ينظران إلى أن رسالة المدرسة تتمثل في إثارة الوعي والتحريض والتجهيز والثورة لإعادة تشكيل الأنساق الاجتماعية وإحداث التغيير من خلال تغيير الدارسين واتجاهاتهم وأفكارهم". ويرى أن التربية تمثِّل مذهباً من المذاهب الأربعةِ ذات العلاقةِ بالمجتمع، يقول (يُرجع الحديث إلى عبدالله عبدالدائم) " يرى أصحاب هذا المذهب أن التربية متمثلة بمضامينها ورؤاها وتوجهاتها قادرة على إعادة صياغة المجتمع. وإن التربية والتربية وحدها هي التي تمكن من قيام عصر جديد. ومن كبار الفلاسفة الذين تبنوا مثل هذا الموقف الفيلسوف الألماني (كانط) الذي يتوقع أن يؤدي الإعداد التربوي إلى مساعدة الإنسانية على التقدم عن طريق الاقتراب رويداً من طراز الوجود الذي تتيحه الفكرة السلمية عن الإنسان، والذي يفترض أن نعقد الآمال عليه. فلاسفة مربون كبار أمثال: أفلاطون، ورسو، وبستالوتزي، وأوري، والمربي السويسري فيريير، وروجرز، ولوبرو يؤيدون بشدة قدرة المؤسسة التربوية على صنع التغيير المجتمعي وتوجيهه، ويرون أن إصلاح المؤسسات الاجتماعية ينبغي أن يمر من خلال إصلاح التربية. وهؤلاء جميعاً في تحليل كتاباتهم يربطون بين المسألة التربوية والاجتماعية والسياسية.

ويعد لوبرو (Lobrot) من أبرز وجوه التربية المؤسسية القائلة بالصلة بين التربية وتغيير المجتمع. يقول هذا المربي: " إن مجتمع الغد إما أن تصنعه

المدرسة وإما لا يكون ". ذلك أن الثورة التربوية في عصرنا، فيما يرى، شرط لازم لكل ثورة مهما يكن شأنها، وأي ثورة حقيقية طريقها هو تغيير الإنسان وليس مجرد القضاء على أعداء المدرسة. وهو يرفض العنف سبيلاً إلى الثورة ويهزأ بتلك الفكرة الساذجة التي ترى أننا إذا أمسكنا بزمام السلطة، وصلنا، لا محالة، إلى تطوير المجتمع. ويصفها بأنها ضرب من الوهم البيروقراطي المحض. وما هو أهم وأبقى في نظره، أن نقبل على العكس، الفكرة القائلة بأن تغيير الإنسان أهم من تغيير المجتمع، أو بتعبير أدق، أننا لا نستطيع أن نغير المجتمع إلا إذا غيرنا الإنسان. ومن هنا كانت إقامة شكل جديد من التربية أي شكل جديد من المدرسة أهم من تغيير النظام السياسي.

السؤال الذي يجبُ طرحُه هنا هو: هل تقومُ مدارسنا بدورها التربويِّ بالصورةِ التي تصونُ ثوابت الهويَّةِ وأخلاقها الأساسية؟! ثم تنحدرُ من هذا السؤال فروعٌ أخرى؛ ما المعضلةِ إذا كانت ثمة معوِّقات؟! كيف يمكنُ لنا أن نتجاوز هذه المعوِّقات ونرسمَ طريقاً واضح المعالمِ، راسخِ الخطا؟! لا يمكنُ بالطَّبع أن يحدُث تغيير طالما أن العلاقةَ داخل البيوت غير سليمة، والعلاقة بين البيت والمدرسةِ غير صحيّةٍ وغير وطيدة الروابط، وإنّما تسيِّرها الخلافات مع الطالب والمشاكل الناتجةِ عن تصرفاتهِ فقط، أمّا وقايةُ هذه العلاقةِ بخلقٍ أواصرَ إنسانيةٍ بين المربِّي الأول (الأب أو الأم) والمربِّي الثاني (المعلّم أو المعلّمة) فهذه بعيدةُ المنالِ.. والمشكلةُ هنا لا يمكنُ إلقاؤها على المدرسةِ وحدها، بل أولياءُ الأمورِ يتحمّلون من جانبهم عبء المسؤوليةِ الجسيم لتجسيرِ هذه العلاقةِ، إنّما من الضروري أن تقومَ في المجتمع مؤسّسات تُعنى بهذا الأمرِ كما يحدثُ في بعضِ البلدان الأوربيةِ كالمملكةِ المتحدةِ مثلاً والتي تكون مهمّتها تجسير العلاقةِ بين المدرسةِ والمجتمع، وذلك بتأهيل المجتمعِ تأهيلاً تربويّاً يكون عماده التّعلم، من هذه المراكز ما يسمى " البداية الواثقة .sure start"وقيام مجلس المدينة "City Council"" بدور رائد في هذا المجال، مثل ذلك الاهتمامِ

بتكوين علاقة جيِّدة مع أولياء الأمورِ، وتثقيفهم وهو الدور الذي تقومُ بها المدارس بغيّة التعاضد لإكمال العملية التربوية والتعليمية.

هذه المؤسسّات التي ترعاها الحكومات ذات أثرٍ فاعلٍ في المجتمعات إذ تتولّى حل المعضلات الاجتماعيةِ بطريقة ينصُّ عليها القانون الاجتماعي، وتساعدُ الأفراد على المساهمةِ في تقدمِ مجتمعاتها بصورةٍ يصبحُون فيها أعضاء فاعلين يقودون حركةَ التغيير في جوانبها المختلفة.

لكننا نفتقدُ في مجتمعاتنا لهذه المؤسسات (البينيّة) المساهمةِ والمساندة التي تضطلع بهذا الدور الاجتماعي الهام جداً. وهنا تكمن صعوبة إيجاد حلٍّ لمعضلات اجتماعية لا يمكنُ لجمعيّات أهليَّةٍ متواضعة الإمكانات أن تتصدى لها وتحلَّ إشكاليّاتها لأسباب أهمّها غياب المختصِّين المتفرغين فيها، وغياب الدّعم المادي والمرافق اللازمةِ، وعدم امتلاك الوسيلة الإعلامية المثقِّفة.

يقول المهاتما غاندي[1] (Mahatma Gandhi) عام ١٩٥٨ "لا أحبُّ أن تسدُّ الجدران المنيعة بيتي في كل جهة، وتغلق نوافذي، إنّما بدلاً من ذلك، أحبُّ أن تهبّ ثقافات الأرض المختلفة في بيتي قدر المستطاع، لكنني أرفض أن تقذفني أيّاً من هذه الثقافات خارج بيتي" هذه المقولة التي مرّ عليها ما يقارب النصف قرن، هي الأكثر موضوعيّة في قضية التعاطي مع تداخل الثقافات المتنوعة لأي سبب من الأسباب من وجهة نظري..إذ ترتكز على قيمتين جوهريتين هما: قيمة الانفتاح على الآخر، وقيمة الحفاظ على ثوابت الثقافة الوطنية التي تشكّل خصوصية الشخصية أو (الأنا الثقافية)..

القدمُ الرّاسخةُ في معتقدها المبني على القناعة هي التي لا يمكنُ أن تُقذف خارج إطارها المعيشي.. لكن الرُّسوخَ ليس ذلك التّشبث بالإطارِ دون الصّورة، بالغصنِ دون الجذر، بالظلّ دون الجدار..! الرّسوخ هو الانغماس في القناعةِ

(1) Radical economic, the strange story of footloose money, (2006), A Simms, Spring 2006, Issue number 28.

الفكريّة بالإرثِ المكوِّن للثقافة، الإرثِ الأصيلِ وليست قشوره أو بِدعهُ أو ما حوِّر من معتقداته وأنماطه وألصقت به فصارت هي الأصلُ دون أصلهِ، وهي المثابةُ دون مثابته..!

الإسلامُ أوجدَ ثقافةً ذات نسقٍ فريدٍ، نسق ينسجمُ مع طبيعةِ الإنسانِ، ويتناغمُ مع خطِّ سيره الحياتي المستقيم. هذه الثقافةُ حين تسودُ - بوعي ورقي - ستكونُ خير إرثٍ يتمسّكُ به المسلمُ وأعظم حقٍّ ينافحُ عنه..

لكن المعضلة الحقيقية هي في كيفيّة إظهار المسلمين للثقافة الإسلاميّة الجوهريّة، واتّباعهم لمنهجها الوسطي المعتدل..؟! الصّور السائدة في المجتمعات المسلمة هي صورُ غير متينةٍ الصّلة بالفهم العميق للإسلامِ بوصفه منهجاً وإنّما كمظلّةٍ عند الكثيرين..! بقي الإطار معلّقاً بينما الصورة ليست هي الصورة التي تعبّر عن فكرة الإسلام وثقافته في الغالب من الأحوال..

المعضلةُ في الفكرِ، الذي يأتي من القدرةِ على التّفكير.. أي القدرةُ على شحذ البصيرةِ، وتدبّر الحلولِ، وحسنِ التّصرف، وليس هذا فحسب بل المبادرةُ إلى الأعمال الخلّاقة..!

في إحدى تجارب المختبرات، اختبر طلّاب بأن أعطوا دارات كهربائية فطلب منهم إكمالها، وأثناء العمل احتجّ سبعةٌ وتسعون بالمئة منهم بأن الأسلاك غير كافيةٍ لإكمال الدائرة، وحين لم يجدوا الأسلاك المكمّلة، توقفوا عن العمل، بينما بادر الثلاثة بالمئة إلى حلول أخرى كالبحث عن مواد قابلةٍ للتوصيلِ غير الأسلاك، ومن ثم أكملوا الدارات الكهربائية..!!

لا يمكنُ أن تكونَ الحاجةُ أمّ الاختراعِ إلّا إذا قام الدّماغ البشري بالعمل السليم والحيوي في التّفكير، أما البلادة والاستسلام فهي من معطّلات الفكر..

إذن، فإن الذي حدث أن المجتمعات الإسلامية كانت قد بدأت في عصرٍ من العصور عمل الدارات الكهربائيّة، لكنّها توقّفت لأنّها لم تجد الأسلاك لإكمالها، في حين استطاعت مجتمعات أخرى كالدول الغربية إكمال تلك

الدارات بإيجاد حلولٍ أخرى.. وبذلك تفوّقت وخطت خطوات بعيدة وثّابة، لا يمكنُ مجاراتها لآماد بعيدة!!

الحفاظُ على الهويّة، وهي خصيصة الثقافةِ ولؤلؤتها الثمينة ليست بحفظها في صندوقٍ مرصّعٍ بالجواهرِ، ومصانٍ في أمكنةٍ حصينة.. وإنّما بنشرِها، وفرزها، وتقييمها، وتحديد الصالحِ من الطالحِ من قِيمها، ومُثُلِها.. وهو ما يعني الاشتغال فيها بالتّفكير..

قُلتُ في أحد المجالسِ، وكان الحديثُ عن التّاريخ: إنّه لا يمكننا الأخذ بمقولةِ المؤرّخ الفلاني مأخذ القطع والتثبيت. فردّ أحد الجلّاس والغضبُ محتدمٌ فيه: إنّك تتجنّى على علمائنا، فأجبته: إنّهم ليسوا أنبياءَ معصومين عن الخطأ..!! فإذا كان ذلك الاحتدامُ قد حدث لحديثٍ في التّاريخِ، فكيف هو الحالُ لو حدث لأمرٍ في الدّين أو السلّوك..؟!

نسلّم بأن الاختلافَ هو سمةُ التّحضر، وهو العاملُ المحفِّز على الابتكار، والتّجديدِ، والتّحديثِ، والتغيير.. وهو قيمةٌ من قيم الإسلام، يقول سيدنا عمر بن عبدالعزيز: "ما سرّنا لو علمت أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا"..

لكنّ مصادرة الاختلافِ حجَرَت التفكيرَ وأعاقته، ومنع العقول من أن تعبّر عمّا يدور في جنباتِ أنفسها.. وهنا مكمنُ الخمود الفكري الذي لم يتزحزح من مكانه مخافةَ تهمةٍ، أو سوء فهم..!!

لا يمكنُ للمجتمعِ أن يحافظَ على هويّتهِ، وخصوصيّته الثقافية وهو يعطّل التفكيرِ، ويحجر الاختلافَ، ويمنعَ الحوارَ، وينظرَ إلى إرثِ السّلف على أنّه إرث مجيد في كليّته، نزيه عن الخطأ، مشكّل في حدِّ ذاتهِ كطريقٍ سوي لا يمكنُ سلوك طريقٍ غيره لسلامةِ العيش، ورغده، وطمأنينته..!

بل الحفاظُ على الهويّة هو إعلاءٌ للحوارِ، والنّقاشِ، والاختلافِ التي هي أدوات للتفكيرِ.. ولكن ليس قبل أن تعي النّفوس بقيمةِ هذه الأدوات، وتتنزّه النفوس عن المآرب الضيّقة، وتتيّقن العقولُ بأن كلّ حديثٍ له غرضُ البناءِ لا التّهديم، الإصلاحُ لا الخرابِ، الجماعةُ لا الفرد..

حينها لا يمكنُ أن تقذف الثقافات الأخرى أي كائن بشريّ من جذور ثقافته الوطنيِّة - بحسب كلام غاندي - لأنّ قدمه راسخة، رسوخ يقينهِ بهويّته الناشئ لا عن عصبيّة، وإنّما عن فهمٍ وقناعةٍ بأنّها هي خصيصةُ شخصيته التي يحبُّ أن يوسم بها، ويعرف.

ها نحن نرتدُّ إلى الدّاخل مرّةً أخرى، إلى النّفسِ البشريّة، إلى الكينونة الثقافية، إلى السّمات التاريخية المؤسّسة لفكرٍ ومعتقدٍ وقناعةِ وعلمِ الإنسانِ، إلى العالم الداخلي في الإنسانِ.. العالمُ الصّعب الرّجوع إليه ومجادلته في حين يسهل التّصويب على الأهداف الخارجية.. يسهل إلقاءُ التّهمةِ على الآخر.. الآخر الهلامي.. الآخر المتخيّل.. في حين يعيشُ الآخر هادئ البالِ لا يدري أنّ وراء المحيطات، على بعد آلاف الأميالِ من يرمي التهمة عليه؛ لأنّه هو سبب مصائبه، ومحنه، وشقائه..!! ويا لهذا الوهم الشقيّ..!

نقد الذات

تعيشُ مجتمعاتنا حالة من الارتباكِ الثقافي يعودُ أساسه إلى فقدان الثقة، ضعف القرار المصيري، الجهلُ بالمستقبل، عدم وجود التخطيط، غياب الرؤية، فقدان تنمية الإنسان، تعود أسبابه إلى عدّة متغيرات، فهي تمرُّ في مرحلةِ الانفتاحِ الذي يمثِّل الانفتاح السياحيُّ أوسع المداخلِ إلى متسعها، هذا إلى جانب الفضاءات المفتوحة بأنماطها الثقافيَّةِ المؤثِّرةِ، وشبكةِ الـ (إنترنت) بعالمها اللانهائي، وهي نسخة أخرى لهذا العالمِ بين يدي المتصفح الذي يحقق حلم الحصولِ على (المصباحِ السحريِّ) و (ماردِ القمقم) بضغطةِ زر..!! ثم يصبح في كثيرٍ من الأحيانٍ فاقداً للقيادِ وهو مستسلمٌ لانثيال الكمِّ الهائلِ من الأفكارِ، والرؤى، والسلعِ والمنتجاتِ والألبسةِ والمستخدمات الكماليةِ المضلِلةِ في فروقاتها التي لا تكادُ تبين، وإبهاراتها التي من الصعوبةِ مقاومتها، حتى بدأت المحاكم تعرف ما يسمى بـ (جرائمُ الإنترنت) والتي تكثرُ في الغربِ بسببِ ضعف عامل التربيةِ والرقابةِ الأسريَّةِ مما يسهِّل عمليات الاستدراجِ للأحداث والتغرير بهم..!

على كلِّ حال، أين تجدُ مجتمعاتنا نفسها وسطَ هذا اللَّجب الصاخبِ..؟! وكيف يمكنُ للهويَّاتِ التاريخيَّة أن تُبقي على ملامحها، ولا نقول ثوابتها ولا أُطرها ـ حتى لا نغالي في التساؤل..؟! تساؤلات تاريخيَّة تجد لها مسوغاتها في الملاحظ من الشواهدِ اليوميةِ.. والإجابةُ: إن مجتمعاتنا تواجه - بقصدٍ أو غير قصد - برياحٍ هوجاءَ تحملُ في طيّاتها العديد مما لا يحصى من القيمِ الدخيلةِ السلبيةِ منها والإيجابية.. لكنني أعود إلى مقولةِ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقائد من قواد جيشهِ قبيل الانطلاق من المدينةِ المنوَّرة: إن هزمت فليس لقوةٍ في عدوّك وإنما لضعف فيك..! وهنا مكمنُ السرِّ الذي يجب أن تعيهِ مجتمعاتنا العربية الإسلامية: الهزيمةُ ثقافية داخلية، وليست كامنةً في الخارجِ،

في حينِ أن الخارج أضحى شمّاعةَ الأخطاءِ لأيَّةِ معضلةٍ ثقافيةٍ، حضارية.. إنّما النكوصُ نحو النّفس ومراجعةِ الأخطاءِ والاعتراف بها لم يكن ضمن الأجندةِ العربيّةِ إلّا النزر القليل..! فالإنسانُ العربيّ عُرف بصعوبةِ تقبّله الخطأ، وتكلّفهِ سماعَ النّصيحةِ.. وصراعهِ من أجل تفوّقه في إقناعِ الآخر.. والغريبُ أن بعض من يزعمُ أنّه مثقّف هو ألد أعداءِ الحوارِ، وأكثرُ النّاس شعوراً بالفوقيَّةِ والتمايزِ عن الآخرين..!!

ويعودُ السّبب في اعتقادي لاختفاء نقد موضوعيّ من صحائفنا الأدبيةِ إلى عدم الرّغبةِ في فقدان العلاقات والصداقات مع الآخر لأنّ هذه النتيجةِ حتمية إلى نسبة كبيرة..!! لقد فضّل سماع صوت الطبيعة الثقافية الصادر من ثقافتنا فيتقاسم شطر الخبزة كي " يعيش سالماً والقولُ فيه جميلُ...!"..

ولعلّني لا أنسى الوجهين الساخرينِ لكاتبٍ ومخرجٍ مسرحيين في الجلسةِ النقدية بعد أن فرغا من مسرحيّتهما المتهكّمةِ على أوضاعٍ شتّى والساخرة من شخوصٍ مختلفين، وكأنّهما قد أفرغا شحنات سخريتهما على من شاؤوا..!! أما وقد حان دور الآخرين في انتقادِ رؤاهم فقد بدت السخريةُ على وجهيهما، وشقّت الابتسامات الباهتة المستهزئةَ فاههما، وكأنَّ لسان حالهما يقولُ للمنتقدِ: ما أقحمك أنت في مضمار النقد حتى تنقدنا..!! لقد رأيتُ في عينيهما مشاعرَ الفوقيَّةِ والسخريةِ من الآخر، في حين سمحا لذاتهما منذ قليل بنقدِ الآخر بالطريقةِ التي راقت لهما..!!

وباختفاءِ النّصيحةِ بشكلٍ عموميّ غالب فإن الأصوات المنبِّهةِ أو "الأجراسِ الثقافية" اختفت، والدين جميعهُ يقوم على النصيحة "الدينُ النصيحة"حديثٌ شريف.. فحتى لا تفقد أخاً أو صاحباً فابتعد عن نصحه، حسب رأي الكثيرين..!! وهي مخالفةٌ في حقِّ الدينِ، وبالطبعِ في حقّ الثقافةِ العامة التي تستمدّ أصول نشأتها وتراكيبها منه..! ثم هي مخالفة للقاعدةِ الإسلامية "درءُ المفسدةِ أوجب من جلبِ المصلحةِ".. لكن الغالبَ فضّل وجود المفسدةِ مع استمرار العلاقةِ.. مبرّراً ذلك بالإمساك بـ "شعرةِ معاوية" أو بوجود مصلحةٍ

دنيوية ستفقدها النصيحة إن تقدّمتها..! وتحدثُ المخالفةُ هنا إن كان الجمع بين المفسدتين وإن كان التشبّث بأخفِّهما ضرراً، وذلك لوجودِ المصلحةِ؛ وهي المتجسّدة في أجر النصيحة..!

المشكلةُ الكبيرةُ هنا أبعد من مسألةِ ضيق المحيط بين اثنين، فهي مساحة واسعة تشمل المجتمعَ بأسره، ولهذا فإن المجتمعات التي غضّت أبصارها عن النصيحةِ لاقت وبالاً عظيماً.. منذ أيام كنتُ أستمع للإذاعةِ المحليَّةِ للـ (بي بي سي) في بريطانية، وكان الموضوع المطروحُ هو عبارة عن سؤالٍ للجمهور: "لماذا تشرب؟! ويقصدُ به، بالطبعِ، الكحول.. لقد كانت معظم الإجابات ملخّصة في: أشرب لأنّه "مقبولٌ اجتماعياً !!..socially accepted" هذه هي المعضلة: القبولُ الاجتماعي، وهي أساسُ المشكلةُ قبل صدور الإسلامِ، حيث وضع النبي ﷺ يدهُ عليها في قوله: "إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد..!!"..

فإذا اختفت النصيحة الهادفة أو النّقد الموضوعي البنّاء واختفت أصواتُ الناصحين، وكوّنوا قاعدة لهم، أساسها " بقاءُ المنفعةِ الدنيوية ـ مع الضرر ـ أدومُ من المصلحةِ الأخرويةِ مع انتفاءِ المنفعةِ الدنيوية"..!

ولهذا كان " الدينُ النصيحةُ"، هو أساسُ المجتمعُ الرّاشد، وقاعدة البناء السليم والحضاري فيه.. وكما يقول أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ " إن أصبتُ فأعينوني وإن أخطأتُ فقوِّموني"، والمجتمع بعدها في جميعِ فئاتهِ وشرائحهِ لا بدَّ أن يعي قيمةَ النصيحةَ من أجلِ التغيير..

روي عن أبي ثعلبة الخشني أنه سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن تفسير قوله ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ٥/١٠٥] فقال: "يا أبا ثعلبة مُر بالمعروف وانه عن المنكر، فإذا رأيت شُحّاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مؤثرة، محبوبة، مفضلة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، ودع عنك العوام. إن من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم للمتمسك فيها بمثل الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم" قيل: بل منهم يا رسول الله قال: "لا بل منكم لأنكم تجدون على الخير

أعواناً، ولا يجدون عليه أعواناً". وجاء عن عبدالله بن مسعود أن الزمان الذي قيل فيه هذا الكلام ليس هو الزَّمان الذي عناه رسول الله ﷺ، وأن زمنها سيأتي فيما بعد، وعندئذ يصنع بمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ما يصنع.

المشكلة في هذا الصّدد مشكلة نفسيَّة لا تتأسس على ركائز مفاهيمية سليمة..! أقصدُ بها مشكلتنا الشخصيَّة في التّعاملِ مع النصيحةِ كأساس التغيير السلوكي، ومن ثم الاجتماعي المتوسِّع في موجاتهِ المؤثِّرة..هذه المشكلةُ العميقة تحتاجُ إلى حلٍّ نفسي، مشكلة تتلخّص في هذا السؤال: لماذا نستثقلُ النصيحة في عمومنا؟! مع إدراكنا الخفيِّ بأن النصيحةَ واجبة، وأنها أساسُ التغيير، ومبعثُ التفكيرِ، ومنطلق إعادة النظرِ والتّوجهاتِ والمصائر..!! ولهذا جاء الدّعاء "رحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي".

هذا السؤال يحتاجُ إلى إجابة معمّقة، ودراسةٍ نفسيَّةٍ تضعُ حلولاً عمليَّةً في كيفية معالجة هذه الطبيعة السلبيّة، معتقداً في هذا الشأن بأن الدِّين الإسلامي يحملُ المعالجة الحقَّة لهذه المعضلة..

- ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٤].

-﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٥].

وما يطرحه القرآن الكريم كسبب للمشكلةِ يعودُ إلى الصلف والكبرياءِ الإنسانيِّ، وبالطبع فإننا نستثني مجتمعاتنا المسالمةِ من هذه الخصال.. إنّما نورد ذلك كي ندلل على طبيعةِ الإنسان المكابر الذي تتوزّع طبيعته في جميع البشر وإن تمايزوا بدين أو بعرق أو بجنس أو بلون..!

إنّما ذلك يتأتّى من خلال غرس البذورِ الأولى للنصيحةِ الهادفةِ، الهادئةِ في البيتِ، حيث يتوجَّب على أربابِ البيوت الكفِّ عن ممارسةِ السلطة الهوجاءِ، والطبيعة الصلفة وإبداءِ المرونةِ والعقلانيةِ والموضوعية في النقاشِ والحوارِ حتى

يصلوا مع أبنائهم إلى علاقةٍ مميّزة ينتفي معها الخوفِ والتّوتر، ويحل بديلاً عنها التفاهم والثقة وحريَّة التعبيرِ بما يتّفق مع القيمِ الإسلامية وأخلاق الإنسان المسلم.

ويتأتى ذلك من خلال المساجدِ التي أرى أنّها، وإن كانت منبراً للنصيحةِ والوعظ، لكنّها لم تفتح أبواب الحوارِ والنقاش بمرونةٍ يمكنُ للمرءِ أن يطرحَ فيها ما هو عالق في تفكيرهِ من أمور، ربما أساء فهمها أو تقديرها.. ويتأتى ذلك من خلال المدارسِ التي لا يجب أن تكون مصدر تلقين وتحفيظ، بل أن تلقي هذه الثقافةَ وراء ظهرها، وتنبذها وتحل محلّها ثقافة تقبل رأي الآخر والتعاطي معه في الرأي والأفكارِ واحترام معطياتِ عقلهِ، ومساهمات تفكيره ورؤاه، حيث لا تكون معايير الخطأ والصواب محدّدةً إلّا في ما ينتهكُ العقيدةَ الثابتةَ المؤسسة للدين الحنيف..

ويتأتّى ذلك من خلال المؤسسات المدنيَّةِ التي تعاظم شأنها في المجتمع المدني فأصبحت لها ركيزة يعتدُ بها في نهضةِ الشعوبِ، وتقدُّم المجتمعات..في الوقت الذي تدعم فيه الأمم المتحدة هذا التوجُّه، وعلى سبيل المثال أصدرت دائرة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية في الأمم المتحدة تقريرها لعام ٢٠٠٧ المعنون (Civic Engagement in Public Governance)، حيث يبرز التوجُّه جليّاً نحو الدورِ الأكبرِ للمجتمعِ، وهو ما يرادُ به مزيد من الصلاحياتِ تُعطى للمجتمعِ كي يبرزَ صوته ليس عبر صناديق الانتخابات الحزبيةِ، وإنّما عبر مؤسساتٍ لها توجهات إصلاحيّة دون مآرب فرديّةٍ ضيِّقة النظرةِ، محدودةِ المصلحة.

ما أردتُ قولهُ فيما مضى: إن التغيير السلوكي لا بد أن تبعثهُ أو تسانده النصيحة، وهذه لن تتحقق إلّا في ظلِّ أرضيّةٍ مهيأةِ التربةِ، تتقبّل بذورها حتى تنتجَ ثماراً طيِّبة.. فتقودُ من ثم للتغيير الإيجابي في فكرِ المجتمع وتقودُ توجهاته نحو الرقيِّ المعيشي.. والتغيير لا تقودهُ إلّا مؤسساتٌ واعية لها أهداف إصلاحية واضحة، وخطط بيّنة المرامي، محدّدة الغايات، ذات وسائلَ مؤسّسة على منهجٍ

علمي رفيع يأخذ في اعتباره جميع المناحي النفسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية.. هذه المؤسسات المدنية هي التي يمكنها أن تضع الخطوط العريضةَ لتفعيل قيمٍ معطّلة يحتاجُ إليها المجتمع الإسلامي.

الاجتهاد المجدِّد

ما يمنعُ الحراك النهضوي والتقدمي في أيَّةِ أمَّةٍ هو بقاؤها في محاورَ ثقافيَّة لا تريدُ التزحزحَ عنها قيدَ أنملةٍ بحجَّةِ المحافظةِ على النمطِ الذي نشأ عليه سلفها، والنشأة تستلزم المرور في دورات التطور الطبيعي لا المكوث عند مرحلتها التاريخية..

إثباتُ الأمَّةِ ولاءها للسّلفِ يسلتزمُ البناءُ على القاعدةِ المثلى من التركةِ القيميةِ، مما يكفلُ بقاء الإطارِ العامِّ (الثوابت) مع استمرار الاجتهاد في (المتغيرات) حتى لا تتحوّل بدورها إلى (ثوابت) وهي ليست كذلك!! هذه سنَّةُ التاريخِ حتى لا تشيخَ أمَّة من الأممِ، لأنّها لم تكن مرنةً أمام المتغيرات التاريخية، ولم تستغل الفرص المتاحة، كما لم تتثاقف بانفتاحٍ حضاريٍّ مع الأمم الأخرى، يقول في هذا الشأن المفكر والمؤرخ الكبير عبدالله العلايلي «ليس محافظة التقليد مع الخطأ، وليس خروجاً التصحيح الذي يحقق المعرفة".

هنا يبرزُ الاجتهاد كعاملِ تجديد لا غنى للأمَّةِ عنه، ونقصد بها الأمّة الإسلاميَّة، فالاجتهاد يكفلُ مسايرةَ التطوير الثقافي والفكري كمنشأ رئيسي للنهضةِ الحضارية، وأسلوبٍ مرنٍ لمواجهةِ التغيُّرات المضطردةِ، المتسارعةِ التي يشهدها العصر، وأولُ ما يؤثِّر ويتأثر به هذا الاجتهاد هو ملامسةُ الواقع، وليس الهيمان في قضايا لا تهم واقع الناس ومعاشهم اليومي الذي قد يدخلهُ التعقيدُ في بعض جوانبهِ ولا تثري شؤونهم الروحيةِ والثقافية وإنّما تثيرُ فتناً، وجدلاً بينهم، وهم في غنى عن كلِّ ذلك..!!

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال له: "كيفَ تَقضي؟" قال: أقضي بكتاب الله، قال: "فإن لم يكُن في كِتابِ الله؟" قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: "فإن لَم يَكُن في سُنّة رسول الله؟" قال: أجتهد

رأيي ولا آلو"، قال: "الحَمدُ لله الذي وَفّقَ رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسولَهُ" واه الامام أحمد. هذه هي الفكرةُ التي سارَ عليها السّلفُ وارتضاها نبيُّ الأمَّة..

ولعلَّ الملتقى الدولي حول " الاجتهاد ورهانات التحديث في العالم العربي" الذي عقد في الجزائر نهاية شباط/ فبراير ٢٠٠٨ يؤكّدُ على ضرورة الاجتهاد؛ إذ دعا المشاركون فيه إلى ضرورة فتح باب الاجتهاد لاستنهاض الأمة العربية، منبهين إلى مراعاة التوازن بين العودة إلى الماضي واعتبارات الحاضر. وقد اتفقت آراءُ المشاركين في المؤتمر حول ضرورة الاجتهاد، وهنا نستعرضُ بعض التعليقات لبعض المشاركين حسب ما نشره موقع الجزيرة الإخباري في ١/ ٣/ ٢٠٠٨.. ففي مداخلته حول الموضوع تساءل علي حرب (لبنان) عن سبب تعثر العرب في مشاريع التنمية، بالتلازم مع التراجع الحاد في مجال الأمن. وأرجع السبب في ذلك إلى "ضمور الأفكار والمفاهيم الباعثة على النهضة" مع تراجع الإنتاج المعرفي إضافة إلى "الاستبداد السياسي الذي يشل الطاقة الفكرية وانطلاقها". كما دعا إلى ضرورة كسر المنطق الأحادي في التفكير، وقال إن العرب بحاجة للتفكير في إطار كوني بشكل حضاري وديمقراطي، واستشهد بتجربتي ماليزيا وتركية كنموذجين لأهمية العامل الفكري وحيويته. ونبَّه مصطفى الكيلاني (تونس) إلى ضرورة الاطلاع على العلوم المتاحة لدى الآخرين، والرد على الذين يبالغون في القياس على الماضي، وقال: "المطلوب هو أن نعود إلى الماضي ونحسن الرجوع إلى حاضرنا". واستعرض عبد الله شريط (الجزائر) صوراً لقيام الدولة الإسلامية، وعرض نماذج وأشكال الحكم وتسيير شؤون الدولة، والنظام القضائي في عهد الرسول محمد ﷺ والخلفاء الراشدين. وأوضح كيف اتسم عهدهم بالحكمة داعياً إلى ضرورة الاجتهاد في الفكر السياسي.

هذه الملتقيات والمبادرات تعكسُ الحاجة الماسَّةِ للحراكِ الثقافي الدافع للحراك الاجتماعي، وتؤسِّسُ لفكرٍ لا يقبلُ الثباتَ والجمود، وإنّما التجديدَ والتغيُّر نحو الوسيلةِ المُثلى للمعاشِ الحياتي، وأسلوبِ الاقتداءِ، ونمطِ التفكيرِ، فكرٌ يستقي ثوابته من الماضي، ولكن يُحسن الرجوع إلى الحاضر، أي أن

تتحقق فيه الموازنةُ الفكرية التي تدفع الأمّةَ قُدماً نحو الازدهار المعرفي وهذا لبُّ الحضارة.

وحين نذكرُ الاجتهاد هنا، فإننا لا نقصرُ القول في أن يكون ذلك في الأمور الفقهيَّةِ بصورةٍ حصريَّةٍ، وإنّما نعمِّم ذلك لسائر مناحي الحياةِ، ومذاهبِ العيشِ، وأساليبِ التفكيرِ، ومن ثم فإننا نعني حركةَ الفكرِ أو التَّفكرِ الدائب الذي لا تنقعُ أواصرهُ عند نقطةٍ ما بل يستمرُّ رافداً، فهو في المجتمعِ كمكانةِ القلبِ في الجسدِ يمدَّه بالدَّم في دورانٍ لا ينقعُ طالما تدبُّ الأنفاسُ في الجسد..

نحنُ هنا/ الآن بإزاءِ الحديثِ عن ما يسمىَّ بـ (التفكير الإبداعي) الذي يقول عنه في كتابهِ (التفكير الإبداعي وحربُ أكتوبر) إنّه ذلك النوع من التفكير الذي يتّسم بحساسية فائقة لإدراك المشكلات وبقدرة كبيرة على تحليلها وتقييمها وإدراك نواحي النقص والقصور فيها، كما يملك صاحب هذا النوع من التفكير قدرة كبيرة على إنتاج الأفكار التي تتسم بالتميز والتفرد والجدة كما يتميز بالسهولة في إنتاج عدد كبيرٍ من الأفكار في وقت قصير وبالمرونة في التحول من فكرةٍ إلى أخرى. ويتسم صاحب هذا النوع من التفكير بقدرة كبيرة على التخيل والتصور والإنشاء والتركيب والبناءِ وإيجاد علاقات جديدة وتفسيرات متميِّزة لفهم الواقع والتعبير عنه وتغييره إلى الأفضل، وتكون نتائجه خلَّاقة وليست روتينية أو نمطية"[(١)]، ويبدو أن هذا ملخّص لمجموعةٍ من الاجتهادات والتفسيرات التي وردت في (المعجم الوسيط، الباحث نوول وزملاؤه ١٩٦٢، إيلين يرس ١٩٦٠، مراد وهبة ١٩٩١) بينما يزيد (شتاين١٩٧٥) على ذلك بالقول إنّه إنتاجٌ جديدٌ مقبول ونافع يحقق رضاء مجموعةٍ كبيرةٍ في فترةٍ معينةٍ من الزّمن في حين يرى "ريتشار دميل" أن الإبداع هو إنتاج شيءٍ ذي قيمة[(٢)].

الإسلامُ ذاتهُ يشدِّد على أهميَّةِ التفكيرِ، فهذا الأخيرُ مركزُ العبادةِ ولبّها،

(١) التفكير الإبداعي وحرب أكتوبر: لمؤلفه سعد الدين خليل (أكتوبر ٢٠٠٠) ، القاهرة مطابع دار الجمهورية للصحافة، ص ١١.

(٢) المصدر أعلاه: ص ١٢-١٣.

يقول تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩١].

من هذا المنطلق، كيف تكونُ للإنسانِ قيمةٌ دون إعمالهِ العقلَ في شأنِ الحياةِ وحكمتها، ومنهجيةِ العيش فيها، والتدبِّر في أحوالِ الإنسانِ والوجودِ..؟! إنَّ سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم دليلٌ على فكرةِ تشغيل القوى العقليةِ الكامنةِ في عقلِ الإنسانِ البحثِ الدؤوبِ عن الحقيقةِ، وبرهانٌ كذلك على أن هذا المنهجِ السّامي يُبنى على عاملين مهمَّين؛ الأول عاملٌ إنسانيٌّ يتمثَّلُ في النيَّةِ الصادقةِ والهمَّةِ الكأداءِ للإنسانِ في بحثِهِ عن الطريقِ الأمثلِ، والثاني عاملٌ سماويٌّ دافع لهذا التّوجِّهِ وداعم له، يتجسَّد ذلك في قولهِ تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٢-٣].

وفي قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٤٩].

كان التفكيرُ - وهو أداةُ الاجتهاد - ولا يزالُ عنصرَ التفوُّق بين الأمم، فالأمّةُ المتقدّمةُ هي التي يكثرُ فيها المفّكرون القائدون لدفّةِ التقدم فيها، والتحديثِ في الأنماطِ والسلوكياتِ في سيرورة حياتها ولذلك فإن كلمة (innovation) وتعني التجديد والابتكار هي كلمةٌ "مقدَّسةٌ" في الغربِ، في حين لا تجد العنايةَ الصحيحةَ في مجتمعاتنا العربية الإسلامية التي حثَّها دستورها السماوي على التحديث والابتكار..!! يقول ابن الجوزي وهو ينصح طالب علمٍ: (ينبغي له أن يطلب الغايةَ في العلم، ومن أقبح النقص: التقليد، فإن قويت همّته رقّته إلى أن يختار لنفسهِ مذهباً ولا يتمذهب لأحد، فإن المقلّد أعمى يقوده من قلّده).[1]

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية: الشيخ محمد الغزالي، ١٩٨٩، القاهرة، دار البشير.

في حين أن ما يعرقلُ إعمال التفكيرِ وتفعيل نشاطهِ في مجتمعاتنا هو النظرةُ القاصرةُ نحو العلمِ..! وذلك حين يُختزلُ في الحصولِ على الشهادةِ وكأنّها خاتمةُ المعرفةِ لا محفِّزةٌ لها، ونهايةُ الطريقِ لا بدايتهُ..!! فالشهادةُ في حقيقتها تعني اكتسابُ معرفةٍ في حقلٍ من الحقولِ المعرفيةِ، إذن فإن هذه المعرفةُ لن تكون ذات قيمةٍ إن لم تجد طريقها نحو الاختبارِ العملي والتطبيقِ الواقعي لإثباتِ جدواها، وبرهنةُ فاعليتها.. يقول الفيلسوف مالك بن نبي: إن نجاح الفكرةِ يكون في فاعليتها على أرضِ الواقعِ، أمّا (تأطيرُ) الشهاداتِ وتعليقُ صور التخرُّجِ الزّاهيةِ في الجدرانِ فهي، وإن تجسّد الافتخارَ بالمنجز، إلّا أنّها تجسّد أيضاً ـ عند الكثيرين بصورةٍ ضمنيَّةٍ ـ إعلان النهايةِ..!! نهاية معرفة أو موتها..!! فكلمةُ "يكفي" تتردَّدُ على لسانِ الكثيرين ممن حصلَ على شهادةِ ما، خاصةً الشهادات الجامعيةِ العليا..!! وجملةَ (أكملَ تعليمه) تدقُّ المسمار الأول في نعشِ المعرفة..!! والضَّجرُ من التّعلمِ سمةُ الكثيرين في مجتمعاتنا.. وهذه السّمةُ لا يُلقى اللومُ على أصحابها؛ إنّما على ثقافةٍ سائدةٍ ولأسباب التحصيلِ المعرفيِّ والنظرةِ الاجتماعيةِ وميادينِ العمل.!!

أذكرُ ذات يوم كنتُ في المستشفى، وكنتُ أقضي وقتي قارئاً، وأنا أنتظرُ موعدي لمقابلةِ الطبيب الذي طال وطالت به مدّة قراءتي، إلّا أنني كنت مستمتعاً بقضاءِ بعض الساعات وأنا بين دفّتي كتاب، لكن الأمر المستغرب أنّ أحد المنتظرين مثلي لمقابلة الطبيب - ولم تكن لي علاقةٌ به - قد ثارت ثائرتهُ لطول قراءتي فسألني بصوتٍ غاضب: ألم تستكفِ من القراءة، لقد مضى عليك وقت طويل وأنت تقرأ..!!

التضجُّر من اكتسابِ المعرفةِ، إن لم تكن عدوى لدى الكثيرين في مجتمعاتنا، فهي انتقالٌ قهريٌّ يمارسُ بصورةٍ علنيةٍ، كحال صاحبنا الذي أثار حفيظته طول وقت قراءتي..!! في حين أن البعضَ يتحجَّجُ بـ (كبر السنِّ)، وهو شابٌ في ريعانِ شبابه لغطاءٍ يعزِّي به نفسه، أو يُقنع به الآخرين..!! وهو أمرٌ مخالفٌ تعاليم الدّين، فقد جاء في الأثر "تعلّموا العلمَ من المهدِ إلى اللّحد".

النظرةُ القاصرةُ نحو العلم إذن هي معرقلٌ أمام التفكيرِ الذي يفتحُ له العلمُ أبواباً واسعةً من التجديدِ والابتكار، "ففاقدُ الشيءِ لا يُعطيهِ" كما درج المثل، فكيف بمن لا يملك المعرفةَ أن يبتكرَ أو يجدِّد؟! وكيف بمن لا يفكِّر أن يجتهدُ؟!

الاجتهاد يرتبط في الغرب بالتحديث والابتكار (innovation) ويعني - كما قلت سابقاً - التجديد والابتكار، في الوقتِ الذي يندرُ وجوده في مجتمعاتنا، وهو في أصلهِ عمليةٌ ترتبطُ بالتربيةِ المبكّرة التي يكونُ البحثُ واحداً من أركانها الأساسيَّةِ. يقولُ أحد الأصدقاءِ: لقد كنتُ أعيشُ مع أسرةٍ إنجليزيَّةٍ وذات يومٍ جاءتني ابنةُ العائلةِ ذات التسعة أعوام، تطلبُ مني أن أحدِّثها عن الإسلام. فاستغربتُ لطفلةٍ غربيَّةٍ تسألُ في مثل هذا العمرِ المبكر عن الإسلام وقد ازددتُ إعجاباً بكلامها حين قالت: إنّ المعلّمةَ قد طلبت من تلاميذ الفصل كتابة بحثٍ في أيّ موضوع يروق لهم، وقد رأيتُ - والحديث للطفلة - أن أكتب عن الإسلام؛ لأنّك مسلمٌ وتستطيع أن تجيب عن استفساراتي عنه..!! في المقابلِ فإن بحوث الطالب العربي يكتبها الأب أو الأمُّ أو الإخوة الكبار في البيت..!

وقد اندهشتُ حين قرأت مقالاً فائزاً في إحدى المجلات التربوية بعنوان (الصدق)، ولم تصدِّق عيناي وأنا أرى صورة كاتب المقالِ فقد كان طفلاً في السابعة من عمره.. وهذا يعني أن من كتبهُ شخصٌ راشد؛ إذ كُتب بلغةٍ رصينة.. وتساءلتُ: أينَ هو الصدقُ في مقالٍ عنوانهُ (الصدق)..؟!!

الحديثُ الآنف يقودنا إلى الحديثِ عن أزمةِ البحثِ العلميِّ في العالم العربي، وهو ما يلمسُه الباحثُ بالأخصِّ حينما يسعى جاهداً لتعضيدِ مناقشته أو زعمهِ بالأدلَّةِ العلمية للباحثين، ولعلَّ المعضلةَ الأساسيَّةَ تكمنُ في أنَّ البحثَ العلمي ليس جزءاً من الثقافةِ العربيةِ، كما كان في إبَّان العصور الأولى للإسلامِ بعد أن توطّدت أُسس العقيدةِ، وكان على الدولةِ أن تغذِّي شرايينها بالعلم كي تتفوَّق على سائر الدولِ المرهوبةِ الجانب آنذاك.. فقُرِّب الباحثونَ من الحكّامِ

آنذاك، ووفرت لهم الحوافز التي تدفعهم للترجمةِ والبحثِ والابتكار، وسخِّرت لهم الأدوات والأموال اللازمة لفتحِ آفاقٍ جديدةٍ في العلمِ والمعرفةِ الطبيعيةِ والبشرية.. إنما وضعُ البحثِ العلميَّ الآن - في عصرٍ يشكّلُ البحثُ العلميُّ محورَ أيَّ تقدّم فيه - وضعهُ ليس بالمرضي أبداً..!! حتى إن تقديراتٍ تشيرُ إلى أن ٩٥٪ من علماءِ العالم ينحصرون في أمريكة وأوربة واليابان، بينما تتقاسم بقية الدول وبينها الدول العربية الـ ٥٪ المتبقية[١]..!!

هذه معضلةٌ كبرى تبدأُ من عدم اهتمام الكثيرِ من الحكومات بالبحثِ العلمي، ولا تنتهي عند عدم وجود المراكز البحثيَّةِ أو عدم الاكتراث بحصاد تلك البحوث، حتى ترسَّخ في العقلِ أن كل بحثٍ مآلهُ الأرفف المغبرَّة، أو الأدرج المظلمةِ..!!

هذه الثقافة ساهمت في عدم الاكتراث الإنساني بالتربيةِ البحثيَّةِ، والنشوء على التفكيرِ الممنهج الذي يعرف تدرجات البحثِ وخطواتهِ وأدبياتهِ وأخلاقيّاتهِ، وخلَّف ذلك من ثم أجيالاً لا تكترثُ بالبحثِ العلمي، حتى إنّها وهي في أحضان الدراسةِ في الغرب تصطدمُ بعقباتٍ كثيرةٍ أثناء سعيها لمعرفةِ ماهيَّةِ البحثِ، وكيف يمكنُ أن يكونَ الباحثُ ناقداً (crititcal) أو محلَّلاً (analytical)، وهو لا يعرفُ سوى المنهجِ الوصفي (descriptive) في البحث، وهذا الأخير لن يُنتج سوى حصاد غير نافعٍ من الناحيةِ العلمية..!!

وفي جانبٍ آخر، كم هي المؤتمراتُ والندوات والورش والحلقاتُ التي تعقدُ في أرجاء العالم العربي ثم تُردّد ذات التوصيات من مناسبةٍ لأخرى دون تطبيق، وهذا ما يعني أنَّ ثمة انفصاماً في العلاقةِ بين الأجهزةِ التنفيذيةِ وتلك الاستشارية، في حين أن السياسةِ في الغربِ أو أمريكة تعتمدُ على الأبحاث التي تُجريها المراكز البحثية المتخصِّصة فتقوم بتصحيح أو بتوجيه سياساتها بعد تقييم

(١) مجلة (الوعي الإسلامي): العدد ٥١٠، شباط/ فبراير ٢٠٠٨.

تلك البحوث؛ أكانت بحوثاً سريَّةً أو معلنة بحسب طبيعةِ القضيَّة/ القضايا المبحوثة.

نعودُ مرّةً أخرى إلى الحديثِ عن الفكرِ، ونستحضرُ الحديث الشريف" مثل ما بعثني الله عزّ وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيم الكبير، أصاب أرضاً فكانت منها بقعةٌ قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها بقعةٌ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وكانت منها طائفةٌ قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً" متّفقٌ عليه.

فأين نجدُ أنفسنا كمجتمعات عربيَّةٍ مسلمةٍ.. أقصد في أي بقعةٍ يمكننا أن نصنِّف أنفسنا فيها..؟! يقول الفيلسوف مالك بن نبي في كتابه (مشكلةُ الثقافة) في إزاءِ هذا الحديثِ الشريف: "في هذا النص تدرجٌ من الأعلى للأدنى في تصوير علاقةِ الفرد والمجتمع بالعلم، أي بالأفكارِ والأشياء. وكأنَّ النبي ﷺ أراد من هذا التدرج بدرجاته الثلاث أن يشير إلى عصور ثلاثة يمر بها المجتمع، يبدأ تاريخه بمرحلةِ يحدث فيها تقبل الأفكار وإبداعها وتمثلها، تليها مرحلةٌ تبلغ فيها الأفكار إلى مجتمعات أخرى، ثم تعقب مرحلة يتجمد فيها عالم الأفكار فيصبحُ ليس لديه أدنى فاعلية اجتماعية. فيمكننا القولُ - والحديث لمالك بن نبي - إن المجتمع الإسلامي في عصر الفارابي كان يخلقُ أفكاراً، وإنه كان على عهد ابن رشد يبلغها أوربة، وإنه بعد ابن خلدون لم يعد قادراً على الخلقِ ولا على التبليغ".

وقد يصدقُ هذا الكلامِ في عموميّتهِ الاجتماعيةِ، وسياقهِ الثقافي العام، في حين أن هناك بالتأكيد الكثير من المبادرات والأطروحات الفكرية على الصعيدِ الفردي، لكن تقفُ عوائق كثيرة أمامَ ظهورها، وانسيابها في الجسد الثقافي.. فلا تجدُ هذه المبادراتُ من يتبنّاها، أي لا تجدُ حاضناً ثقافيّاً يرعى فكرتها، ويسعى إلى حقنها في الثقافةِ العامةِ لتصبحَ ضمن المنظومةِ الثقافية للمجتمع، لكن هذا لا يعني عدم وجود مبادراتٍ فرديَّةٍ من منطلقِ الإيمان الذاتي المحرِّك لإحداث تغييرٍ أو المساهمةِ فيه، لدى بعض الأفراد الذين يملكون المال

والإرادة كما يجدون السوانح المتاحة، والمباركة والتشجيع من قِبَلِ السلطات المسؤولة في بعض الحكومات العربية.

هذا يقودني إلى ضرب المثلِ برجلِ أعمالٍ خليجي استطاع ـ مع بساطةِ فكرهِ، وتواضعِ علمه، لكن أيضاً مع حماسة نفسه المجتهدةِ التوّاقة للمساهمة في التغيير - أن يتفكَّر بعمقٍ وإدراك في الحديث الشريف حول تغيير المنكرِ في قوله ﷺ: "من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فمن لم يستطع فليغيِّره بلسانهِ، فمن لم يستطع فليغيره بقلبه وذلك أضعفُ الإيمان"رواه مسلم.. وكانت رؤيته إلى التغيير باليدِ جميلةً، ففسّرها إلى أن (التغيير باليد) يعني (التغيير بالعمل) وليس بالضرب أو العنفِ أو السيف كما قد يتراءى للبعض..!! فعمدَ - وهو صاحبُ ثروةٍ مالية ـ إلى إحداثِ تغيير في جانبين مهمّين في المجتمعِ وهما: الجانب المالي، والجانب التعليمي.. فساهم في تغيير المنكرِ في المال حيث رآه في البنوك الرّبوية، فقام بإنشاءِ بنكٍ إسلامي، وساهمَ في تغيير المنكر في التعليم حيث رآهُ لا يؤهّلُ أبناءً حاذقين واعين للمسؤولية في سن الرُّشد، فأنشأ مدارسَ وكلِّيات شبه مجّانية ذات مناهجَ تحقق هدف التأهيل المنشودِ في سنِّ البلوغ.. كما تأمّل في سورةِ الماعون حتى ألّف كتاباً أسماه (تأمُّلات في سورة الماعون) وخرجَ من تأمّلاته هذه بمساهمةٍ اقتصاديةٍ للمؤن الأساسية كي ينضوي تحت لواء (الحاضُّون على طعام المسكين)..!!

أُجملُ القول هنا بأن الاجتهاد ذو أثرٍ فعّال في إحداثِ التغيير، وله أبوابهُ المتعدّدةُ كذلك إنّ كان منطلقه النيَّة السليمة وغايته ابتغاء وجه الله والمثوبة من لدنه، ولا شك بأن وجود ثقافةٍ اجتماعيةٍ لتشجيع الاجتهاد، أداته الفكرُ ومنهجهُ البحث، هي النواةُ السليمة لأيّةِ نهضةٍ علميةٍ، وأي تقدّم حضاريٍّ سليم البنيان، قويّ الأركان.. وتوازياً مع هذا أن العامل المساعد والمحرّك وجود أصحاب الثروات المالية القادرين على المساهمةِ في التغيير من منطلقات الإيمان الساميةِ الذين يسخِّرون فكرهم ومالهم لإحداث التغيير، تغيير القيم الدخيلةِ، والعادات الشاذّةِ، والاتجاهاتِ غير المبنيةِ على منطقٍ أصيل.

إصلاح الذات

قد تسبِّبُ الظروفُ التاريخيَّة التغييرَ، وهذا أمر مقبول ومفهوم، لكن أن يكون هذا التغيير ردّة فعلٍ نفسيَّة مؤقَّتةٍ يعقبها خمود، وتنازل، وسكون، وضعف، فليست هذه سمةُ التغيير الذي يمكنُ أن يؤسِّس لتبني قيم أو تفعيلٍ قيمٍ معطّلة..! التغيير الناشئ كردَّة ثائرة لا يصاحبهُا التفكير وإنّما العواطف.. وهو وإن كان مبرّراً في بعضِ الظروف حينما يشعرُ الإنسانُ الحرُّ بأنّه قد طُعنِ في معتقدهِ أو خُدش في أحاسيسهِ، أو انتهك عرضه، أو سفِّهت كرامته، لكن لا يجبُ أن يقود هذا إلى الفعلِ غير المحمودِ العواقب.. فنبيُّنا الكريم يقول: "ليس الشديد بالصرعةِ وإنّما الشديدُ من يمسك نفسهُ عند الغضب"

إذا كان المثل القائل "الحاجةُ أمُّ الاختراع" صادقاً، فإن التغييرُ المبني على التخطيط المستقبلي، والمتنبئ بسيرورة الحدثِ، وحركةِ المجتمعِ، وتقلباتِ الظروف، وانعطافات التاريخ هو الأجدى والأنفع.. بل والأكثر رسوخاً ومتانةً ونجاحاً..! لكن المشكلة أنَ الإنسان العربيَّ يتمتَّعُ بمعضلةٍ نفسيَّةٍ؛ وهي أنّه انفعاليٌّ، يثورُ كلّما استفِز..ثم يهدأُ بعدها وكأنَّ شيئاً لم يحدث!! وقد عبَّر عن هذه المعضلة بعض أعدائه بالقول: إن الحماسةَ تبلغُ به مبلغاً، ثم سرعان ما يخمدُ ويهدأ..!

ولنضرب مثلاً على ذلك في الرسومِ المسيئةِ للمسلمين بحكم إساءتها لنبيّهم ﷺ، فقد خرجت بعض المظاهراتِ عن طورها فاقتحمت سفاراتُ دولٍ، وأحرقت أعلامها.. وهو وإن كان في جانبٍ منهُ معبِّراً عن شعورٍ بالغضب وانتهاكِ المعتقدِ، إلّا إنّه كان خارجاً عما أمرَ به النبيُّ عليه أفضل الصلاة والسلام في قوله: "ليس الشديد بالصرعةِ إنما الشديد من يمسك نفسه عند الغضب"..!! وقد رويت حكاياتٌ عن تهوّرِ بعض الأعرابِ، ورعونةِ تصرفاتهم نحو النبي الكريم، غضب إثرها الصحابةُ واستلَّ بعضهم السيوف لضربِ الأعناق لكن عليه أفضل

الصلاة والسلام أظهر عكس ما أبدوه فكان له أثره الذي كان منه أن دعا الأعرابي الذي تبوَّل في المسجدِ بعد أن أمر الرسول الكريم أصحابه بعدم قطع تبوِّله ثم نصحهُ نصيحة لطيفة، ودعا الأعرابي قائلاً: "اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم غيرنا..!!، وحكايةَ الأعرابي الذي قال للنبي ﷺ: سأدخل الإسلام، ولكن ائذن لي بالزِّنى، فنهره بعض الصحابةِ، في حين سأله النبي الكريم بلطفٍ عدّة أسئلةٍ فيما لو كان يرضى بالزّنى لأهله.. حتى أقنعهُ بالحجّة..!

أرى أن النصرةَ الحقيقية للنبي ﷺ هي أولاً في الاقتداءِ بسنته السمحة لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢١]. ومن ثم تبليغ رسالته بالعمل الصالح، والقدوة الحسنةِ، والسلوك الأمثل قبل الخطاب الشفوي..! أقول هذا الكلام بعد أن وقعتُ في تجاربَ مع أجانب لا يفقهون شيئاً عن الإسلام، ولا عن نبيّه إلّا ما فعله بعض من يدّعون الإسلامَ في الغربِ من أعمالٍ تلصق تهمةُ (الإرهابِ terrorism) بالإسلام والمسلمين، هذه التجارب أرتني تقصيرَ المسلمين في دينهم.. التقصيرُ في أمرين: اتِّباعُ السنَّةِ المحمَّديةِ السمحاءِ، وتبليغ الرسالةِ - بالتي هي أحسن - لغيرِ المسلمين. وحين أقولُ التقصير فإنني أتذكرُ مواقف عديدة في كلا الأمرين، فكلاهما مرتبط بالآخر.. فكيف بغيرِ تابعٍ يبلِّغ، وكيف بمبلِّغ لا يتبِّعُ الهُدى؟! ولنسق قصَّةً على ذلك.

أحدُ الشباب العرب (المسلمين) أحبَّ فتاةً غربية تدينُ بغيرِ دين الإسلام، حتى وصلَ الأمرُ بينهما إلى الرغبةِ في الزَّواجِ فتشدَّد أهله في رفضِ الزِّيجةِ لأنَّ الفتاة غير مسلمة (بينما الدِّين يحلُّ الزواجَ من كتابيَّة)، فالتمسَ منها الشاب أن تفكِّر في الدخول في الإسلام وأمدّها بالكتب التي تشرحُ لها ماهية الإسلام وقيمه ومبادئه فطلبت مهلةَ أربعةَ أشهر كي تقرأ وتفكر.. وكان الشاب خلالها يتقلَّبُ متحرِّقاً لسماعِ قرارها الذي كان يأملُهُ إيجابياً.. وبعد انقضاءِ المدَّة المحدّدةِ من قِبلها واجهته بالقرار: سأدخلُ الإسلام.. فقفز الشاب فرحاً، مبتهجاً، لكنّها أردفت قائلةً: لكنني لن أتزوجك..لأنك، وحسب ما قرأت في الكتب التي أهديتني إيّاها، تتصرف بغيرِ قيم الإسلامِ وأخلاقياته..!!

المسلمُ إذن قبل أن يبلِّغ يكونُ قدوةً للآخرين، فقد دخلت أمم كثيرةٌ في الإسلام في العصور الأولى بسبب تصرفات التجَّار المسلمين التي كانت تستمدُّ من أخلاقياتِ الإسلام، وتربيتهِ الصالحةِ الكريمة.. على المسلمِ أن يُصلحَ ذاته قبل أن يرفعَ عقيرته ساخطاً على من لم يسمع بالدِّين الإسلامي، فلا تزيدُ النيرانُ التي أُشعلت في أعلام الدّولِ إلَّا هيجاناً وسخرية من غير المسلمين، بل إنّ ذلك يصبُّ الزيت على النّار..!!

القضيَّةُ تكمن في إصلاحِ الذّاتِ أولاً، وذلك بالاقتداءِ بالسنّةِ النبويةِ السمحاءِ لقولهِ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢١]، وما يجب على المسلمِ أن يفعلهُ هو (التفكير في تقصيره..!!) وليس التفكير في (أين سيقضي إجازة المولد النبوي؟!!).. وحين كان صوتُ المسلمين قاصراً عن الوصول بفعاليةِ وكفايةٍ إلى المجتمع الغربي فإن هذه المجتمعات كانت ترى وتنظر تصرفات بعض الشباب الذي يزعم بانتمائه للإسلام، والإسلامُ براءٌ منهم.. وكان انعكاس تصرفاتِ هؤلاءِ المشينة تردُّ على الإسلام، وهو ملَّة نقيَّة الثوبِ، طاهرةُ الاعتقاد..! أما حين تكون تصرفات الشباب المسلم في الغربِ أخلاقيَّةً فهي تصبُّ في صالح الإسلام، ودليلٍ على ذلك أن معلِّمة هي أشبه بالمتخصصةِ الاجتماعيةِ حين رأت الفارق الأخلاقي بين الطلّاب الإنجليز الذين خرجوا من السيطرةِ الأخلاقية بحجَّةِ الحريةِ، وبضعِ طلَّابٍ عربٍ مسلمين منضبطين في أخلاقياتهم وتعاملهم، قالت لطالب مسلم: نُريدُ أن نؤمن بدينٍ مثل دينكم يضبط لنا أخلاقنا وأخلاق أبنائنا، فحياتنا خاليةٌ ليس فيها إيمان نتَّبعه!! يا الله.. أين منها المبلِّغون عن الإسلام..؟! إنّ طبيباً أمريكياً - كما يحكي الدكتور زغلول النّجار- دخل الإسلام لأنَّ طبيباً مسلماً ترك خلفه كتاباً عن الإسلام كعادةٍ مقصودة.. فسمح الطبيب الأمريكي لنفسه بقراءة الكتابِ دون حث من أحد فدخل الإسلام هو وزوجتهِ طواعية..!!

كنتُ أتحدَّث مع قس إنجليزي جمعتني به المصادفة في قطار ودار بيننا حوار

جميل، في حين كان بعض الإنجليز يسترقون السمع، تحدّثت فيه - بطريقةٍ غير مباشرةٍ - عن أخلاقيات الإسلام وعن النبي محمد ـ ﷺ ـ، ثم تحدّثت أيضاً عن المشاكلِ الأخلاقيةِ التي يعانيها المجتمع الإنجليزي.. وكانت إحدى الفتيات الإنجليزيات تستمعُ لحوارنا فقالت: لو كنتُ قد سمعتُ مناقشتكما قبل أن أفكِّر في رسالة تخرّجي لكنت اخترت الكتابةَ عن الإسلام والهوية البريطانية..!! في حين كانت رسالتها عبارة عن دراسة مقارنة بين البوذية والنازيّة..!!

وفي أوائل هذا العام جمعتني المصادفة بأمريكي من أصل إنجليزي، فسألني عن رأيي في أحداث أيلول/ سبتمبر، فتحدثت عن أخلاقيات الإسلام العظيمة حتى مع أعدائه، وعددت له أخلاقيات الحرب عند المسلمين، بحسب ما تسمح به معرفتي المتواضعة، فالتمس عندها أمراً كان يفهمُ نقيضهُ عن الدينِ الإسلامي..!

ألخِّصُ القول بأن على المسلمِ أن يقتدي بسنَّةِ نبيّه المصطفى لا أن (يلعلع) مزمجراً وهو بعيدٌ عن أخلاقيات الدين، ثم عليهِ أن يبلِّغ الرّسالة.. وهذه أمانةٌ على كلِّ مسلمٍ يحب دينه، والعتبُ الأكبرُ على العدد الأكبر من أغنياءِ المسلمين الذين تذهبُ ثرواتهم بعيداً عن خدمةِ الإسلام وقضاياه، فأين هي معارضُ التعريفِ بالإسلامِ، وأين اللقاءات مع الآخر، وأين التوظيف الإعلامي السليم والمقبول..؟!

إن دعوة النبي المصطفى عليه السلام لأهل الطائفِ، حين أمروا صبيانهم وجهّالهم برميه بالحجارةِ، كانت بالهدايةِ، ولم يأمر ملك الجبال أن يُطبق عليهم الأخشبين.. ومع هذه الدعوة كان يعملُ على تبليغ الدعوة الإسلامية السمحة، لكلِّ أهل الأرضِ، دون نصبٍ أو تعب بوسائلَ بسيطةٍ وبيقين عظيم..!

الفكرةُ التي أردتُ بيانها هنا تكمنُ في أنَّ تغيير الخارجِ يستوجبُ تغيير الداخل أولاً، إذ لا يمكنُ أن نقنع الآخر بالتغيير، ونحن لا نريد تغيير أنفسنا.. ولقد شعرت بالاستياءِ حينما قال لي أحد الإنجليز: إنّه حينما كان يعمل في إحدى الدول العربية كان لديه سائق، وكان هذا الأخير يطلب منه قيادة السيارة

في رمضان لأنّ قواه خائرة بسبب الصوم لا تجعله قادراً على القيادة..!! وأشعر بالامتعاض أيضاً حينما يُجهدُ الدعاةُ والداعيات أنفسهم في تجسيد الشرِّ كلّه في الغربِ (يصف أحدهم الحضارة الغربيةَ ثائراً بـ (الحضيرة)..!!) والتكريسِ لكيل التّهم عليه، وقد كان أحرى بهم أن يكرِّسوا جهدهم لتفعيل القيم المعطّلةِ في نفوس المسلمينِ.. لكن حينما يزور داعيةٌ عربي كالإمام محمد عبده الغرب يقولون قولةَ الصدقِ، فقد قال الأخيرُ (رأيتُ الإسلامَ ولم أجدِ المسلمينِ)، وفي بواكير هذا العام زار الداعية الإسلامي الدكتور/ عائض القرني[1] باريس للعلاجِ فهالهُ ما رأى في هذه الـ (حضيرة..!!) ولا أجدُ مندوحةً في اختصارِ كلامهِ، إذ هو في صميمِ ما أردتُ قوله وتبيانه، يقول: " أكتب هذه المقالة من باريس في رحلة علاج الركبتين، وأخشى أن أتهم بميلي إلى الغرب وأنا أكتبُ عنهم شهادة حق وإنصاف، ووالله إن غبار حذاء محمد بن عبد الله (ﷺ) أحبُ إليّ من أمريكة وأوربة مجتمِعَتين. ولكن الاعتراف بحسنات الآخرين منهج قرآني، يقول تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٣].

وقد أقمت في باريس أراجع الأطباء وأدخل المكتبات وأشاهد الناس وأنظر إلى تعاملهم فأجد رقة الحضارة، وتهذيب الطباع، ولطف المشاعر، وحفاوة اللقاء، حسن التأدب مع الآخر، أصوات هادئة، حياة منظمة، التزام بالمواعيد، ترتيب في شؤون الحياة، أما نحن العرب فقد سبقني ابن خلدون لوصفنا بالتوحش والغلظة، وأنا أفخر بأني عربي؛ لأن القرآن عربي والنبي عربي، ولولا أن الوحي هذّب أتباعه لبقينا في مراتع هبل واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. ولكننا لم نزل - نحن العرب - من الجفاء والقسوة بقدر ابتعادنا عن الشرع المطهر.

نحن مجتمع غلظة وفظاظة إلا من رحم الله، فبعض المشايخ وطلبة العلم، وأنا منهم، جفاة في الخُلُق، وعنده تصحّر في النفوس، حتى إن بعض العلماء

(١) المقالة بعنوان (نحن العرب قساة جفاة) نشرتها صحيفة الشرق الأوسط في ١٤/ ٢/ ٢٠٠٨، العدد، ١٠٦٧٠ مجلة (الوعي الإسلامي)، العدد ٥١٠، شباط/ فبراير ٢٠٠٨.

إذا سألته اكفهرَّ وعبس وبسر، الجندي يمارس عمله بقسوة ويختال ببذلته على الناس، من الأزواج زوج شجاع مهيب وأسد هصور على زوجته، وخارج البيت نعامة فتخاء، من الزوجات زوجة عقرب تلدغ وحيّة تسعى، من المسؤولين من يحمل بين جنبيه نفس النمرود بن كنعان كِبراً وخيلاء، حتى إنه إذا سلّم على الناس يرى أن الجميل له، وإذا جلس معهم أدى ذلك تفضلاً وتكرماً منه، الشرطي صاحب عبارات مؤذية، الأستاذ جاف مع طلابه، فنحن بحاجة لمعهد لتدريب الناس على حسن الخُلُق، وبحاجة لمؤسسة لتخريج مسؤولين يحملون الرقة والرحمة والتواضع، وبحاجة لمركز لتدريس العسكر اللياقة مع الناس، وبحاجة لكلية لتعليم الأزواج والزوجات فن الحياة الزوجية.

المجتمع عندنا يحتاج إلى تطبيق صارم وصادق للشريعة؛ لنخرج من القسوة والجفاء الذي ظهر على وجوهنا وتعاملنا. في البلاد العربية يلقاك غالب العرب بوجوه عليها غبرة ترهقها قترة، من حزن وكِبر وطفشٍ وزهق ونزق وقلق، ضقنا بأنفسنا وبالناس وبالحياة، لذلك تجد في غالب سياراتنا عُصي وهراوات لوقت الحاجة وساعة المنازلة والاختلاف مع الآخرين، وهذا الحكم وافقني عليه من رافقني من الدعاة، وكلما قلت: ما السبب؟

قالوا: الحضارة ترقق الطباع، نسأل الرجل الفرنسي عن الطريق، ونحن في سيارتنا، فيوقف سيارته ويخرج الخارطة وينزل من سيارته ويصف لك الطريق وأنت جالس في سيارتك، نمشي في الشارع والأمطار تهطل علينا فيرفع أحد المارة مظلته على رؤوسنا، نزدحم عند دخول الفندق أو المستشفى فيؤثرونك مع كلمة التأسف، أجد كثيراً من الأحاديث النبوية تُطبَّق هنا، احترام متبادل، عبارات راقية، أساليب حضارية في التعامل.

بينما تجد أبناء يعرب إذا غضبوا لعنوا وشتموا وأقذعوا وأفحشوا، أين منهج القرآن: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٣]، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٣]، ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٥]، ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾

وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان: ١٨/٣١-١٩]. وفي الحديث: " الراحمون يرحمهم الرحمن "، و " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده "، و " لا تباغضوا ولا تقاطعوا ولا تحاسدوا ". عندنا شريعة ربّانيّة مباركة لكن التطبيق ضعيف، يقول عالم هندي: (المرعى أخضر ولكن العنز مريضة)) انتهى.

هذا ما يقوله داعية إسلامي معروف، وقد وقف وقفةَ صدقٍ وعدلٍ، وقفةَ مسلمٍ منصف غير متحيِّزٍ ولا محابٍ.. أراد أن يضع يدهُ على الجرحِ، وهو يعرفُ الدواءَ..والمصيبة أنَّ الدواءَ في متناول يد المسلمِ ولكنَّه لا يريدهُ.. الإسلامُ قد صنع أرقى حضارةٍ على وجهِ الأرضِ، حضارةً سامية، عظيمة تباهي كلَّ حضارةٍ، لكنّها لا تنتقصُ منها.. لكنَّ أغلب المسلمين في الوقت الحاضر يتخذون من الدينِ الإسلامي قناعاً أو "مظلَّةً"..!

لا يمكن لمجتمعاتنا أن تتغيَّر، وأن تسود فيها قيم الدينِ الإسلامي السمحة إلّا أن ترقَّ طباعها، وتلينَ جوانبها، وترهف أذواقها.. فالدِّينُ الذي جعلَ الابتسامةِ حسنةَ (ابتسامتك في وجهِ أخيك صدقة) حديث شريف، والسلامَ لغةَ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣/٢٥]، هو دينُ العطفِ والرِّقةِ والعفو، والتسامحِ، والرأفةِ والتآخي.. ولا يمكنُ أن يحدث تغيير إلّا بفهمِ الدِّينِ فهماً قويماً، وليس هذا وحسب بل وتطبيقه..

إنَّ نبيَّ هذه الأمَّة العظيم يقرأ القرآن في حجر زوجته السيّدة عائشة، فكم يفعلُ هذا من الدعاة؟! ويسابقها وتسابقه، فكم يفعلُ هذا من الدعاةِ؟! ويقبِّل ابنته السيدة فاطمة كلّما دخلت عليه على جبينها، فكم يفعلُ هذا من الدعاة؟! ويعفو عمّن أساء إليهِ، فكم يفعلُ هذا من الدعاةِ؟! وهو خير الناس لأهله، فكم هم الدعاةُ الخيِّرون لأهلهم؟! فإن كثر اقتداءُ الدعاةِ بنبيِّهم في هذه اللفتات الجميلةِ وطبّقوها عن صدقٍ، تناقل المجتمع سلوكياتهم، وتذاكروا أفعالهم الرقيقةِ.. لكن كم سمعنا عن بعض من (التزم دينياً) أنّه تزمّت، ولم تعد شفتاهُ

تعرفُ الابتسامة وهي (صدقة في الدين)، صار قاسياً مع زوجتهِ، جافاً مع أبنائه، إذا مرّ على جمعٍ لم يسلّم، حتى بلغ الأمر بالبعضِ ذروته بأن أصبح يصافح أمّه بعصا..!! أفبهؤلاءِ ينتصحُ المجتمع؟! أبهم يتذكر وبهم يقتدي..؟! أهؤلاءِ هم من يقوده نحو الصلاح، والسدادِ..؟!

التغييرُ في المجتمعِ لا يتمُّ إلّا بواسطةِ أُناس تهذبت طباعهم، وتعمّقت معرفتهم بالدِّين، وفي الوقتِ نفسه خبروا أحوال الناسِ، وأدركوا طبيعةَ الظروف الاجتماعيةِ، فسهّلوا على الناسِ ولم يشقّوا، ويسّروا عليهم ولم يعسروا، وأرشدوهم إلى هيِّن الأمرين مالم يكن إثماً..

كنتُ أقفُ ملتزماً في طابور، أمام أحد النوافذِ الزجاجيّة في إحدى المستشفيات، وكان الموظف منشغلاً بالتحدث إلى إحدى النساء اللاتي يطلبن بإلحاحٍ زيارة أقربائهن، وفجأةً اقتحم الطابورَ أحد الذين يُرى مظهر الدِّين في هيئتهِ، فحشر جسده عنوة بين المرأةِ والنافذةِ، فدفع المرأةَ جانباً في رعونةٍ وقسوة..!!، مما حدا بالمرأة التي وجدت نفسها قد دُفعت بجسدِ رجل غريب، أن تلهب سياط لسانها في الرجل الذي رأتهُ (ملتزماً)، صائحةً في وجهه: إذن ما فائدة التمسّك بالدين إن كنتّ لا تعرف أن تستأذنَ بأدب..؟!! وقد حدث أمامي موقف مماثل في أحد الطوابير بأحد البنوكِ حينما تخطّى الطابورَ الطويلَ أحد الذين يُرى الورعُ والتّقى في ملبسهم وهيئتهم..! فلم يجدِ نفعاً أمر الموظف له بالوقوف في الطابورِ فأنهى معاملتهُ ومضى لا يلوي على أحد..!!

علينا هنا أن نؤكّد أن هذه نوعيّة معيّنة من الناس الذين اتخذوا الدّين مظهراً وليس جوهراً، هيئةً وليس منهجاً.. وهي على كلِّ حال عيّنةٌ بسيطة إنّما مؤثِّرة..!!

وفي جانب التغيير الإداري، كنتُ أضجُّ بسؤال وحيد ألحَّ عليَّ في إحدى ندوات الموارد البشرية التي أشرفت عليها إحدى المؤسسات العربية، فسألت المدير العام للمؤسسة في فسحةِ الحوار: من يقصدُ خطاب الندوة؟! إنني أرى أن الخطاب كأنّه موجّه لأناسٍ آخرين ليسوا هؤلاءِ الحاضرين، أناس ينتمون لعهد بائد..! أناسٍ متّهمون بالتحجّرِ في الفكرِ، والتّزمتِ في الأسلوبِ، والتقليدِ

في الطريقة.. لكن الحقيقة أن هؤلاء الحضورِ من أبناءِ هذا الجيل الموصوف بالوعي والإدراك والاستنارةِ، هم ذاتهم المنتهجون منهج من ينتقدونهم، والماضون في طرقهم التقليدية، فهم حجرُ العثرة أمام التطوير، وهم المثبِّطون للهمم، وكأن الدائرةَ تدور، وجيل واحد متكرر هو الذي يخلفُ نفسهُ فلا تجديدَ ولا تحديثَ.. مسيرةٌ واحدةٌ ومنهجٌ سلوكيٌّ واحد...!! فأي تغييرٍ يُرتجى، وأي تحديثٍ يؤمل..؟!

لقد درس من هؤلاءِ كثيرون في الغربِ لكنّهم أخذوا عنه القشور، حصلوا على شهاداتٍ فارغة من المضمونِ، وتركوا اللبَّ وراءهم، تركوا منهج العملِ، والتطوير، والتحديثِ والتحفيزِ خلفهم؛ لأنّهم لا يحتاجون إليهِ. فهم إن فعلوا ذلك أيقنوا أن مناصبهم آيلةٌ للزوالِ ولهذا خير لهم ألا يبتكروا ولا يطوِّروا ولا يشجّعوا ولا يؤازروا ولا يثنوا ولا يحفِّزوا لأنَّ ذلك يعني، في المقابل حسب منطقهم المغلوط انتقاصاً من سلطاتهم، ووجاهة مناصبهم، وتقصيراً لأعمارهم الوظيفية في المناصبِ الإدارية العليا أو الوسطى..!!

لن يتحقَّق التغييرُ إذن إلّا إذا تنازلَ المرءُ عن وجاهتهِ الموهومةِ، وسلطتهِ الجاهلةِ، وتشبِّثه الأعمى بالمنصب، وركنَ إلى المنطقِ، وإلى النظرةِ العليا التي لا تشوبها شائبة المصلحةِ، ولا تكدرها أدرانُ الجشعِ الإنسانيِّ البغيض..!

ثلاث طرائق أراها للتغيير الحقيقي، هي:

الأول: المواجهة مع الذاتِ وتحمُّل المسؤولية لقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١/١٣].

الثاني: التّخلِّي عن شوائب النفسِ التي تحكرُ الرّغبات الجشعة في محيطٍ ضيِّق لا يتّسعُ للآخرين، والارتواءِ بالإيمان المستنيرِ، لقوله ﷺ" لن يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه".

الثالث: تفعيل القيم التي جاء بها الإسلام تفعيلاً عمليّاً صادقاً "تركتُ فيكم شيئين لن تضلوا ما إن تمسّكتم بهما: كتاب الله وسنّتي" حديث شريف.

لن ينفع العلمُ بالشيءِ في حدِّ ذاته إلّا إذا تُرجم بفعالية على أرض الواقع، يقول مالك بن نبي: إن الفكرةَ لا تثبت فعاليتها إلا إذا أُثبت نجاحها على أرض الواقع. ومن هنا، فأيُّ ادعاءٍ بالعلمِ بالقيمِ ليس له أيّ قيمةٍ ما لم يصاحبهُ التطبيق، فالمعرفةُ معطّلةٌ إن لم يصاحبها الفعلُ الذي يهدفُ إلى إثباتِ صحّتها ووضعها موضع الاختبار. كنتُ أستمعُ إلى داعيةٍ معروف وكنت معجباً بحديثهِ عن شمائلِ الرسول صلوات الله وسلامه عليه، حتى وصل إلى نقطةٍ أثارت - وتثير - استغرابي دائماً حين تساءل قائلاً: هذه أخلاقيات المسلم، لكنّها غابت فلا ندري من الذي ضيَّع علينا أخلاقياتنا..؟!!

المعضلةُ هي ذاتها لم تتغير ابتداءً.. من.. الإنسان العربي بسيط المعرفة الذي لا يعترفُ بخطئهِ..!!

إلى.. الطالب العربي الذي قال لي: لا أحد يأخذ بيدي لتنمية قدراتي..!!

إلى.. المعلّمةِ التي قالت لي: التغيير مسؤولية المجتمع وليست مسؤولية الفرد وحده..!!

إلى.. المثقَّف الذي يُطلقُ العبارات الصاروخيّة حول (الغزو الثقافي)..!

إلى.. الخطيب الذي يتهم الآخر بتسميم الشباب العربي المسلم..!!

إلى.. السياسي الذي يعتقد أنّ (المؤامرات التي يحيكها الآخر) هي وراء مصائبنا..!!

إلى.. الداعيةِ الذي يتساءل عن الذي ضيّع علينا أخلاقياتنا..!

لكن الحقيقةَ تكمنُ في قولهِ ﷺ " تركتُ فيكم شيئين لن تضلّوا بعدهما: كتاب الله وسنَّتي".. وهي في مقولةِ سيدنا عمر بن الخطابِ رضي الله عنه وهو يرسمُ الخط العريض لقائدِ جيشه في قوله " إن هزمت فليس لقوّةٍ في عدوَّك وإنّما لضعفٍ فيك..! "

هذا الأمرَ يقودنا إلى الرجوع نحو فكرة الحضارةِ، في فكر أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) الذي رأى أن الحضارة هي "مواجهة لجماعة بشرية معينة

وتحديها تحدياً عظيماً باستجابة مناسبة، في حين رأى مالك بن نبي أن الحضارة "تنشأ حين تندفع جماعة بشرية (يسميها بن نبي "إنسان ما قبل الحضارة") بتأثير فكرة عظيمة من طبيعة دينية صريحة أو مضمرة إلى بناء حضارة وفق القالب الذي أعطتها إياه المثل العليا للفكرة الدافعة (أو "الفكرة المطبوعة") وهذه الفكرة العظيمة تنظم الطاقة الحيوية للأفراد وتوجهها في اتجاه بنائي. معنى هذا أن الحضارة لا تنشأ إلّا بتنازل الفردِ عن دوافعهِ الأنانيةِ، لكي يعبِّر بذلك عن "الاستجابة" المناسبة نحو "الفكرة العظيمة"، ويستبدل مفهوم السعادة من مفهوم أناني يجعل السعادة تتحقق بتحقق الدوافع الدنيا إلى مفهوم مغاير يجعل السعادة تتحقق بتحقق الدوافع العليا.

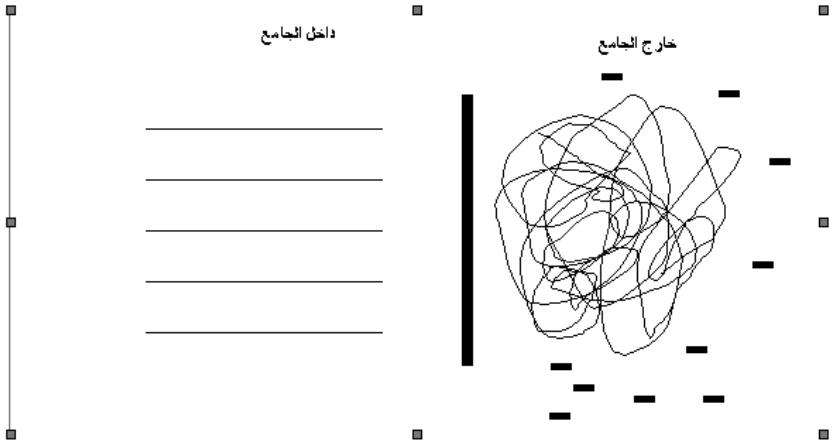
داخل الجامع
خارج الجامع

مراجع عامّة

- مالك بن نبي: من أجل التغيير، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥.
- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ت/ عبدالصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٩.
- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ت/ عبدالصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٩.
- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ت/ د.بسام بركة و د. أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٩.
- ديل كارينجي: دع القلق وابدأ الحياة، مطبعة النافذة، الجيزة، ط١، ٢٠٠٤.

صفحة بيضاء
رقم ٢٢٠

نبذة عن الكاتب

صالح بن محمد الفهدي

سلطنة عمان

- حاصل على شهادة الماجستير في إدارة الأعمال بجامعة هل بالمملكة المتحدة عام ٢٠٠٧.
- يحضِّر حالياً رسالة الدكتوراة بالمملكة المتحدة (في مجال تنمية الموارد البشرية)
- **صدرت له عدّة مؤلفات، هي:**
  - ❋ مواسم الغناء - ديوان شعر ١٩٩٤
  - ❋ قابوس في القلب - ديوان شعر ٢٠٠٠
  - ❋ لأجلك قلبي يصلي - ديوان شعر ٢٠٠٣
  - ❋ خفقان اللّازورد - دراسات في الشعر ٢٠٠٣
  - ❋ مدارات الحبيب - ديوان شعر٢٠٠٧
  - ❋ مسيرة الإنجاز، تأمُّلات في النهضة العمانية الحديثة (إصدار وزارة الإعلام) ٢٠٠٥
  - ❋ قيم تربوية تعليمية (إصدار وزارة التربية والتعليم) ٢٠٠٨

- **كَتَبَ في عدّة مجالات أدبية، منها:**

* القصة، وقد نال فيها العديد من المراكز المتقدمة على مستوى السلطنة.
* المسرحيَّة، وقد نالت نصوصه جوائز أولى في العديد من المسابقات، وكتب ما يقارب الخمسين مسرحيّة.
* الأوبريت الغنائي، فقد كتب للعديد من المهرجانات الوطنيّة والتربوية وغيرها.
* المقال، كتب مئات المقالات في الصحف العمانية، وله زاوية ثابتة في صحيفة (الوطن).
* أعمال تلفزيونية أبرزها، حكايات ليث، والقناديل.
* كرِّم في العديد من الاحتفاليات والمناسبات،كان آخرها تكريمه كواحدٍ من مبدعي الخليج العربي في مهرجان الإذاعة والتلفزيون بالبحرين عام ٢٠٠٦.
* عضو اللجنة الدائمة لمسرح الفرق الأهلية في الخليج العربي من عام ١٩٩٧- حتى ٢٠٠٦.
* عضو في العديد من اللجان المحليّة.
* رئيس فرقة الصحوة المسرحية منذ عام ١٩٩٧، وهي أول فرقة أهليه مسرحية أشهرت في عمان.

مستخلص

يرى هذا الكتاب أن المعضلة الحقيقية في المجتمعات العربية تكمن في ((أزمة القيم)). يتبدى ذلك في حيرة الإنسان العربي بين الأخذ بقيمه الأصيلة وبين اعتماد القيم الوافدة، فهو يعيش موزع الانتماء بينهما مما يؤدي إلى المفارقة القيمية التي تعني ازدواجية القول والفعل، وهو ما يخالف قول الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (*) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٦١/٢-٣].

كان الباعث لتأليف هذا الكتاب كما يقول المؤلف هو: لماذا هذا البون الشاسع بين مشهد الناس داخل الجامع وحياتهم خارجه؟

ينقسم الكتاب الذي يعالج هذه المعضلة إلى ثلاثة فصول؛ تناول في الفصل الأول منه القيم المعطلة في الأخلاق والسلوك (الحياة العامة)، مثل قيم اللغة والوقت، والعلم والعمل، والحوار والإيثار، وسلامة الصدور والاعتذار، والحلم ومعاملة الرجل للمرأة، والحياء والتسامح والثقة، والنظرة إلى النفس وإلى الآخر، والنظام. وتوفر في الفصل الثاني على القيم المعطلة في الثقافة التنظيمية (حياة العمل)، فتحدث عن قيم تتعلق بالعمل وضياع الهوية والاستلاب. في حين عرض في الفصل الثالث الأخير للحلول التي رآها تناسب للتغيير من باب الوسائل والأدوات التي يتم بها تجاوز الوضع السلبي إلى البناء، ويتمثل ذلك بإرادة اقتران القول بالعمل، والاقتناع بأن الجهل منطلق التغيير، وصون الهوية، ونقد الذات، والاجتهاد المجدد من أجل إصلاح الذات.

Abstract

This book sees that the real dilemma in the Arab societies lies in "The Crises of Values", which manifests itself in the Arab human's bewilderment between grasping his original values and adopting the imported values so that helshe lives within separate belongings amongst them. This situation leads him/her to a paradox of values which means duality in words and actions. This, in turn, contradicts with Allah's Words: "O you who believe! Why say you that which you do not do? It is most hateful in the sight of Allah that you say that which you do not do. [Qur'an 61:2-3]

According to the author, the stimulant that incited writing this book is: "Why does such a great gap exist between the reality of people inside the mosque and their life outside it?"

The book which handles this dilemma is divided into three chapters. Chapter One deals with *The Inactivated Values in Morals and Behavior* (in public life), such as the values of language, time, science, work, dialogue, altruism, the purity of hearts, apologizing, forbearance, how the husband treats his wife, modesty, tolerance, trust, the look at the self and at the other and discipline. Chapter Two discusses *The Inactivated Values in the Organizational Culture* (work life) so that it talks about values connected to work, the loss of the identity and theft. Chapter Three presents the solutions that seem to the author fitting for alteration, whether means or instruments, by which the present negative reality of the process of building could be exceeded, which is represented in the will of making deed go abreast with words, having conviction that ignorance is the starting point of change, preserving the identity, self-criticism and the innovative independent judgment for self reformation.

.